رواية

جهاد المحبين



جرجي زيدان

عبوساً تلوح عليهِ ملامح الكآبة والارتباك فوصل الباب وهو غارق في بحار الهواجس فاعترضهُ ازدحام الناس هناك فانتبه بغتةً كأنهُ هبَّ من رقاد فمدَّ يدهُ الى جيبهِ واخرج رقعة من رقاع الدعوة دفعها الى الحاجب فاذن لهُ بالدخول

فدخل لا يدري الى ايّ جهة يسير فقادتهُ السليقة الى جهة الازدحام الكثير حول دكة الموسيقى وكان لارتباكهِ وهواجسهِ كأنهُ سائر في خلاء قفر لا يستوقفهُ منظر حتى اذا وصل الى متكإٍ في قهوة الى جانب الموسيقى عرج اليهِ وجلس الى كرسي واشعل سيكارتهُ واخذ يدخن والناس يخطرون امامهُ ذهاباً واياباً بين رجال ونساء واولاد على اختلاف الازياء والاشكال وهم فيما تقدم من مظاهر السرور ولوائح الرغد اما هو فلم يكن يفقه لهم ولا ينتبه لحركاتهم كأنهُ في غيبوبة لا شاغل لهُ الاَّ التدخين بسيكارتهِ وملاعبتهُ عصاهُ في يدهِ ينقلها من اليد الواحدة الى الاخرى واذا انتهت اسيكارة اشعل سواها حتى اصبح الدخان حولهُ اشبه شيء بدخان الاتون

ولم ينتبه من غيبوبتهِ هذهِ حتى جاء غلام القهوة يسألهُ عما يريد ولم يكن يعلم ماذا يطلب لانهُ لم يكن في حاجة الى شيء يشربهُ او يأكلهُ . ولكن العادة قضت عليهِ بطلب بعض المشروب فجيء بهِ اليهِ ثم عاد الى هواجسهِ

وفيما هو في ذلك شعر بيد لمستهُ على كتفهِ وصوتٍ يناديهِ نداء التحية فالتفت كمن هبَّ من نعاس فاذا بصديق لهُ ينظر اليهِ مبتسماً وقد

مدَّ اليهِ يدهُ مصافحاً فانتصب للقائه وصافحهُ وقد شعر عند مشاهدتهِ كأنهُ كان في ضيق وقد اتاهُ الفرج فدعاهُ الى الجلوس قائلاً اهلاً وسهلاً بك يا عزيزي تفضل

فقال مالي اراك هنا الليلة وعهدي بك انك مقيم في حلوان

قال قد جئت لتفريج كربتي بمشاهدة هذا الاحتفال الليلة ولكنني لم ازدد الا كرباً وقد ارسلك الله اليَّ في ساعة الحاجة اليك اني والله يا سليم في ارتباك عظيم وقد بعث بكَ الله لتعزيتي ولاغرو فان الصديق الصادق من شاركك في سرائك وعزَّاك في مصابك

فاجابهُ صديقهُ (وقد جلس واشعل سيكارتهُ ونظر اليهِ نظرة الاخلاص) لا اراك الله ضيقاً يا صديقي انك وحقك لاعز من الصديق واقرب من الاخ ولا تظن اخاك هذا الا مشاركاً لك في سرائك وضرائك واذا لم يدفعني الى غوثك دافع الحب فعشرة الصبوة وحقوق التربية تتكفلان بذلك قل ما بدا لك

الفصل الثاني

﴿ حال المستخدمين ﴾

فاجابهُ حبيب وقد كادت تنقشع ظلمة العبوسة عن وجههِ . قضت عليَّ الاحوال ان انتظم في سلك خدمة الحكومة المصرية كما تعلم وهي خدمة ما كان اسعدها لو لم يكن من امرها في هذه الايام ما كان من

الرفت لاقتصاد الحكومة في نفقات دوائرنا ولم يكن يخطر لي يوم انتظمت في سلكها ان يكون هذا مصيرها وقد قضيت خمس سنوات اخدمها بهمة ونشاط حتى كانت الثورة العرابية وهاجرنا هذه الديار وتكبد النفقات مع والدتي وشقيقتي في الاسفار الطوال حتى انفقت ما كنت قد جمعته من فضلات الراتب الشهري وعدت في اوائل السنة الماضية لا املك غرشاً واحداً لكنني كنت عالق الامل بالعود الى منصبي فعدت اليه وتعاطيت اشغاله لكنني لم اكد انسى تلك المشقات والاسفار حتى داهمني القدر بما لم يكن في الحسبان ... قال ذلك وتأوه

فتطاول صديقه بعنقه اليه وقد اظهر الاهتمام وسأله ان يكاشفه حقيقة الامر

فقال قد علمت عن ... الحكومة لا تزال عاملة على الاقتصاد ... المستخدمين ... خبر ... الامس ... ان بعضاً من رفاقنا سيرفتون وفي جملتهم ... يقتضي ... ان ... مفتوح ... خال للاسباب التي قدمتها

فقال سليم ومن انبأك بذلك يا حبيب

قال انبأني به صديقنا ...

قال ... مستهزئاً ومن اخبره بذلك ان الامر لعلى خلاف ما ظننت وما ... الاستعجال في البلاغ ...

قال لا تعزني بهذا القول اذ لا ارى الخبر الا صحيحاً لا ريب فيه

قال كلا يا عزيزي ان خبر ... الصحة بل هو يعكس الواقع

فابرقت اسرّة حبيب ونظر الى سليم بين المستطلع وقال وكيف ذلك لعلك تمزح . قال كلا ولكنني اقول الصحيح ان ما بلغك محض اختلاق وما اخبرك به صاحبنا الا لغرض في نفسه انت تعلمه . والحقيقة انك ستنال مركزًا احسن مما انت فيه ..

فقطع عليه الكلام قائلاً قل الحق ناشدتك الله

قال اني اقول الحق كل الحق انك سترقى الى مركز احسن حالاً وارفع مقامًا في نظارة الداخلية وقد علمت ذلك عن ثقة فكن ساكن البال

فلم يصدق حبيب ذلك حتى أكّده له صديقه وقال له ان غدًا لناظره قريب فلا تبتئس ولا تجزع وهب انك رُفِتّ فباب الرزق واسع والله لا يترك احدًا يهلك جوعًا.

قال حبيب وقد انبسطت اسرّة وجهه حقق الله الآمال يا عزيزي والله انك لوجه السعد ولولا محبتك لما كنت اصاب بمرض لشدة غيظي فعسى ان يصح مقالك فأشكر لسعيك صنيعك واحمد الله على ذلك . اما قولك اني اذا خرجت من خدمة الحكومة الاقي عملاً فهذا لا يكون الا نادرًا لان من يخدم الحكومة تقل رغبته عن سائر الاعمال فاذا خرج من خدمتها لا يرى له عملاً يتعاطاه ليس لقلة الاعمال ولكن لتعوده الراحة وتقاعده عن اكتساب ما يؤهله لمزاولتها . اصرّ بذاكرتي الآن سابق سيرة حياتي وقد ندمت ندمًا لا مزيد عليه لاني لم اسمع مشورة والدي رحمه الله في معاطاة التجارة معه فلو اطعته لكنت في غنى عن هذا الارتباك ولكن قد نفذ القدر

الفصل الثالث

﴿ محبٌ مستتر ﴾

ولما تخلص حبيب من تردُّدهِ وارتباكهِ اخذ يمتع نظرهُ بما حولهُ من المناظر وصديقهُ الى جانبهِ يتجاذبان اطراف الحديث

فقال حبيب ما الذي جاء بك هذهِ الليلة وكنت اظنك في شاغل في بيت عمك تشاهد خطيبتك فكيف جئت هذهِ الحديقة ألعلك تسرُّ بمشاهدة هذهِ الانوار وتأنس بهذا الازدحام اكثر من مشاهدة خطيبتك

فعلا وجه سليم الاحمرار لتذكرهِ خطيبتهُ وما يقاسي من اجلها وانقبض وجههُ ولكنهُ حاول اخفاء عواطفهِ وهواجسهِ فسكت برهة وحبيب يراقب حركاتهِ كأنهُ يريد استطلاع مكنونات قلبهِ لعلمه بكيفية توصلهِ الى تلك الخطيبة وما بينهما من روابط المحبة

فقال سليم يريد اخفاء ما في ضميرهِ اني قضيت معها مدة قصيرة ثم رأيتها في حاجة الى الرقاد فتركتها لتسير الى فراشها باكرًا وجئت أقضي بقية السهرة في هذهِ الحديقة ثم اسير الى الفراش ايضاً

فلم يصدق حبيب مقالهُ ولكنهُ اظهر الاكتفاء بهِ على نية ان يستطلع حقيقة الامر بنفسهِ في الغد ولكنهُ اعاد نظرهُ اليهِ فاذا هو صامت لا يتكلم وقد علت أسرّتهُ العبوسة وخامرهُ الاضطراب

فقال لهُ مبتسماً ارى صديقي قد وقع في ما كنت فيهِ ألعلهُ يخاف الرفت ... وضحك

فعلا وجه سليم الاحمرار بغتة واراد التكلم ثم تلجلج وصمت

فاراد حبيب ان يستزيده في السؤال فخاف ان يضغط على عواطفه وكانت الموسيقى قد جاءت على آخر نغمها فوقف وتأبط صديقه ألا توافقني في المسير من هنا لنمشي في الحديقة ونتمتع بمناظرها فوقف سليم وهو يحاول اخفاء عواطفه ولا يستطيع

فتجاهل حبيب عن امره وتناوله بيده وجعل يحادثه في امور مختلفة تتعلق بالزينة وبهرجها واشتغال الناس بها فكان سليم يجيبه ويجاذبه الحديث اخفاء لما به وحبيب يبالغ في التجاهل عن امره تسكيناً لما هاج فيه ولكنه كان شديد الميل الى معرفة سبب انقباضه

ثم مشيا مدة صامتين وكل منهما يفكر في جهة ونظرهما يتنقل الى المارة والجلوس وما شعرا الا وهما عند باب الحديقة الشمالي فنظر حبيب الى ساعته فاذا هي في نحو الساعة التاسعة فاستخار رفيقه في الخروج فخيره فقال هلم بنا نخرج الى مكتب البوسطة لاني انتظر بريداً من اوروبا هذه الليلة فخرجا حتى وصلا شباك البوسطة فسألا هل اتاهما كتب فمد صاحب البريد يده واعطى كلاً منهما كتاباً

فتناول حبيب كتابه وقرأ عنوانه فاذا هو بخط كأنه يعرفه ونظر الى طابع البريد على الغلاف فاذا هو طابع مصري وعليه ختم مكتب القاهرة فعلم انه صادر منها ففضه واخذ يتلوه واذا فيه :

« يا سادتي هل يخطرنَّ ببالكم   من ليس يخطر غيركم في باله

« يا شقيق الروح ومالك الفؤاد

« اكتب اليك هذه الكلمات بغير امضاء والقلب يخفق واليد ترتعش فاذا كانت القلوب شواهد كما يزعمون خفق قلبك وارتعشت يدك وعرفتَ ما لك في قلب هذهِ المسكينة من المحبة التي كتمتها حتى طفحت فلعلك اذا عرفتها ان ترثي لها والاَّ فانها شكوى ابثها لمن ملك قلبي مع بقاء امري مكتوماً في ضميري عنهُ وعن سواهُ الى ان يقضي الله بما يشاء »

فبغت عند مطالعته واخذ يتأملهُ ويكرر قراءتهُ سرًّا عن صديقه ثم نظر اليهِ فاذا هو يتلو كتابهُ وقد بهت وامتقع لونهُ واخذت الورقة تنتفض في يدهِ فطوى حبيب كتابهُ وخاطب صديقهُ قائلاً

خيرًا ان شاء الله يا سليم

قال وقد تلجلج ليس فيهِ سوى الخير يا عزيزي قال ذلك وطوى الكتاب وجعلهُ في جيبهِ ومشى يريد الخروج من البوسطة فمشى حبيب الى جانبهِ يفكر تارة في كتابهِ وطورًا في رفيقهِ وما ظهر عليهِ من ظواهر الاضطراب واراد استطلاع حقيقة حالهِ فمنعهُ التأدب ولكنهُ عوَّل على محاولة ذلك بالحيلة

فقال لهُ سبحان الله كم تختلف الناس في الاخلاق فانك تكاد لا ترى اثنين على خلق واحد وقد صدق من قال

انما نحن في اختلاف عقولٍ مثلما نحن في اختلاف وجوه

اما انا فاذا أغضبني امرٌ لا استطيع اخفاء عواطفي قط فاذا كان الى جانبي احد عرف انني في انقباض كما عاينت ذلك فيَّ هذهِ الليلة

فتنهد سليم تنهدًا خفيًّا وقال لعل ذلك خلق في الناس كافة . قال ذلك وكأنهُ احسَّ بقرب تغلب صديقهِ على لسانهِ فأسرع الى قطع الحديث

وتعلل بميله الى الرقاد قائلاً اشعر بتعب وألم في الرأس فأفضل المسير الى البيت مع ما كنت اوده من قضاء بقية هذه الليلة برفقتك . فشعر حبيب بمدافعته ولكنه تجاهل واجابه «ان النوم افضل شيء للراحة وانا ايضاً احس بمثل هذا التعب لما كنت فيه من الشواغل في هذه الليلة وافضل الذهاب الآن لادرك القطار الذي يسافر الى حلوان الساعة العاشرة» ومد يده مودعاً فتصافحا وسار كل في سبيله وفي نفس كل منهما امر يحاول اخفاءه عن رفيقه

الفصل الرابع

شقاء المحبين

اما حبيب فذهب غرباً قاصداً المحطة فلما توارى عن صديقه استخرج الكتاب من جيبه وجعل يردد نظره فيه ويقرأه تكراراً مستضيئاً بأنوار الشوارع ويتأمل الخط لعله يذكر صاحبه فلم يتذكر

وما زال حتى وصل محطة باب اللوق فاذا بالقطار قد أقلع فسأل عن القطار الذي يسافر من بعده فقيل له انه سيسافر في منتصف الليل فساءه ذلك لما هو فيه من الهواجس والارتباك

فخرج من المحطة واخذ يتمشى قاصداً الجزيرة يقضي فيها ساعة ثم يعود في وقت مسير القطار فمشى والكتاب لا يزال في يده وأفكاره سابحة في بحر من الهواجس وجعل يردد في ذاكرته البيوت التي يختلف اليها والسيدات اللواتي عرفهن لعله يستطلع امر كاتبة تلك الاسطر فلم

ينتبه الاَّ وهو على كبري قصر النيل المائل فنبهه خرير الماء من تحته فوقف برهة واطل على النيل يتأمل مجراهُ والسكوت مستولٍ على تلك الجهة لا يسمع فيها الاَّ خرير الماء عند التقائه باعمدة الجسر

ونظر الى مدى الجسر فاذا بالانوار مصطفة على جانبيهِ كأنها كواكب ثابتة تتلألأ في ذلك الفضاء فاندفع من نفسهِ الى المسير فمشى الهوينا حتى وصل الجزيرة ودخل شارعها المظلل بالاشجار فمشى فيهِ ثم عرج في منعطف نحو الشاطىء فسمع قرقعة عربة مارة في الشارع ثم رآها وقفت فتربص ليرى ماذا يكون من امرها فاذا بشبح نزل منها وعرج في منعطف بالقرب من المكان الواقف هو فيهِ وسار حتى اتى النيل وانحدر الى الشاطىء

وكان حبيب واقفاً في ظل نخلة فبالغ في الاختفاء وراءها حتى رأى الرجل قد وصل اسفل الشاطىء فاذا بهِ قد جلس على حجر هناك وتأملهُ حبيب فاذا بهِ يشبه صديقهُ سليماً فامعن النظر فيهِ فاذا هو هو بعينهِ فاشكل عليهِ امرهُ وعجب لمجيئهِ الى هناك في ظلام ذلك الليل وقال في نفسهِ الافضل لي ان امكث هنا مختفياً لأرى ماذا جاء بصديقي هذا الى هنا ثم تذكر ما رآهُ فيهِ من الارتباك ذلك المساء فخاف ان يكون قد وقع في اليأس واراد الانتحار غرقاً في النيل فمشى بعض الخطوات بكل خفة حتى اصبح وراءهُ وجلس مختفياً وراء النخلة ليرى ماذا يكون من امرهِ وعوّل انهُ اذا رآهُ يريد القاء نفسهِ في النيل يسرع الى انتشالهِ وشكر الله على ما كان من تأخرهِ عن

وقت سير القطار الى حلوان

اما سليم فانهُ جلس الى الشاطىء والماء جارٍ امامهُ والظلام مستولٍ على تلك الجهة الاَّ ما يصل اليها من الاشعة البعيدة المنبعثة من انوار الجسر وهي خفيفة جداً وبعد سكوتهِ برهةً والتفاتهِ يمنةً ويسرةً كأَنهُ يحاذر ان يراهُ احد تنفس الصعداء وقال متحرقاً «آه آه من حوادث الزمان آه يا لجهالتي وقلة تدبيري آه يا سلمى حبيبتي منيتي منى فؤادي» واراد اتمام الحديث فسبقتهُ العبرات واطلق لنفسهِ عنان البكاء حتى سمع حبيب صوت شهيقه فتفتت قلبهُ عليهِ وتحركت عواطفهُ حتى كاد يشاركهُ في البكاء ولكنهُ امسك نفسهُ ليرى ماذا يظهر منهُ

فاذا بهِ بعد البكاء والشهيق برهةً عاد فقال . اني احبك والله حباً لم اشعر بهِ عمري ولم اكن اعلم ان الحب يملك القلب ويتسلط على العواطف الى هذا الحد . آه ما احلى الحب وما امرَّهُ آه آه . . .» وعاد الى البكاء . ثم قال منادياً نفسهُ «آه يا سليم هل خطر ببالك انك تصبح العوبة بيد الحب وانت انت الذي لم يكن يعبأُ بحوادث الزمان ولا يهمهُ امر من الامور . آه يا الهي ماذا اعمل لأَتخلص من هذه الحال حال التردد . أَأَترك سلمى . . . لا لا لا والله لا اتركها ولا اتخلَّى عنها لانها تحبني وقد علقت آمالها بي بناء على وعدٍ لها مني وهي ملاكي وحبيبتي ومنتهى املي . . . لا لا لا اتخلَّى عنها لاني لا ادري ماذا يلمُّ بها اذا عرفت بترددي في محبتها لا لا لا يجب ان اتردَّد هي هي كعبة آمالي . سلمى حبيبتي روحي فداكِ انت الآن راقدة في فراشك وقد كحَّل عينيك الكرى فنامي هنيئاً ولا

تزعجك الاحلام» ثم سكت برهة وحبيب يسمع اقواله كلمة كلمة ويتمعن فيها لعله يستطاع من خلالها سبباً لهذه التأوهات

ثم سمعه يقول وقد امسك نفسه عن البكاء ومسح عينيه بمنديله .

«ماذا جرى لي لماذا انا خائف . اني خائف على سرّي ان يباح ولكن من يبيحه وليس غير هذا النيل شاهدًا وهو لا يعيّرني في الحب اذ كم من المحبين قد اضافوا ماء عيونهم الى مائهِ فهو يعذرني» ثم سكت وهو يستخرج ورقة من جيبهِ ثم تناولها وتأملها في ذلك الظلام وتنهد وعاد الى البكاء وقال «آه آه نعم لا لتركك لا اتركك ولكن ماذا افعل بوالدتي التي تركت الدنيا كلها من اجلي التي ربتني بدموع عينيها وادخلتني المدارس وعلمتني وانفقت كل ذلك من تعب يدها ولم تدعني اتحمل ضيماً وهي انما فعلت ذلك آملة ان اكرس باقي حياتي في خدمتها وهي وهي اهل لاكثر من ذلك فكيف اخالف امرها او اعقّ بها . . . لا لا يجب ان اكون طوع ارادتها لان ايامها في هذه الدنيا معدودات فيجب ان افعل كل ما تأمرني بهِ . . . » ثم سكت وعاد فقال «لا لا لا . . . . لانها تريد ان اتخلّى عن سلمى حبيبتي . . . . لا لا اترك سلمى ولو تركتني روحي ولا اترك والدتي الحنون لاني اعلم اني اذا اغضبتها تموت حسرة ويأساً و . . . ولكن سلمى ايضاً لا تحتمل جفائي وهي لا محالة تموت لانها وضعت كل آمالها فيّ فكيف اخيب املها ولكن سامحك الله يا والدتي لقد بالغتِ في نهيي عن الاقتران بها أَإلى هذا الحد وصلت بك المحبة الوالدية . . . أتتركينني اذا لم اترك سلمى أصحيح ما تقولين انك لا تعرفينني ولداً

لكِ اذا اصررت على سلمى ويلاه ماذا افعل (وازداد في البكاء) فليس لي اذن الاّ انهاء حياتي فاتخلص من هذا التردد والقي نفسي في هذا النيل فلما سمع حبيب كلامهُ تهيأَ للوثوب عليهِ اذا رآه يهمُّ للوقوف فاذا بهِ عاد فقال « واذا قتلت نفسي فاني اكون سبباً لشقاوتي وشقاوة الاثنين لانهما بلا شك تموتان حسرة فلا اكون قد فعلت حسناً فلا حول ولا قوّة الاّ بالله . وسكت

ثم رآهُ يهمُّ للنهوض فتوارى وراء النخلة ليرى ماذا يكون من امرهِ فاذا بهِ قد تحوّل يريد العود الى العربة فتقهقر حبيب مختفياً عنهُ ولم يرد الظهور امامهُ لعلمهِ ان ذلك يكدرهُ لانهُ انما فعل ما فعلهُ هناك اخفاء لما بهِ عن الناس كافة فتنحى عنهُ فمرَّ راجعاً الى العربة وكانت في انتظارهِ في الشارع فركب وامر السائق فحوّل الاعنة وعاد بهِ الى المدينة

اما حبيب فرجع الى سبيله وهو يعجب لذلك الاتفاق الذي كشف لهُ عن حقيقة حال صديقه وقد رثى لحالهِ وشعر بمقدار التردد الذي هو فيهِ ولم يكن يعلم انهُ في هذه الحال من الصعوبة وانما كان يظن ارتباكهُ تلك الليلة في الحديقة ناتجاً عما لا يخلو الحب منهُ من الانفعال لاقل الحركات مما لا يتأثر منهُ الخلي وربما ضحك من المحبين لانفعالهم منهُ

ونظر الى الساعة فاذا هي كادت تبلغ نصف الليل فهرول مسرعاً الى المحطة خوفاً من ان يفوتهُ القطار فادركهُ قبل اقلاعهِ بقليل فركبهُ ولما جرى بهِ عاد الى امر تلك الورقة فاستخرجها واخذ يتأملها ويكرر تلاوتها كانما هو يحل رموزاً او يكشف معميات ولم يزدهُ ذلك

التأمل الاَّ ارتباكاً لأنهُ لم يقدر ان يعين فتاةً ممن يزورهنَّ إذ انهُ كان يتردد على بيوت كثيرة في القاهرة ويشاهد فتيات كثيرات ولمَّ يكن يخطر لهُ امر الحب مطلقاً ولذلك لم يكن ينتبه لحركات احداهنَّ لخلوّ ذهنه من ذلك ولكنهُ مع هذا اخذ يردد في ذاكرتهِ البنات اللواتي كان يزورهنَّ كثيرًا فتوجه فكرهُ الى واحدة منهنَّ وتذكر انهُ كان يسرُّ لمشاهدتها للطفها ورقة جانبها وضعتها ولكنهُ عاد فحمل ذلك منها محمل اللطف الاعتيادي المعهود في المهذبات منهنَّ وكانت تلك من اكثر الفتيات رقةً وتهذيباً ولم يلحظ منها مطلقاً انها ممن يميلون الى المغازلة بل كان يراها بالعكس من ذلك اذ لم تكن تتكلم الاَّ بالهدوّ والسكينة محاذرة كل ما تشتمُّ منهُ رائحة الطيش فاستعظم ان يكون ذلك الكتاب منها .. وقضى معظم الطريق في مثل هذه الهواجس حتى وصل القطار محطة حلوان فجعل الكتاب في جيبهِ ونزل قاصدًا منزلهُ فاذا بوالدتهِ لا تزال في انتظارهِ وقد استبطأتهُ فلما قرع جرس الباب نادتهُ باسمهِ فاجابها ففتحت الباب واستقبلتهُ فدخل مسلماً فسألتهُ عن سبب تأخرهِ فاعتذر محتجاً بزينة الازبكية وسأل عن اخته فقالت لهُ انها في الفراش من برهة وجيزة لان عائلة الخواجه سعيد جاؤا لزيارتهم في ذلك النهار وذهبوا في القطار الاخير الى مصر

فلما سمع اسم تلك العائلة احس بخفقان بقلبهِ لم يعهدهُ فيهِ قبل ذلك الحين فقال ومتى جاؤونا

قالت جاؤوا قبل الغروب فتناولوا العشاء عندنا وسألوا عنك وقد

برحونا بمع القطار الاخير وتعاهدنا ان نسير معاً يوم الجمعة القادم الى اهرام الجيزة لاجل النزهة على ان تذهب شقيقتك شفيقة معنا لان المدموازل ادما ذاهبة ايضاً وانت تعلم مقدار حبها لشفيقة وحب شفيقة لها

فحالما طرق اذنهُ اسم ادما خفق قلبهُ كثيرًا وحدثتهُ نفسهُ انها هي لا سواها التي بعثت اليهِ بذلك الكتاب وهي التي كانت تتردد في ذهنهِ في القطار فحفظ ذلك في سرّهِ ريثما تنكشف لهُ الحقيقة وشعر من تلك الساعة بميل نحو تلك الفتاة قبل ان يتحقق امر الكتاب. وصار يود ان تكون هي التي ارسلتهُ لا سواها · وبعد الاستراحة يسيرًا ذهب الى فراشهِ وكذلك والدتهُ

اما هو فلم يستطع الرقاد لشدة هواجسه فبعد ان تقلب على الفراش مدة ولم ينم ذهب الى خزانة كتبهِ واستخرج منها كتاباً وعاد الى فراشهِ فاحست شقيقتهُ بمرورهِ في غرفتها فسألتهُ عن سبب نهوضهِ من الفراش فقال جئت استخرج رواية اطالع فيها ريثما انام

قال ذلك ودخل الى سريرهِ والشمعة مضيئة على طاولة الى جانب السرير واخذ يقرأ في الكتاب ولكن عواطفهُ كانت لا تسمح لهُ بالمسير في القصة كما يشاء فتعترضهُ فيسترجع الورقة ويعيد النظر اليها ويقرأها

وقضى معظم ذلك الليل بين قراءة وافتكار حتى كاد يطلع الفجر واذا بوالدتهِ داخلة غرفتهُ وقد عجبت لسهرهِ الى تلك الساعة فلما احس بها داخلة عليهِ اخفى الورقة في الكتاب واغلقهُ فنادتهُ وسألتهُ عن سبب سهرهِ فقال لها انهُ مسرور من مطالعة تلك الرواية ولم يشأ ان ينام قبل

ان يتمها فصدقته اما هو فاخذ الكتاب وجعله في الخزانة واقفلها وعاد الى فراشهِ وقد انهكهُ السهر والتعب فنام الى ساعة الخروج الى شغلهِ فأيقظوه فنهض وتناول قليلاً من منقوع الشاي وسار الى عملهِ

اما سليم فقد تركناهُ عائدًا في المركبة وعيناهُ مبتلتان بالدموع وقد اخذ منهُ التردد كل مأخذ كما سمعنا من مناجاتهِ نفسهُ على ضفة النيل حيثما ذهب يشكو لوعة الغرام ظانًّا انهُ انما فعل ذلك لكتمان امرهِ عن كل انسان شأن المحبين في حبهم

على انهُ كان يشعر ان كتمانهُ ذلك الحب مضرٌّ بصحتهِ وعقله ويود من صميم قلبهِ ان يلقى صديقاً يبث اليهِ شكواهُ تخفيفاً للوعتهِ تمثلاً بقول الشاعر

ولا بد من شكوى الى ذي مروءَة ... يواسيك او يؤسيك او يتوجع

وكان يثق بصديقهِ حبيب كل الوثوق ولكن قلبهُ لم يطعهُ في مفاتحتهِ بالامر من تلقاء نفسهِ على ان حبيباً لو استطلعهُ حالهُ والحَّ عليهِ ما كتم شيئاً عنهُ لشدة وثوقهِ فيهِ

ولكن حبيباً كان من الرقة وحسن الذوق على جانب عظيم وكان مع معرفتهِ حال صديقهِ وقراءتهِ ذلك على صفحات عواطفهِ لا يخاطبهُ بشأنهِ ولا يسألهُ عنهُ خوفاً من ان يحسب ذلك منهُ تطفلاً او فضولاً فكان يفضل التجاهل عن امر صديقهِ اطلاقاً لعنان عواطفهِ

وكان سليم مقيماً في غرفة مفروشة في نزل ببعض الشوارع لانهُ كان وحيدًا في مصر ولم يأتها الاَّ منذ بضع سنين يتعاطى بها صنعتهُ

التي هيَ المحاماة ولم يكن واثقاً بفوزهِ بها ولذلك فانهُ لم يأْتِ بوالدتهِ معهُ بل تركها مقيمة في بيت اخيهِ المتزوّج في مدينة الاسكندرية على نية انهُ متى استقرّ بهِ المقام بمصر يستقدمها ويقيمان معاً

واتفق لهُ بعد مجيئهِ القاهرة ببضعة اشهر انهُ تردد الى بيت بعض معارفهِ من ابناء وطنهِ وهو والد سلمى وعرف هذه الفتاة وتعلق قلبهُ بها وسبق منهُ القول بالعقد عليها لما آنس فيها من الادب والتهذيب وصفات الكمال ولم يخبر والدتهُ الاَّ بعد ذلك بقليل فاجابتهُ بعدم رضاها بذلك الامر وشددت عليهِ النكير وراجعها بالامر مراراً فلم تزدد الاَّ نفوراً حتى بعثت اليهِ بالكتاب الاخير تعنفهُ وتوبخهُ وتذكرهُ بالتربية وانها تحسب اصرارهُ على مرادهِ عقوقاً بها . ومما قالتهُ انهُ اذا اصرّ على عزمه يخسر والدتهُ لانها ان لم تمت كمدًا امانت نفسها عمدًا وبالغت في توبيخهِ وتبكيتهِ

اما هو فكان شديد التعلق بالفتاة كلفاً بخصالها ولم يكن يريد من الجهة الثانية ان يخالف والدتهُ فوقع في حيرة كادت توقعهُ في وهدة اليأْس حتى فعل ما فعلهُ تلك الليلة على ضفاف النيل كما قدمنا

فلما عاد الى غرفتهِ اضاء الشمعة وبدل ثيابهُ وجلس الى طاولة واستخرج كتاب والدتهِ ليعيد قراءتهُ فلما نظر اليهِ عاد فطواهُ وارجعهُ الى جيبهِ خوفاً من اثارة عواطفه واشعل سيكارة واخذ يدخن ويتأمل بما هو فيهِ من الارتباك مع اضطرارهِ لكتمان ذلك عن كل بشر ولا سيما عن خطيبتهِ لعلمهِ انها اذا سمعت بشيء منهُ تتكدر كثيرًا وربما آل بها الامر الى ما لا تحمد عقباه

وبات تلك الليلة فيما تقدم من البلبال وفي الصباح التالي نهض الى عمله كالعادة حتى كان العصر فركب عربة وسار الى سلمى كجاري عادته ينزه طرفه ويتمتع برؤياها وحديثها لانه كان يرتاح الى مجالستها وينسى كل اتعابه ومشاغله بمشاهدتها

فوقفت به المركبة امام البيت اما سلمى فحالما جاء ميعاد حضوره وسمعت صوت العربة اختلج قلبها في صدرها وتهيأت لاستقباله وقلبها يطفح سرورًا ووجهها يشرق ابتساماً فلما دخل سلم على اهل البيت وقد ابرقت اسرته ثم مد يده الى سلمى وسلَّما وقلباهما يخفقان وجلسا يتجاذبان اطراف الحديث وكل منهما لا يرفع نظره من وجه الآخر واهل المنزل فرحون بائتلاف قلبي الخطيبين مع ما جمعه الله فيهما من صفات الكمال

فقالت سلمى ارجو ان تكون قد سررت امس بمشاهدة الزينة في الازبكية. قال سررت كثيرًا ولكن سروري لم يتم يا عزيزتي لاني كنت اود ان تكوني معي وتشاهدي تلك المناظر البديعة

قالت ولكنني سررت لعلمي ان وجودك هناك مما يشرح صدرك وما يسرك يسرني

قال بورك فيكِ يا عزيزتي وانا كنت مسرورًا ببقائك سالمة متمتعة بثوب العافية مع سائر العائلة وكم كنت اود ان لا يكون عليك بأس من الذهاب معي حتى كنت ازداد سرورًا ولكن عوائدنا حالت دون ما اريد

قالت وما تعني بذلك

قال اعني ان النّاس في الخارج لا يعلمون بمّا تمّ بيننا من الروابط الآن فربما آل ذلك الى تقوُّل الناس فينا بما لا ارضاه لكِ وان رضيته لنفسي

فخجلت الفتاة وسكتت لعلمها انهُ اراد بذلك كون خطبتها لا تزال سرّية عن الناس فعلت الحمرة وجنتيها واطرقت بتينك العينين السوداوين الى الارض حياء

فتبسم سليم واستحسن ذلك منها وازداد اعتبارًا لها وحوّل خطابهُ الى والدتها قائلاً أليس الامر كذلك يا سيدتي

فقالت الوالدة انك معدن اللطف والكمال يا عزيزي ولكن النّاس لا يتقوّلون بايّ انسان كان وعلى الحالين التحذر اولى

قال هذا هو اعتقادي ولكنني اود ان نذهب للتنزه معاً الى مكان خارج المدينة حيث نأمن من اعين الرقباء وتكونين حضرتك وحبيرة معنا فنقضي نهارنا معاً لان هذه الايام جميلة في مصر

قالت لك الامر والخيار فنحن لا نتأخر عما تريدهُ اذا كان فيهِ سرورك

قال ان سروري حيثما تسرُّ عزيزتي سلمى وحوّل نظرهُ اليها مستفهماً

فقالت كما تشاء يا عزيزي وانت تعلم الذي يسرُّني

قال سنعين المكان والزمان في فرصة اخرى

ثم اخذوا في المحادثة في شؤون مختلفة وفيما هم في ذلك سمعوا طرق جرس الدار واذا بحبيب داخل فقاموا لهُ وتأهلوا بهِ فسلم على الجميع وجلس يشاركهم في الحديث فسألوهُ عن والدتهِ وشقيقتهِ فقال انهما في خير يهديانكم ازكى السلام وكان في نيتهما الحضور الى القاهرة اليوم

فتركتا ذلك الى يوم الجمعة المقبل حيث تأتيان لقضاء بعض اليوم وتزوران بيت الخواجه سعيد لاننا قد تواعدنا على المسير معاً للتنزه في الاهرام ويا حبذا لو شاركتمونا في هذا التنزه

فقال سليم قد كنا الآن في امر ذلك ولكننا لم نعين المكان والزمان فاذا كان حضرة العم وحضرة السيدة (واشار الى امرأة عمهِ) يوافقانني في ذلك نذهب معاً الى الاهرام لان السرور يزداد بوجودكم

فاستحسن الجميع ذلك الرأي وتمّ الاتفاق على الذهاب الى الاهرام يوم الجمعة من الصباح

قلنا ان خطبة سلمى لسليم كانت سرّية لانهُ كان لا يود عقدها رسمياً الاّ بعد رضاء والدتهِ اما حبيب فكان هو وحدهُ العارف بتلك الخطبة من صديقهِ سليم وقد تقدم ما استطلع من حقيقة حالهِ عند ضفة النيل وكان في شغل شاغل عليهِ ولذلك اسرع بعد خروجهِ من الديوان الى غرفتهِ ليرى ماذا تمّ لهُ فلم يكن هناك فعلم انهُ ذهب الى بيت خطيبتهِ فجاء الى هناك وكان ينتظر ان يرى على وجه صديقهِ شيئاً من علامات الاضطراب وعوّل انهُ اذا رأى فيهِ شيئاً من ذلك ان يستطلعهُ حالهُ ويعزيهُ ويسعى الى تخفيف كربهِ ولكنهُ شاهدهُ على غير ما كان ينتظر كأنهُ لم يكن فيهِ شيء مما كان بالامس فعجب لتأثير المحبة في المحبين وكيف انها مع ما يخالطها من الاكدار تكون اكبر معزٍ لهم عن سائر المشاغل فخفّ قلقهُ على صديقهِ نوعاً ولكنهُ صمم على مفاتحتهِ في الامر في فرصة اخرى لعلهُ يستطيع مساعدتهُ في شيء

وقضوا بقية ذلك اليوم ولما كان العشاء نهض حبيب معتذرًا باضطراره الى ادراك قطار حلوان لئلا يتأخر الى نصف الليل فودعهم وخرج وفي وده ان يمر ببيت الخواجه سعيد ولكنهُ اجل ذلك الى فرصة اخرى

اما سليم فبقي في بيت خطيبتهِ الى ما بعد العشاء وكانت تمرُّ الساعات لديهِ مر السحاب لكثرة ما يسرُّ بمجالسة خطيبتهِ ويستأنس بحديثها مع اعجابهِ بكمالها وحسنها لانها كانت من الحسن على جانب عظيم وفي نحو الساعة الحادية عشرة ودعهم وخرج وقلبهُ يود البقاء مع حبيبتهِ وقبل خروجهِ هزَّ يدهُ بيدها وهي تقول حرسك الله بذهابك وايابك

ولم يكد سليم يخرج من باب البيت حتى عادت اليهِ هواجسهُ واخذ يفكر بما هو فيهِ من الارتباك فانقبض وجههُ وقلبهُ فوصل المنزل وصعد الى غرفتهِ ففتحها ودخل وأشعل الشمعة فاذا على الطاولة ورقة زيارة فقرأَها فاذا عليها اسم داود سليمان فلم يعرف الرجل فغمز جرساً أمامهُ فحضر خادم المنزل فسأَلهُ عمن أتى بتلك الورقة فقال ان بعض الافندية اتى لمقابلتهِ فلم يجدهُ فترك ورقة الزيارة على ان يأْتي في صباح الغد لشغلٍ يريد ان يخاطبهُ بشأْنهِ ثم خرج الخادم وجلس سليم واخذ يكتب الى والدته جوابًا على كتابها وهو لا يدري ماذا يكتب فكتب سطرين ثم مزّق الورقة وعاد فكتب سطرين آخرين ولم يكن يعرف كيف يعبّر عن افكاره لشدة ارتباكه فمزّق هذهِ الورقة ايضاً وجلس يفكر ماذا يعمل ثم اخذ منهُ الارتباك مأْخذًا عظيماً فترك الكتابة ونهض الى فراشهِ بعد ان بدل ثيابهُ ونام ولكنهُ لم تذق عيناهُ الكرى وما صدق ساعة طلع

الفجر فنهض من الفراش ولبس ثيابهُ واخذ يشغل نفسهُ ببعض الاوراق المتعلقة ببعض القضايا وفيما هو في ذلك طرق باب الغرفة ودخل الخادم ينبئهُ بقدوم زائر الامس فأوعز اليهِ ان يدخله فدخل واذا هو شاب طويل القامة قبيح المنظر لفطس انفهِ وصغر عينيهِ واعوجاج فمهِ وبروز أسنانهِ فحياهُ وسلما ودعاهُ فجلس

ولما استتب بهِ الجلوس قال الزائر قد تشرفت بالامس لمقابلة حضرتك فلم يسعدني الحظ فجئت الآن اريد مخاطبتك في امر سرّي لاستشيرك به

قال تفضل قل ما بدا لك

قال ولكنني لا اقول قبل ان تقسم لي بالذمة وبشرف مصلحتك ان تحفظ ذلك مكتوماً عن كل بشر

فتبسم سليم والتفت اليهِ قائلاً ان في طلبك هذا اهانة لي وطعناً في مصلحتي اذ لا يخفى على حضرتك ان المحامين مكلفون بحفظ الاسرار كما يحفظها القسوس في سرّ الاعتراف ولم اكن انتظر من جنابك ان تكلفني القسم قط

فقال داود حاشا لله ان اريد طعناً او اهانة وانا اعلم بصحة ذمتك ولولا ذلك ما جئت اليك مستشيراً في امر سرّي ولكن هذا الامر يتعلق بالاعراض ولذلك طلبت اليك القسم اكراماً لمن يمسّ هذا عرضهم

قال لم يسبق لي عادة بمثل ذلك قبل الآن ولكنني اكراماً لخاطرك ولمن اشرت اليهم أُقسم لك بالذمة والشرف اني لا اذكر شيئاً مما تقوله لي الآن لاحد قط

فشكرهُ داود على ذلك وقرب كرسيه منهُ واخذ يقص عليه حكايته فقال

الفصل الخامس

حكاية داود

اني من اصحاب الاملاك المزارعين في بعض جهات الغربية ولكن اقامتي في القاهرة بشارع شبرا قرب منزل الخواجه سليمان

فلما سمع سليم اسم الشارع واسم صاحب ذلك المنزل خفق قلبهُ لان الخواجه سليمان والد حبيبتهِ سلمى فأصغى الى الرجل

فقال وكنت منذ اربع سنوات أتردد الى بيت جاري المشار اليه ونتبادل الزيارات فيما بيننا كعادة الجيران في بلادنا وكان في بيت الخواجه سليمان ابنة اسمها سلمى

فازداد خفقان قلب سليم وازداد اشتياقهُ الى استطلاع الحكاية فأصاخ سمعهُ ومال بكليتهِ الى اتمام الحديث

فقال الرجل وقد أنست في تلك الفتاة لطفاً وأُنساً وتهذيباً قلّ مثالهُ ثم رأيت فيها ميلاً اليّ وكنت أستأنس بها كثيرًا حتى علقتها ومال قلبي اليها

فازداد خفقان قلب سليم عند ذلك وهبّت في جسمهِ نار الغيرة ولكنهُ أمسك نفسهُ عن اظهار عواطفهِ ليقف على نهاية القصة

فقال داود فلما رأيتها تحبني وتظاهر لي الميل الشديد تلميحاً وتصريحاً

ووالدها يلاطفني ويكثر من دعوتي الى زيارتهم لاح لي ان اخطبها منه ولكن بقي هذا الامر يتردد في فكري زمناً طويلاً خوفاً من ان يكون في الامر دسيسة او خديعة ولكن الحب أعمى بصيرتي فصممت النية على خطبتها ففاتحت والدها في الامر فرأيت منهُ ميلاً شديداً اليَّ حتى قال لي ان سلمى عندها ضعف ذلك الميل فازددت تعلقاً بالفتاة وصرت اكثر من التردُّد على البيت وكنت أحياناً أختلي بالفتاة الساعة والساعتين نتبادل عواطف الحب ولم اكن ارى منها الاَّ حباً وهياماً بي وطالما قالت لي انها لم يعلق قلبها سواي الى غير ذلك من عبارات المحبة

فلم يتمالك سليم عند ذلك عن الانتفاض من شدة الارتعاش وعلا وجههُ الاحمرار وأحسَّ كأنَّ ناراً تتقد في جسمهِ غيرةً وحنقاً ولكنهُ تجلد لسماع آخر الحديث مظهراً التعجب

فقال داود ولا أخفي عليك اني وصلت في حب هذهِ الفتاة الى درجة حتى كانت صورتها لا تفارق ناظري ليلا ولا نهاراً وظننت نفسي قد بلغت نهاية السعادة بالحصول عليها

كل ذلك ولم اعقد عليها رسمياً ولكن والدها العجوز سامحهُ الله قال لي ان الخطبة لا بأس من تأخيرها ولكن طلب اليَّ مبلغاً من النقود على سبيل العربون واعتذر باحتياجهِ الى نقود لدعوى كانت عليهِ لا اعلم ما هي وربما كانت مثل الدعوى التي ارجو ان استطيع رفعها عليهِ بمساعدة حضرتك . فنقدتهُ مئة جنيه ونظراً لعظم ثقتي بهِ لم اكلفهُ كتابة تعهد او صك لاني كنت احسبهُ اشرف رجل على وجه هذهِ البسيطة وكنت

احسب الفتاة اطهر ابنة رأتها عيني

• ولكن بكل أسف اقول لجنابك اني اضطررت بعد ذلك الى العدول عن الابنة لسبب أخجلُ ان اذكرهُ مراعاة لعرض المخدرات

فاشتعل سليم غيرة وحنقاً ولم يتمالك عن النهوض عن الكرسي بغتةً لشدة الانفعال ولكنهُ عاد الى عقلهِ وخاف الفضيحة فتظاهر بالتفتيش عن علبة السكاير فتناولها ودفع الى داود سيكارةً وجلس لسماع الحديث قائلاً وشفتاهُ ترتجفان تفضل كمّل ....

فتجاهل داود عما لاحظهُ في وجه سليم وقال ولكنني اخجل من ذكر سببه عدولي عن الفتاة

قال سليم قل لا تخجل لاني اقسمت لك بكتمان ذلك وثق اني اقوم بقسمي

فقال ماذا اقول لك يكفي ان اقول اني دخلت يوماً الى منزل صاحبنا بدون ان اقرع الجرس ودخلت غرفة الفتاة فوجدتها جالسة الى جانب شاب كنت اظنهُ صديقي في هيئة عارية عن الادب . وهنا يعجز القلم عن شرح حالة سليم عند سماعهِ ذلك الامر عن حبيبتهِ التي يعتقد فيها العفاف والطهر وقد علق قلبهُ بها الى ما قدمناهُ فلم يستطع ايقاف عبراتهِ فنهض للحال وخرج كمن يريد حاجة فأمسك نفسهُ ومسح دموعهُ وعاد الى كرسيهِ ساكتاً مصغياً ولكن افكارهُ طائشة وقلبهُ يتقد غيرة وحنقاً

فتظاهر دواد باستعمال منديلهِ يمسح به انفهُ وشاربيهِ وعاد الى اتمام حديثه فقال

فلم أتمالك عن الخروج حالاً وقد اتقدت بي نار الغيرة ورجعت من حيث اتيت وبقيتُ مدة لا ازور ذلك البيت قط وكنت افكر دائمًا في تلك الفتاة ووالدها وامر المئة جنيه وقد كتمت ذلك عن كل انسان

اما الآن فلاح لي استشارة محامٍ ماهر لعلي اقدر ارفع على الخواجه سليمان دعوى استرجع بها دراهمي وقد خاطبت الوالد مرارًا بشأنها فكان تارة يعدني الدفع وطورًا يسألني عن سبب عدولي عن الفاة وانا اعتذر اعذارًا خصوصية واخيرًا كشفت لهُ حقيقة فكري ولما لم يكن لديهِ ما يدفع بهِ عن ابنتهِ قال لي ان ذلك الشاب من اصدقائهم وان الفتاة انما فعلت ذلك لبساطتها وجهلها الى غير ذلك ولما يئس من اقناعي حملق عينيهِ بي وقال ان دعواي باطلة وانكر الدراهم كلية فهل تظن اني اذا رفعت عليهِ دعوى استطيع ربحها

فقال سليم وقد امسك عواطفهُ لا يخفى على فطنتك ان الدعاوي المالية لا تقوم الاَّ بالبينة فهل عندك بينة او شاهد يشهد بذلك

قال قلت لك اني دفعت اليهِ المبلغ سرًّا ولم يكن احد عالماً بذلك قط ولكن الشاب الذي قلت لك عنهُ الآن كان يتردد احياناً الى بيت الرجل وهو وحدهُ العالم بذلك ولكنني لا اظنهُ يريد اثبات هذه الدعوى لتلطخهِ هو بها لانهُ كان اكبر سبب بل هو السبب الوحيد لما حصل وبناءً عليهِ اقول ان ليس لديَّ بينة البتة

فاشتغل بال سليم بذلك الشاب واحب معرفة اسمهِ فقال ومن هو ذلك الشاب الذي اشرت اليهِ

قال هو شاب لا اراهُ في القاهرة الآن الَّا يسيرًا واسمهُ حبيب

فاضطرب قلب سليم عند ذكر اسم صديقهِ بعد ان سمع ما قيل عنهُ وعن سلمى ولكنهُ تجاهل عنهُ واجاب غير مكترث قائلاً اني اعرف هذا الشاب معرفة بسيطة واذا لم نستطع الحصول على شهادتهِ لا اظنك تستفيد شيئاً من رفع دعواك

قال اما شهادتهُ فانا واثق بخسرانها لانى اعلم يقيناً اني اذا خاطبتهُ بشأنها ينكرني وربما قال انهُ لم يرَني قط ولا عرف شيئاً عني فبناء عليهِ ارى الاولى الاستعاضة بوجه الله الكريم والقناعة بما قسم الله لي واكتفي باني تخلصت من الشراك الذي كان منصوباً لي واشكر الله اني عرفت ذلك عن الفتاة قبل العقد عليها ولو كان ذلك بعد الاقتران لكانت المصيبة كبيرة ليس اكبر منها

والآن اتقدم اليك ان تتذكر قسمك وواجبات مصلحتك وتكتم حديثنا هذا عن كل انسان كما وعدت وتحسب اني لم اقابلك الآن ولا خاطبتك بشيء قط

ثم نهض مودعاً وقال اشكرك على مشورتك واراد ان ينقدهُ اجرة المشورة فمنعهُ فخرج شاكرًا وقد ترك سليماً على مثل مقالي الجمر



الفصل السادس

الشك

ولما خرج الرجل اغلق سليم الباب وجلس الى الطاولة وقد اخذ منهُ الغيظ كل مأخذ واخذ يناجي نفسهُ قائلا

الله الله أهذه حقيقتك يا سلمى اين عفافك وانفتك بل اين تهذيبك وادبك ... أفي يقظة انا ام في حلم ... لا لا لا اصدق ذلك عنكِ . ولكن كيف سمعتهُ بكل تفاصيلهِ وكيف اتهم هذا القائل بالافتراء وما الذي يحملهُ على الكذب وما غرضهُ من الايقاع فيما بيننا وهو لا يعرف عني شيئاً وانما قادهُ الاتفاق الى ما قصّهُ عليّ وما اعجب هذا الإتفاق الذي كشف لي امورًا كنت عنها في جهالة

ثم سكت برهة لا يدري بماذا يفسّر تلك الحكاية ثم هبّ عن كرسيهِ بغتة وقد انقدت الغيرة في بدنهِ كالجمر وقال يا عني عليك يا حبيب آه من قلب الانسان ما افسدهُ أأنت تحب سلمى وهي تحبك وتظهر لديَّ مظهر الاصدقاء المخلصين ..... آه من هذا الزمان ... الآن عرفت صدق مقال والدتي انها والله اصدق مني مقالاً واوسع اختبارًا . قال ذلك واستخرج الكتاب من جيبهِ واخذ يقرأهُ حتى وصل الى قولها فيهِ

«لا تغتر يا ولدي بظاهر البنـات فانهنَّ اقدر البشر على المداهنة والتلبس بالمحـال فقد يظهرنَ العفاف وهنَّ بعيدات عنهُ ويتلبسن بالاخلاص وهنَّ اروغ من الثعلب . وفضلاً عن ذلك فان الفتاة التي

علقتها ليست ممن يليق بك الالتفات اليهنَّ وقد سمعنا عنها ممن عرفوها هنا انها قد نصبت مثل هذه الشراك لسواك واخفقت سعياً وخابت آمالها ويكفيني التلميح عن التصريح»

فلما قرأ هذهِ العبارة نزلت في قلبهِ منزلاً متيناً وجعل يلعن الساعة التي عرف بها ذلك البيت لانهُ لم يعد يعرف الرّاحة منذ عرفهُ وحدثتهُ نفسهُ ان يتخلّى عن سلمى قبل عقد الخطبة ولما لاح لهُ ذلك ثارت نار الحب في قلبهِ كأنها تكذّب ما بلغهُ فقال لا لا يا سلمى انتِ والله حبيبتي ومنتهى أملي وقد وهبتك هذا القلب وملّكتك نفسي حتى استوليتِ على كل عواطفي ولم ألقَ منكِ منذ عرفتكِ الاّ مثل ما فيَّ فلا لا لا أثني عن حبكِ لا أظن بكِ سوءا . . . ؟ ولكن ما هذهِ الحكاية التي سمعتها الآن ألعلها محض اختلاق وقد وصلتني بطريق العرض ولو كان بيني وبين راويها سابق علاقة او معرفة لأتهمتهُ بالافتراء والكذب وقلت فيهِ انهُ واشٍ يريد فصل ما بيننا من علائق المحبة . . . . أتحبين حبيباً مثل هذهِ المحبة وتقولين الكِ تحبينهُ من اجل صداقتهِ لي تباً لكِ ولهُ ولكن . . . ولكن حبيباً صديقي وقد عرفتهُ منذ نعومة اظفارهِ ولم أرَ فيهِ الاّ اخلاصاً وغيرةً ولكن . . . . ولكن النفس أمّارة بالسوء وعين الحب عمياء فلا بدّ لي من التجلد والصبر وملاحظتكِ ومراقبة خطواتكِ وسائر حركاتكِ وحركات ذلك الشاب فاذا تحقّق لديَّ ما سمعتهُ الآن . . . . آه آه من الحب ما امرّهُ وما احلاهُ لا لا بل هو مرٌّ علقم وقد صدق من قال «ان سوء الظنّ من حسن الفطن» فلو لم افتح قلبي لكِ وأضع ثقتي فيكِ ما

عميت عن حقيقة حالكِ وحال ذلك الشاب الذي قد طلى صداقته علي سنيناً . ولكن مهلاً سوف تريان وأرى وكل آتٍ قريب . . .

ثم نهض وهو في حال الانفعال الشديد وخرج لا يلوي على شيء وذهب في حال سبيلهِ ونظر الى الساعة فاذا هي في الحادية عشرة ففطن لميعاد المرافعة في مجلس الاستئناف وكان عليهِ ان يذهب للمرافعة في دعوى توكل عنها لبعض الناس ولكنهُ رأى انهُ لا يستطيع ذلك وهو فيما تقدم من الانفعال فسار وهو لا يدري الى اين يذهب فتشتتت افكاره فقادهُ الاتفاق الى حديقة الأزبكية فدخلها وجلس الى مقعد بأزاء البركة والحديقة في ذلك الحين هادئة لخلوّها من الناس واخذ يجول بأفكاره بما سمعهُ في صباح ذلك اليوم وهو يكاد لا يصدق انهُ سمعهُ في اليقظة لغرابتهِ وبعدهِ عن سابق اعتقادهِ .

فلبث في حيرة تتقاذفهُ الهواجس وتتلاعب بهِ الظنون تارة ينقم على سلمى وسوء طويتها وطوراً يكذّب ما سمعهُ عنها ويجلها عن مثل تلك الدناءة

فلنتركهُ في تلك الحال ولنعد الى حبيب فانهُ عاد بالامس الى حلوان وهو يفكر في ذلك الكتاب ويردّد في ذاكرتهِ سوابق زياراتهِ بيت الخواجه سعيد وما كان يلحظهُ في ادما من الحركات والاشارات حتى كادت تنجلي لهُ الحقيقة وترجّح لديهِ انها هي الذي بعثت اليهِ بذلك الكتاب وعوّل ان يستطلع ذلك ويحققهُ في يوم الاهرام

ولكنهُ عاد فتذكر ان بين ادما وسلمى صداقة ومحبة شديدة ولاح لهُ انهُ اذا اراد تحقق ظنهِ لا يفيدهُ فيهِ احد اكثر من سلمى لانها تعرف

خطّها وربما كانت قد كاشفتها شيئاً من ذلك لما بينهما من الصداقة ولما يميل اليهِ المحب من شكوى الغرام الى اصدقائهِ مع ما يدفعهُ في داخلهِ الى كتمانهِ

فبات تلك الليلة يفكر في ذلك ولم يكحل عينيهِ الكرى وهو يتردد بين ان يصبر نفسهُ ليوم الاهرام ويستطلع الامر بنفسهِ أو ان يستطلع سلمى عن خط ادما ولكنهُ عاد فتذكر ان في ذلك من المحظورات ما لا تحمد عقباهُ خوفاً من افشاء ما بالغت ادما في اخفائهِ حتى عن حبيبها ولكن القلق دفعهُ الى المخاطرة في الامر فعوَّل ان يذهب في الغد الى بيت الخواجه سليمان في الميقات الذي لا يكون فيهِ سليم هناك ولا احد غيرهُ . وكان لكثرة ترددهِ الى ذلك البيت ولما بينهما من علائق المودَّة الخالصة لا يستنكفون من زيارتهِ في اية ساعة جاء فعوَّل على ان يتجاذب اطراف الحديث هو وسلمى على انفراد اذا امكن ويستطلعها شيئاً مما يتعلق بأدما ولو تلميحاً يساعدهُ في تحقق ظنهِ

الفصل السابع

﴿ حبيب وسلمى ﴾

فبكَّر في الغد الى شغلهِ كالعادة ولكنهُ استأذن رئيسهُ في الانصراف من الديوان في الساعة الحادية عشرة وسار توًّا الى سلمى فدخل المنزل واذا بوالد الفتاة غائب في مهمة وليس في المنزل غير سلمى ووالدتها فترحبا

بهِ واستغربا مجيئهُ في تلك الساعة غير ان اللياقة لم تسمح لها في اظهار ذلك الاستغراب فدعياهُ الى قاعة الاستقبال وسلمى في ثياب المنزل ولم تستنكف من مقابلته بها لما بينهُ وبينهم من الدالة

فجلس حبيب وقد أحسَّ باستغرابهما مجيئهُ فاستدرك ذلك بقولهِ انهُ جاء لمقابلة الخواجه سعيد والاتفاق معهُ على ساعة الذهاب الى الاهرام واعداد ما يحتاجون اليهِ من دواعي ذلك السيران فلم يجدهُ في البيت فجاء لقضاء بعض الوقت عندهم والتكلم بهذا الشأن ايضاً ثم يعود الى التكلم بشأنهِ مع الخواجه سعيد فاقتنعتا بذلك العذر وجلستا اليهِ في قاعة الاستقبال يتداولون في امر الاهرام والذهاب اليهِ

ثم خرجت الوالدة معتذرة لزائرها ان الطعام على النار وانها لا تثق بالطباخ في اصلاحهِ فقبل عذرها وقد سرَّ جدًّا منهُ . فلما خرجت عاد هو الى الحديث مع سلمى بشأن زيارة الاهرام يريد التطرق بذلك الى ادما فقال

اني انتظر صباح الغد بفروغ صبر حتى نذهب في موعدنا هذا لاني احب الذهاب الى تلك الجهة لنشاط هوائها وحسن موقعها واسرُّ بنوع خاص من اجل شقيقتي شفيقة لانها اكثر مني تشوقاً لهُ ولا سيما لما علمت بذهاب حضرتك معنا لانها كانت تظن ان عائلة الخواجه سعيد الذاهبة فقط وكانت مع ذلك مسرورة لانها تحب رفقة الست ادما كثيرًا

فقالت سلمى ان المداموازل شفيقة خليقة بكل حسنٍ ونحن جميعاً نحبها ونعتبرها للطفها وتعقلها ولكني الاحظ من الست ادما انعطافاً زائدًا

نحوها واذا اجتمعتُ بها ساعة لا تفترّ عن ذكرها وامتداحها

قال وانا الاحظ مثل هذا الانعطاف من شقيقتي نحو الست ادما وكم ذكرتها بالمدح والثناء والاعجاب بحسن خصالها

فقالت وبالحقيقة ان هذه الفتاة جديرة بكل مدح لانها من احسن البنات تهذباً وأدباً ولطفاً وهي مع ذلك على جانب عظيم من العلم والمعرفة

فقال حبيب (وقد خفق قلبهُ رغماً عنهُ وعلا وجههُ الاحمرار) واين تعلَّمت كل هذه العلوم

قالت في مدارس بيروت وقد تعلمت فن التصوير واتقنت الخط

قال لا اعتقد بحسن خطها لاني (بلا مؤاخذة) لا اظن الستات يتقنَّ الخط لقلة استعمالهنَّ الكتابة

قالت ولكن خط الست ادما جميل واذا شئت فاني اطلعك على كتاب منها اليَّ منذ بضع سنين

قال وقد استبشر بالفوز ولكن اخاف ان يثقل ذلك عليك

فنهضت قائلة لا ثقلة عليَّ في ذلك وسارت الى غرفتها وجاءته بورقة فدنا منها وهما جالسان ليشاهدا الخط وهي تنظر الى الورقة وتضحك لما فيها من عبارات الصبوة قائلة اخشى ان تضحك من عقولنا الصغيرة ولا سيما ونحن في المدرسة فقال العفو يا سيدتي والاحمرار يزداد في وجهه

وفيما هما في ذلك ما شعرا الأ وسليم داخل القاعة بغتةً فبغتا وظهرت ملامح الخجل على وجهيهما مع علمهما انهما لم يكونا في حالة توجب

الخجل ولكنهما بغتا لعدم انتظارهما مجيئه في تلك الساعة

وسبب مجيء سليم انهُ لما ملّ الجلوس في الحديقة وهو فيما تقدم من الارتباك حدثتهُ نفسهُ ان يسير الى خطيبته في تلك الساعة على غير المعتاد لعلهُ يستطلع شيئاً مما سمعهُ عنها فدخل البيت ولم يقرع الجرس فاتفق وصولهُ القاعة وهما في تلك الحال وسلمى في لباس البيت جالسة بجانب حبيب ووجهاهما متقاربان ينظران الى تلك الورقة ويضحكان وكان حبيب منفعلاً من حديث سلمى عن ادما ثم ظهر على وجهيهما الانبغات فكان ذلك موجباً لتحقق ما سمعهُ سليم ذلك اليوم

ولا حاجة بنا الى شرح عواطفهِ عند مشاهدته خطيبتهُ في تلك الحال بعد ما بلغهُ عنها من مثل ذلك فازداد وجههُ انقباضاً وحدثتهُ نفسهُ ان يوبخهما ولكنهُ امسك نفسهُ وتجلد اما خجلاً واما تعقلاً ولكنهُ لم يستطع اخفاء عواطفهِ

اما سلمى فنظرًا لبراءتها لم يخامرها شك في اعتقاد حبيبها فلما دخل الغرفة تقدمت اليهِ مسلمة ومدت يدها فمد هو يدهُ فلما قبضت عليها شعرت بارتعاشها وبردها لانها كانت باردة كالثلج واخفت الورقة خوفاً من رغبتهِ في استطلاع سبب وجودها معها وذلك ربما يغضب حبيباً اما حبيب فانهُ حيا صديقهُ ببشاشة فلم يلقَ منهُ الاّ اعراضاً متستراً تحت طي التحية على انهُ جلس وجلس الجميع وسليم مقطبَ الوجه ممتقع اللون

فادركت سلمى ان اخفاء تلك الورقة ربما اوجب المظنة فاستخرجتها من جيبها ضاحكة وقالت موجهة كلامها الى سليم

اني ليضحكني تذكر ايام المدرسة يوم كنا نكـ الكتب الى والدينا واصدقائنا مثل هذا الكتاب الذي كنت اطلع الخواجه حبيب عليهِ الآن فانهُ من صديقتي الست ادما كتبتهُ اليَّ منذ بضع سنين يوم كانت في المدرسة في بيروت وكان الخواجه حبيب قد سألني عن خط هذه السيدة ولم يصدق انهُ جميل فاستخرجتهُ لاطلعهُ عليهِ ليرى الخط· قالت ذلك ودفعت الورقة الى سليم لكي يراها فمد يده وتناول الورقة ولم يكد ينظر اليها حتى اعادها اليها ببرودة ضاحكاً ضحكة اغتصابية

فخجلت سلمى لهذه المعاملة المهينة ولكنها كظمت على عواطفها وسألت سليماً عن سبب اضطرابهِ

فقال اني متكدر من بعض الامور الشخصية المتعلقة بالشغل

فقالت ارجو ان لا يكون في ذلك ضرر عليك يا عزيزي

فاجابها وهو ينظر الى نافذة القاعة قائلا لا · ارجو ان لا يكون فيهِ ضرر· قال ذلك وهو يتردد بين عوامل الغيرة والحمق ويهمّ ان يظهر غضبهُ ثم يمسكهُ التعقل على الكظم لئلاّ تؤول الحال الى سوء العاقبة

فقال لهُ حبيب وقد جاء بكرسيهِ الى جانبهِ لا اراك الله سوءا يا عزيزي ما بالك منقبض النفس بالله الا فرجت عنك وتركت التقادير تجري في اعنتها · اراد بذلك ان يخفف عنه غيظهُ ظناً منهُ ان انقباضهُ حاصل عن كتب وردت اليهِ من والدتهِ بناء على ما علمهُ من امرو اوّل الامس على ضفة النيل

فاراد سليم ان يجيبهُ منتهرًا ويوبخهُ ثم تذكر ما بينهما من الصداقة

القديمة وما للفتاة في قلبهِ من المحبة وما يتجلى في وجهها من ملامح الوقار والهيبة والتعقل وغلبت عليهِ طويتهُ فامسك نفسهُ واجاب حبيبتهُ قائلاً اني متكدر من امر عرضي يتعلق بصنعتي وليس فيهِ ما يوجب الخوف او اليأس . غير ان جوابهُ هذا مع ما حاول من التلطف خرج منهُ منغمساً بالاحتقار والازدراء

فرأت سلمى ان واجباتها تقضي عليها ان تعزي حبيبها على مصائبه فدنت منهُ وامسكت يدهُ بيد كادت تذوب لطفاً ونظرت اليهِ بعينيها الجميلتين مبتسمة وقالت . روحي فداك يا عزيزي لا يغضبك امر ولا تجعل للكدر باباً للتمكن منك فانك فطن وتعلم ان الاعمال في هذه الدنيا تحتاج الى التبصر والصبر ولا تستعجل خوفاً من الندم ولا يخفى عليك ان الكدر يضعف الجسم

فوقعت هذهِ الكلمات في أُذن سليم موقعاً حسناً وشعر بأَنها أَلقت عن ظهرهِ حملاً ثقيلاً من التردُّد والغيرة لانهُ كان يحتاج وهو في تلك الحال من التردُّد الى هذهِ العبارة التي ساعدتهُ في تخفيف غيظه وحملتهُ على الصبر في حكمهِ على حبيبتهِ وصديقهِ ولما أَمسكت يدهُ شعر بمجرى كهربائي بارد تخلل أَعضاءهُ فأَخمد جانباً كبيرًا مما كان متقدًا فيها من نيران الانتقام والغيظ فغلبت عليهِ الحكمة وتسلط فيهِ العقل فعوَّل على اخفاء ما بهِ والتربص ريثما يتحقق الامر مرَّة ثانية وثالثة لان ما شاهدهُ لم يكن مما يُبنى عليهِ لولا ان العواطف سريعة الحكم لا تصبر على العقل ريثما يتروَّى فتحملهُ على الانتقام من البريء لسرعة حكمها

فنظر اليها مظهراً البشاشة وقالَ مهما كنت مثقلاً بالهموم فاني انساها عند مشاهدتك ومشاهدة الصديق حبيب ولكني كما قلت مرَّة لصديقي هذا اذا تكدرت من أمرٍ يصعب عليَّ نسيانهُ حالاً فأتقدم اليكما ان تسبلا ذيل المعذرة على ما ظهر لكما مني الآن من النشوفة فان ذلك عن غير قصد مني وسببهُ ما ذكرت

فقال حبيب فليبتهج قلبك يا عزيزي ولا تحزن اننا الآن في الاستعداد للسير الى الاهرام غداً صباحاً وقد جئت الآن لهذهِ الغاية لكي نتفق على ميعاد نسير فيهِ معاً . وقد تمَّ الاتفاق على صباح الغد الساعة السابعة وسنرى ما نحتاج اليه من العربات ومعدات الطعام واقول للخادم ليعد كل شيء

ثم جاءت والدة سلمى وسلمت على سليم وحبيب وترحب بصهرها ولما رأتهما في حديث الاهرام والخادم قالت قبح الله الخدم فانهم لا يمكن الاتكال عليهم في أمر البيت ولا بد للست في كل حال من المساعدة في سائر أعمال البيت

فقالت سلمى ذلك حقيقي يا والدتي ولكن خادمتنا سعيدة ماهرة ولا بد من ان تنفعنا في شيء

فقالت الوالدة لا بأس من اخذها معنا

وفيما هم في الحديث جاء صاحب المنزل فجلسوا يسيرًا يتحادثون واراد حبيب الانصراف فدعوهُ للغداء معهم وكذلك سليم فوُضعت المائدة وتناولوا الغداء وسليم لا يزال في شاغل داخلي لما تمَّ لهُ في ذلك اليوم وقد عوَّل على مراقبة حركات سلمى حتى يتحقق ما سمعهُ عنها وعند

ذلك يرى ماذا يعمل بها

وبعد الغداء وشرب القهوة استأذن الاثنان وخرجا وكل منهما في شاغل عظيم

اما حبيب فانهُ رأى بين خط الكتاب الذي بيدهِ وخط ادما مشابهة كبيرة جدًّا بحيث كاد يحتم بأن كاتب الاثنين واحد ولكنهُ دبر الى الغد حيث يتقابلان في الاهرام ويستطلع امرها بنفسهِ . وما زال سائرًا الى حلوان فأخبر والدتهُ وشقيقتهُ عن موعد الذهاب

أما سليم فسار الى غرفتهِ ومنها الى الحديقة قضى فيها بقية ذلك اليوم وعاد في المساء الى الغرفة ولما دخلها وجلس الى الطاولة تذكر ما سمعهُ عليها في صباح ذلك اليوم فهاجت هواجسهُ وعادت اليهِ انفعالاتهُ فأخذت تتقاذفهُ الاوهام في تيار من التردُّد فتذكر والدتهُ فأراد استخراج كتابها من جيبهِ ثم أمسك عن ذلك تجنباً لاثارة هواجسهِ فجلس برهة يدخن سيكارة ثم أحس بالتعب فذهب الى فراشه

وفيما هو راقد تذكر انهُ لم يعرف مكان داود حتى يجتمع بهِ مرَّة اخرى ويستوضحهُ في بعض الامور فأسف على فوات ذلك وعوَّل ان يغتنم اوَّل فرصة يراهُ فيها ويسألهُ عن عنوانه



الفصل الثامن

الاهرام

وفي الصباح التالي بكر الجميع الى منزل الخواجه سليمان واستحضروا اربع عربات ركبوا فيها جميعاً وساروا قاصدين الاهرام وقد اعدوا كل ما يحتاجون اليهِ من لوازم النزهة

فسارت بهم العربات الواحدة وراء الاخرى حتى دخلوا الجزيرة وكلهم فرحون بذلك الاجتماع ولا سيما حبيب لانهُ كان ينتظر ذلك اليوم بفروغ صبر اما سليم فكان في العربة مع سلمى ووالديها وكل يسترق النظر الى الآخر ويحاذر كشف سريرته

وكان ذلك النهار صافي الجوّ هادئاً فمرّت العربات في طريق الاهرام المظللة بالاشجار تناغي فوقها الاطيار ولى كل من جانبي ذلك الطريق بساتين يانعة تكسوها الاعشاب الخضراء وتسرح فيها الماشية من البقر والجاموس يسوقها رعاة من الاحداث تكسو اجسادهم خرق بالية ولكنهم فرحون بما رزقهم الله من العيش السهل على ضفاف النيل الخصبة المرعى الرقيقة النسيم وليس فيهم الاّ من هيجتهُ نسمات الصباح فاخذ يغني مشاركاً الاطيار في تغريدها مما يسبح الاله الخلاق والبقر تسرح في مرعاها غافلة عن شواغل بني الانسان وما ينفعلون لهُ من مؤثرات الطبيعة

مرّتْ تلك العربات تحمل قلوباً تتقد حباً يخامرهُ في البعض تردُّد

وفي البعض الآخر تحسر وفي الآخرين ارتباك والوالدون في غفلة عما شبَّ في افئدة اولادهم من العواطف التي لا يشعر بها الاّ الشبيبة

والطبيعة فوق كل ذلك تضحك من ضعف بني الانسان وتستخف بما يستعظمونهُ لكثرة ما مرَّ بها من الاجيال وما لاقت من الاهوال حتى تساوى لديها الكبير والصغير الشيخ والطفل الحب والبغض

ولم تدخل العربات في ذلك الطريق حتى اطل الراكبون على الاهرام العظيمة من خلال الاشجار وهي قائمة كأنها جبال راسيات فاشتغلت بها افكارهم وطارت اليها قلوبهم وقد خيل لهم لعظمها انها منهم على اقرب من قاب قوسين وهي على مسافة ساعة او تزيد

وبعد مسيرة ساعة وبعض الساعة وقفت العربات عند طلوع تعلوهُ الاهرام الثلاثة كانها جبال منتظمة المنـدام فترجلوا جميعاً وقد ملوا من القعود ومشوا صعداً يطلبون الاهرام وعيونهم شاخصة اليها حتى اشغلتهم برهة من الزمان لم ينطق بها احد ببنت شفة ولما دنوا منها اشرفوا على تمثال ابي الهول الى ورائها

واذا بجماعات الخفر قد تقاطروا اليهم وهم في لباس اهل البادية وجعلوا يخاطبونهم بلسان اعجمي ارادوا بهِ ان يكون اللغة الانكليزية ولكنهُ كان مزيجاً منها ومن الفرنساوية وما لغتهم الاّ العربية ولكنهم كانوا لكثرة تردد الافرنج الى الاهرام يحسبون كل من زار ذلك المكان افرنجياً ولا سيما لما رأوا السيدات في الزي الافرنجي

ولما علم الخفر ان القادمين يتكلمون العربية تقدم شيخهم وسألهم اذا

كانوا يريدون الصعود الى قمة الهرم الكبير الذي هو اوّل ما يقابله الزائر من الاهرام فتقدم سليم يريد الصعود اشغالاً لعواطفه فاوقفه حبيب محذرًا اياه قائلاً

اني لا آمن عليك من الصعود فان في ذلك خطرًا كبيرًا اذا زلّت بك قدمك الم تسمع بما يحدث احياناً في صعود الهرم وكم من اناس قد خسروا حياتهم بسبب ذلك

فلما سمعت سلمى ذلك اقشعرّ جسمها خوفاً على حبيبها ونظرت اليهِ واشارت بملامح وجهها انها تخاف عليهِ الصعود فتأثر من تلك النظرة تأثرًا شديدًا ولكنهُ تذكر حديث ذلك الرجل فانقبض قلبهُ وظهر ذلك على وجههِ فحوّل نظرهُ عنها مغضياً فتقدمت اليهِ وقد رأت والديها ذاهبين الى الجانب الآخر من الهرم ينظران الى ارتفاعهِ ومعهما الخواجه سعيد والتفتت الى ورائها فاذا بحبيب واقف الى جانب ادما وشفيقة يشرح لهما حكاية الهرم وبانيه وهما شاخصتان اليهِ تسمعان الى ما يقول

فعلمت ان لا احد يسمعها اذا تكلمت فقالت لسليم الا تخاف من علوّ هذا الهرم يا سليم

قالت ذلك وهي ترنو اليهِ وتلاحظ حركاتهِ

قال لا لا ابالي بهِ ولو كان ارتفاعهُ اضعاف ما هو

قالت ولكنني اخاف عليك اذا صعدت عليهِ

قال وبمَ تخافين اني لا اخاف شيئاً من مثل ذلك

قالت الا تخافهُ من اجلي

فصمت ولم يبدِ جواباً وكأنهُ يريد التكلم ويمنعهُ التردد فعاودتهُ السؤال قائلة العلك لا تخاف عليَّ اذا حاولت الصعود عليه اذ ربما تزل قدمي فلا اصل الارض الاَّ جثة بلا روح

فلما سمع ذلك منها اقشعرَّ جسدهُ وهبت فيهِ عاطفة الحب وتذكر ما كان بينهما من الاخلاص وغلبت عليهِ عواطفهُ فقال نعم اخاف عليكِ نعم اخاف خوفاً شديداً ولا اخاف عليك من هذا الهرم ولكني اخاف عليك من هذا النسيم اللطيف بل اخاف عليك من عيون البشر فانها احدُّ من السهام على قلبي

فعجبت لعبارتهِ الاخيرة اذ لم ترَ لها محلاً ولاح لها أنها لا بد من صدورها عن شيءٍ يكنهُ في ضميرهِ ويودُّ اخفاءهُ عنها فبهتت برهة تفكر في ذلك ثم قالت متجاهلة عما خلج قلبها

فاذا كنت تخاف عليَّ الى هذا الحد فكيف لا تشعر بأني اخافُ عليك ايضاً مثل خوفك

فازدادت فيه شواغل الغيرة والحنق وطفح قلبهُ بما يكتمهُ من الغيظ فتشاغل بعصاهُ ينكث بها الارض ويداهُ ترتعشان ووجههُ يزداد انقباضاً

فابتدرتهُ قائلة ما لي اراك لا تجيب على سؤالي كأني لا أستحق جواباً قالت ذلك وهي ترنو اليهِ بعينيها كأنها تقول لهُ قل لي ماالذي تكتمه

فنظر اليها شزراً وقد تبللت عيناهُ واراد التكلم فشرق بدموعه فحوَّل وجههُ الى السهل الرملي المحيط بالهرم اخفاءً لما به

فلحظت منهُ ذلك فسبقتها العبرات وتساقطت على خديها وقد امتقع

لون وجهها فتداركت ذلك بمسح دموعها بمنديلها . لا يراها ثم التفت اليها بغتة وقد همّ ان يبيح بما في قلبهِ فاذا بالدموع تترقرق في عينيها ففاضت دموعهُ فأطرق الاثنان برهة لا يتكلمان كأنهما أصيبا بجمودٍ وكل منهما يفكر في امر ويحاذر ان يراهُ الآخر وقد نسيا موقفهما وما حولهما

. واذا بمنادٍ ينادي سلمى فبغتنا كأنهما هبّا من نعاس واذا بأدما تقول منادية سلمى تعالي يا عزيزتي سلمى واسمعي ما يقولهُ حبيب افندي

فتداركت سلمى نفسها ومسحت عينيها حالاً بدون ان يشعربها احد والتفتت الى صديقتها متظاهرة بخلوّ الذهن وقالت ماذا يقول ياعزيزتي وخطت نحوها وهي تمسح عينيها بمنديلها متظاهرة ان بعض الغبار تطاير اليها حتى دمعا فانطلت تلك الحيلة على ادما

.ولما اقتربت سلمى منها قالت لها يقول حبيب افندي ان هذهِ الاهرام قد بنتها العائلة الرابعة من ملوك الفراعنة منذ خمسة آلاف سنة تقريباً

فقالت سلمى قد كنّا الآن في هذا الحديث وقال لي سليم ان ١٢ الفاً من الناس اشتغلوا في بنائها ثم نادت سليماً قائلة أليس كذلك

وكان قد مسح عينيهِ وأخفى عواطفهُ ولكنهُ ودّ او انهما بقيا على انفراد حتى يبيح لها بما يخامر فؤادهُ من الغيظ ولكنه اطاعها وتقدم الى موقف رفاقهِ قائلاً لا تعجبوا لما يقال لكم عن قِدم هذهِ الاهرام فان ابا الهول الذي تشاهدون قفا رأسهِ من هنا اقدم منها كثيراً وهو من صنع العائلة الثالثة الفرعونية

فتعجبت ادما من ذلك القول وقالت . كنت اسمع ان في هذهِ الناحية

مكاناً قديماً اسمهُ الكنيسة فأين هوَ أودُّ ان اراه

قال حبيب هو الى جانب أبي الهول

قالت ولماذا دعوهُ بالكنيسة ألعلهُ كنيسة حقيقية

قال لا ولكنهُ هيكل من هياكل المصريين القدماء وانما دعوهُ بالكنيسة لانهُ يشبهُ الكنائس من حيث كبرهِ واتساعهِ .

فأظهرت ميلاً كثيرًا لمشاهدة ابي الهول والكنيسة

فقال لها حبيب ألا تتمهلين ريثما نشاهد هذا الهرم اولاً ونستريح ثم نسير الى الكنيسة

قالت أودُّ مشاهدتها الآن وأخشى ان يشتد الحرّ بعد قليل فلا استطيع الذهاب اليها الاّ بمشقة

الفصل التاسع

﴿ أبو الهول ﴾

فدعاهم حبيب ان يسيروا جميعاً الى هناك فقالت سلمى اني اعرف ذلك المكان وقد شاهدتهُ مرّة قبل هذهِ برفقة والديَّ فاذهبوا انتم وارادت سلمى بذلك ان تعود الى الاختلاء بسليم ليتمّا الحديث لانها أمست قلقة لما شاهدت منهُ

فقال حبيب هلمّ بنا يا شقيقة نذهب برفقة الست ادما الى الكنيسة فأجابت وساروا وحبيب يود لو ان شقيقتهُ لم ترافقها لكيْ يخلو بأدما

ويستطلع ما في قلبها ولكنهُ تذكر انَّ شقيقتهُ ساذجة بسيطة القلب تنطلي عليها الاحاديث بظواهرها فقد يستطيع استطلاع ما يريد بالرموز والاحاجي

فسار الثلاثة حتى أطلوا على أبي الهول من ورائهِ فاذا هو تمثال هائل يشبه اسدًا رابضاً ورأسه رأس انسان فداروا حتى وقفوا أمامهُ فجعلت ادما وشفيقة تنظران اليهِ وتتعجبان لكبرهِ وهوله

فقالت شفيقة اخبرني يا اخي عن هذا التمثال الكبير لماذا جعلوهُ بجثة اسد ورأس انسان

قال يا اختي قد جعلوهُ كذلك اشارة الى اجتماع القوَّة والعقل لان الاسد مثال القوَّة والانسان مثال التعقل

فقالت ادما ولكن كيف تعرف انهم جعلوهُ كذلك لهذهِ الغاية

فنظر اليها حبيب وقد صمم ان يستطلع خفايا قلبها وقال لما أنهم عرفوا ذلك بقراءة ما كُتب عليها وهبْ انهم لم يكتبوا شيئاً فهل تظنين شيئاً يخفى على الانسان المتبصر فان الطبيعة كلها رموز ولكل رمز معنى يفسرهُ العقلاء والرجل العاقل يقدر ان يقرأ الغايات بمجرَّد النظر الى الحوادث (فهل يخطرنَّ ببالك) ان الانسان العاقل يعصاهُ شيءٌ

قال ذلك ونظر الى وجهها فاذا هي تنظر اليهِ تنتظر اتمام حديثهِ وقد كاد يتجلّى الورد في وجنتيها عند سماعها قولهُ «هل يخطرنَّ ببالك» ولكنهُ اراد تحقيق ظنهُ فقال

ولكن هبي ان الانسان لم يتمكن من قراءة الطبيعة بمجرَّد النظر اليها فالكتابة لم تدع سرًّا مسدولاً ولا امرًا مكتوماً

قال هذا ونظر اليها بجانب طرفهِ فاذا بها قد توردت وجنتاها خجلاً واطرقت متظاهرة بالتأمل فيما يقول

فنظر اليها وقال ما رأيك يا ست ادما أليس صحيحاً ما اقولهُ

فاجابت وقد ابرقت عيناها بذبول ماذا اقول وليس عليَّ الاَّ أن اسمع لانك تتكلم (عني)

فاعجبهُ حذقها وفهم منها الاقرار بما كتبت بقولها «انك تتكلم عني» ولكنهُ قال كيف تقولين اني اتكلم عنك وانا اتكلم عن (روحي) ثم وجه خطابهُ الى شقيقتهِ قائلاً وقد اظهر المزاح أليس كذلك يا شفيقة

فاجابت شفيقة ببساطة قائلة (اراك تتكلم عن هذا التمثال)

قال اذًا اتكلم (عنك) يا عزيزتي شفيقة

فادركت ادما انهُ اراد الاشارة الى بساطة شقيقته لانهُ جعلها بمنزلة التمثال الذي لا يدرك لبساطتها فنظرت ادما الى حبيب بطرف خفي مبتسمة وقد اسرع خفقان قلبها كأنها تقول لهُ قد فهمت مرادك

ثم تحولوا عن التمثال وانحدروا درجات قليلة الى الكنيسة فاذا هي بناء خرب ولكن بقاياهُ تدل على عظمهِ لان معظمهُ مبني من الحجر المعروف بالغرانيت وكلها احجار كبيرة هائلة

فقالت ادما وهم لا يزالون عند باب الهيكل ارى يا موسيو حبيب (وشددت التلفظ بالباء) ان هذا الهيكل متقن الصنعة من الخارج فهل هو كذلك من الداخل

فادرك مرادها واجابها وقد هاجت بهِ عواطفهُ انَّ داخلهُ أكثر

اتقاناً واكثراشراقاً من خارجهِ فان الناظر اليهِ من الخارج يظنهُ خرباً ولكن لو دخلت اليهِ ونظرتِ الى داخلهِ لرأيت ما يسرُّك وربما فضلت البقاء فيه

فقالت وقلبها يزداد خفقاناً هل يدخلهُ أُناس كثيرون

قال أُؤكد لك انهُ لم يدخلهُ احد سواك قط ولن يدخلهُ ابدًا

قال ذلك وقد فهم الاثنان ان الضمير راجع الى قلبهِ هو ولكن شقيقتهُ انكرت عليهِ ذلك فقالت كيف تقول انهُ لم يدخلهُ احد قبلها ولا بعدها أَلعلهُ كان مقفلاً وسيقفلونهُ بعد رجوعنا

فانتبه لوجود اختهِ معهما وكان لشدة تأثره قد نسيها فاستدرك قائلاً انما اردت في هذا اليوم لاننا اتينا باكرًا ولم يأت احد بعد ويغلب على الظن ان لا يأتي احد بعدنا واما والدونا فانهم دخلوهُ قبلاً ولا يدخلونهُ اليوم وكذلك الخواجه سليم والست سلمى

فتحقق كل منهما ما عند الآخر من العواطف المتبادلة وكانت ادما اكثر من حبيب سرورًا لانها احبتهُ قبلما احبها وكانت تخشى ان ترى منهُ صدودًا او اعراضاً فتقع في وهدة اليأس · اما هو فقد قدمنا انهُ كان يرتاح الى مجالستها ويلتذ بحديثها ولكنهُ لم يكن يخطر لهُ امر الاقتران بها اما هي فكانت تشعر عند مجيئهِ لزيارة بيت ابيهـا شعورًا خصوصياً يصاحبهُ بعض الخفقان في قلبها وكان يتزايد ذلك فيها يوماً عن يوم حتى تمكن منها ولكنها كانت لتعقلها وحسن تبصرها بالعواقب تخفي ذلك عنهُ جهدها وتنتظر ان يبدأ هو باظهار المحبة جرياً على الغالب في مثل تلك الحال وطال بها الانتظار حتى لم تعد تستطيع صبرًا على هذا الكتمان

ولم تجد سبيلاً افضل من كتابة ذلك الكتاب بالطريقة التي قدمناها وقد فازت بمرادها وتحققت امانيها

فصارت تودُّ المكاشفة صريحاً لافشاء ما في قلبها ولكنها لم تستطع ذلك بوجود شفيقة فأَجلته الى فرصة أُخرى

اما هو فعند ما تحقق ظنهُ وايقن بأَنها هي هي الكاتبة وانها تحبهُ الى هذا الحد مال الى مكاشفتها ايضاً ولكنهُ شعر بعد أَن أَوضح لها بالرموز ان قلبهُ مكرس لاجلها وانهُ لن ينظر الى سواها اعتبر نفسهُ قد ارتبط معها بعهود وثيقة واحِسَّ انها اصبحت من تلك اللحظة خطيبة لهُ وحالما تصوَّر ذلك شعر بانقباض داخلي لم يعرف لهُ سبباً ولكنهُ كان يلمح في ذلك الانقباض ظلاً من الندم لمسارعتهِ في الارتباط بها فتجيبهُ عواطفهُ مبرّئة نفسها من السقوط وعلى كل فان تلك الخواطر كانت تمرُّ في مخيلتهِ مرَّ السحاب وهو يتجاهل عن ادراكها ثم كان يتذكر حالت صديقهِ سليم وما آلت اليهِ العجلة في خطبة سلمى من غضب والدتهِ فيزداد ندمهُ ولكنهُ يعود فيقول ان الفتاة تليق بي ولا اظن اني أَتوفق الى أَحسن منها ولا سيما ان والدتي وشقيقتي يحبانها كثيرًا وخرجا من الكنيسة صامتين وقلباهما يتكلمان وشفيقة بينهما كلما رأَت شيئاً جديدًا تسأَل شقيقها عنهُ فعاد الجميع يريدان الاهرام للاجتماع ببقية الجماعة

الفصل العاشر

﴿ العتب بقدر الامل ﴾

اما سليم وسلمى فسرًا لانفرادهما وكانت سلمى اكثر سرورًا بذلك لقلقها مما لاحظته في حبيبها من مظاهر الانقباض ولم يعد يهدأُ لها بال الاَّ باستطلاع سبب ذلك

اما هو فكان لشدة تأثرهِ من التردُّد يودُّ نسيان ما يخالج ضميرهُ عن سلمى · ومع شدة رغبتهِ في استطلاع حقيقة ما بلغهُ عنها كان كثير الميل لتكذيب ما بلغهُ واجلالها عنهُ مدفوعاً الى ذلك بما تمكن في فؤادهِ من المحبة لها واحترامها على ان الغيرة كانت من الجهة الثانية تدفعهُ الى تحقق الامر بنفسهِ فلما خلا بها نظر اليها نظرةً تشفُّ عما يتردَّد في قلبهِ ويتجاذبهُ من جواذب الحب والغيرة فأجابتهُ بنظرة تتخللها عواطف تتقد محبة ويعترضها القلق والاضطراب

ثم قال لها وهو يتلجلج بكلامهِ الى أين ذهب حبيب ورفيقتاهُ

قالت قد ذهب الى أبي الهول

قال وكيف استطاع الذهاب الآن

قالت وما يمنعهُ منهُ

قال بعد السكوت برهة · لا اعلم

قالت وقد داخلها الريب في ما يريد · ومن يعلم اذًا

قال وقد علا وجههُ امارات الحنق · أنتِ

فسكتت تفكر في ما ينطوي تحت هذهِ الكلمة ثم قالت · ماذا تعني

قال لا أعني شيئاً تجهلينهُ

فازدادت قلقاً واضطراباً وعلا وجهها الاحمرار ثم قالت · مالي أراك تخاطبني بالاحاجي والمعميات أفصح عن مرادك

قال · هل خفي عليك فهم المغزى الى هذا الحد يا سلمى

قالت لا افهم ما تقول ولا اعلم ما يمنع حبيباً عن الذهاب الاّ كونهُ سار برفقة فتاة غريبة عنه ولكنهُ سار برفقة شقيقتهِ على انهُ ولو سار بدون شقيقتهِ لما كان هناك ما يوجب المظنة لانهُ شاب مهذب عاقل

فحمي غضب سليم عند امتداحها اياهُ وهبت فيهِ حاسة الغيرة وقال · صدقتِ انهُ شاب مهذب وليس هناك ما يوجب المظنة صدقتِ · · ·

· فازداد تعجبها لتلك العبارات التي لم تكن تعهدها فيهِ وسكتت برهة تردّد عبارتهُ في ذهنها لعلها تجد لها حلاً فاشكلت عليها فعاودته السؤال قائلة انقدم اليك بحياة المحبة الطاهرة التي بيننا ان تفصح عن مرادك فقد نفد صبري

فرنا اليها بعينين تتقدان غيظاً وهو يحاول اخماد نيرانهما ثم قال · باللّٰه عليك لا تقسمي هذا القسم واتركي المحبة الطاهرة على حدة

فتزايد خفقان قلبها ونفد صبرها وامتقع لونها ونظرت اليهِ وقد تساقطت العبرات من عينيها ولم تعد تتمالك عن البكاء وارادت التكلم فشرقت بدموعها

فابتدرها بالكلام وقد كادت دموعها تطفئ نار غضبهِ قائلاً كفى

يا سلمى دعيني اني لا اعي ما اقول ولا اقدر أصرح باكثر من ذلك وعليك تتمة التفسير

فمدت يدها اليه وهي ترتجف وهمّت بالتكلم والاستفهام عن رموزه وارادت امساك يدهِ فجذبها منها نافرًا وقطع عليها الكلام قائلاً لماذا تمدين يدك اليّ ألا تخافين رفضها

فصاحت وقد علا بكاؤها حبيبي سليم حبيبي ما بالك تخاطبني بمثل هذا الكلام ما الذي جرى لك وماذا تضمر تحت هذا الخطاب استحلفك بالمحبة ان تخبرني حقيقة مرادك · فقال وقد اشتد غضبهُ لا تحلفي بما قد شوّهتهِ وألبستهِ الخزي والعار

فتحوّلت عنهُ الى جانب الهرم وجلست على حجر هناك جاعلة رأْسها بين يديها واخذت في البكاء والشهيق حتى كاد يغمى عليها

فنزلت تلك العبرات على قلب سليم بردًا وسلامًا فأخمدت ما كان متقدًا فيهِ من نيران الغيرة والحنق وعادت اليهِ عواطفهُ نحوها ونسي ما كان ثائرًا فيهِ وامسك عما كان يريدهُ من توبيخها وتعنيفها وصار ينظر اليها نظرهُ الى ملاك طاهر وقد ندم على ما فرط منهُ من الكلام وهمّ اليها وامسكها بيدها وقد تبللت بالدموع التي كانت تتساقط على خديها كالدرّ فوقفت ويدها الاخرى بمنديلها على عينيها

فقال لها خففي عنك انك والله ملاكي ومجرى نفسي كفي عن البكاء لا أبكاك الله ولا اراك ضيماً

فرفعت يدها عن عينيها ونظرت اليهِ بطرف قد كدرتهُ الدموع فذبل

وتكسرت اهدابهُ فوقعت تلك النظرة في قلبهِ موقع السهم وهاجت فيهِ عاطفة الحب حتى ترقرقت الدموع في عينيهِ وقال اعفي عني يا حُبيبتي واصفحي عن زلّتي اني والله لا أُريد بما قلتهُ الاَّ تجربة محبتك

فتنهدت سلمى تنهدًا عميقاً وقالت وهي غير واثقة بصدق ما يقول ألا تزال في حاجة الى تجربتي يا سليم الم تختبرني بعد أَلم تعلم مكنونات قلبي أَلم تكن اوَّل من طرق هذا القلب المنكسر واقام فيهِ اعندك شك في ذلك يا سليم آه ثم آه من قلوب الرجال ما اقساها

فلما سمع منها ذلك خفق قلبهُ لانهُ اذكرهُ بحديث داود ولكن الحب كان قد تسلط على عواطفهِ فقال لها وقد وطَّد نفسهُ على حبها ولو مهما قيل لهُ فيها . كوني كيف شئتِ وافعلي ما بدا لكِ فاني قد ملكتك هذا القلب فافعلي بهِ ما تريدين

فلم يعجبها هذا القول لما تخللهُ من ملامح الشك في صدق محبتها فقالت أَلا تزال ترميني بنبال الكلام المموّه يا سليم قلت لك صرّح بمرادك واطلعني على حقيقة رأْيك واذا كنت مرتاباً بصدق طويتي او داخلك شك في ما يتقد في هذا القلب المنكسر الذي قد اثخنهُ الحب . . . قالت ذلك وتنهدت ثم انقطع كلامها وهي لا تقوى على الوقوف لشدة الانفعال فحاولت الجلوس على ذلك الحجر فأَمسكها بيدها قائلاً حاشا لله ان أشك في محبتك فان صورتك مرسومة على لوح صدري ولا ريب عندي ان عندك مثل ما عندي فثقي بما اقول ودعينا من هذا الحديث وهلمَّ بنا الى حيث والدك ووالدتك لانهم لا شك قد استبطأُونا ولنقضِ بقية هذا اليوم بالتنزُّه

وما لنا ولتشاكي الغرام فانهُ مضرٌّ بنا كلينا

فقال ذلك وقادها فمشت وراءهُ فأطلّوا على الفضاء الرملي المحيط بالاهرام فاذا بحبيب قد عاد مع شقيقته ادما من أبي الهول وجاؤا الى حيث الوالدون وكانوا جالسين على أكمة من الحجارة كأنها أثر هرم صغير كان قائماً هناك والخادمة جالسة القرفصاء بجانب الاهرام حيث كانا واقفين توقدُ نارًا لتحضر لهم شيئاً من الطعام الخفيف مما جاؤا بهِ معهم من القاهرة .

فلما رأتها سلمى تذكرت انها كانت بالقرب منها وخافت ان تكون قد سمعت شيئاً من حديثها مما يخجلها كشفهُ ولكنها كتمت ذلك الفكر وسارت الى جانب سليم مظهرة الانبساط حتى وصلا مجلس الجماعة فاستقبلوهما بالترحاب ووالدة سلمى تنظر اليهما وهما قادمان وتشكر الله على تألف قلبيهما لعلمها ان المحبة الطاهرة من ألطف العواطف وألذها

فجلس الجميع حتى حضر شيءٌ من الطعام اكلوهُ لسد الجوع وقضوا بقية تلك الظهيرة يخطرون بين الاهرام وأبي الهول بين تنزه وحديث وكل منهم يغني على ليلاه

اما حبيب فقضى تلك المدة ينظر تارة الى حبيبتهِ ادما وطورًا الى صديقهِ سليم وخطيبتهِ سلمى ويجول بافكارهِ حيناً في ما وقع لهُ ذلك اليوم من ربط علائق المحبة مع ادما وحيناً بما عرفهُ عن ارتباك صديقهِ سليم من رسالة والدتهِ وحنقها على الفتاة التي احبها وكان قد لحظ على وجهي سليم وسلمى آثار البكاء والاضطراب ولكنهُ تجاهل لعلمهِ ان تشاكي الغرام

لا يخلو من مثل ذلك ولا سيما اذا خامره شيء من المصاعب والمماكسات

اما سليم فأحبّ التجاهل عما سمعهُ والتغافل عما اتفق له صباح الامس بين سلمى وحبيب وصار يرمي ناقل تلك الحكاية بالوشاية ويعلل ما شاهدهُ بتعليل يبرئ ساحة حبيبته من كل دنس ليس لضعف فيه ولكن لما تمكن من المحبة بينه وبين سلمى ولما شاهدهُ ذلك اليوم من شدة انفعالها ورقة عواطفها ولطيف عتابها

اما ادما فقد كان ذلك اليوم اسعد الايام عندها لانها تحققت آمالها وبلغت امانيها ولكنها صارت تتوقع فرصة أُخرى تخلو فيها مع الحبيب فتبثه لواعج قلبها صريحاً حيث لا واشٍ ولا رقيب

وفي نحو الساعة الرابعة من النهار ركبوا المركبات وتوجهوا نحو المدينة فعرجت عربة بيت حبيب في باب اللوق الى محطة حلوان وسارت المركبتان الاخريان الى القاهرة

الفصل الحادي عشر

﴿ داود ﴾

فلنتركهم وشأنهم وكلٌّ منهم في هواجسه ولنعد الى رسول السوء داود فانهُ رجل من أصل دنيّ اكتسب ثروة كبيرة من تعويضات الاسكندرية زوراً وبهتاناً فابتاع اطياناً وبنى منزلاً هناك وجاء القاهرة اقام فيها ولا عمل لهُ الّا مراقبة اعمال الناس والتردُّد الى اماكن اللهو ولكنهُ كان دنيّ

الاخلاق شديد البخل مع ما كان فيه من الغنى فربما باع شرفهُ وذمتهُ ببعض الدريهمات . وهو بالحقيقة كان مقيماً بالقرب من بيت الخواجا سليمان وليس في قصتهِ التي قصها على سليم شيءٌ من الصدق الاَّ كونهُ كان مقيماً هناك . اما تردده عليهِ فلم يكن الاَّ زيارات قليلة مراعاةً للجوار ولم يكن بينهُ وبين الخواجه سليمان واهله ائتلاف لاختلاف المشرب والتربية وكانوا اذا جاءهم يعاملونه معاملة الغريب اما هو فكان يتخيل لهُ نيل سلمى لما رأى من جمالها ولطفها ولكنهُ لم يجسر على ان يخاطبها او يخاطب والدها في شيءٍ من ذلك وكان يرى من سلمى اخلاصاً لحبيب فكان يغار منهُ ويكرههُ من اجل ذلك وخصوصاً لما كان يلاحظ احتقارها لهُ وعدم اكتراثها بهِ اذا زار بيتهم

وكان يقيم في القاهرة شتاءً وفي الاسكندرية صيفاً في منزلهِ خارج البلدة بجهة محرم بك فاتفق لهُ في ذلك الصيف ان عائلةً سكنت في بيت بجوارهِ وبعد مبادلة الزيارات بينهُ وبينهم التحمت طباعهم بطباعهِ واشتدت الصداقة بينهُ وبينهم حتى كثر ترداده عليهم وآنس من ربة البيت تلطفاً وتودداً فاكثر من التردد حتى تناقل اهل تلك الناحية الاحاديث الطويلة عنهُ وعنها وهو لا يبالي

اما العائلة المشار اليها فعلى شاكلة داود من حيث الدناءة والخسة ولكنهم كانوا لغناهم يظهرون بمظهر كبار الناس ونخبة اعيان الاسكندرية وكانت هذه العائلة قبل سكناها في محرم بك مقيمة في شارع المسلة قرب محطة الرمل بجوار بيت فواد شقيق سليم وكانوا يترددون على بيتهِ حتى

تمكنت الصداقة بين صاحبة هذا البيت الست وردة ووالدة سليم تمكنًا متينًا لان هذه الوالدة كانت من اطيب الناس قلبًا واخلصهم طوية تنطلي عليها الحيلة وتأخذها مظاهر اللطف والرقة

وكان لوردة ابنة حسنة الخلقة بارعة في الجمال ولكنها كانت قد تربّت على يدي والدتها حتى اكتسبت سائر انواع الدهاء والحيل وهي وحيدةٌ وجميع مال امها ارث لها وحدها وكان اهل الاسكندرية يتحدثون عنها وعن غناها ولكنها لم تصادف طلابًا وقد تجاوزت الثلاثين من العمر

وكانت وردة تتقرب من والدة سليم كل التقرب وتظهر لها كل الميل فاذا اجتمعت بها اكثرت من الاطناب بجمال ابنتها مادموازل اميلي وحسن خصالها والفتاة كانت من الجهة الاخرى تظهر الوداد مثلها

واتفق في اثناء ذلك عود سليم من اوروبا حيث كان قد توجه لدراسة فن المحاماة فاقام في بيت اخيه مدة فاعجب الفتاة ووالدتها كثيرًا اما هو فكان خليَّ الذهن من شواغل الحب لاهتمامهِ في امر مستقبلهِ واشتغالهِ بالمطالعة والتنقيب في الكتب

على ان ذلك لم يكن مانعاً من تدبير الحيلة عليهِ واجتهاد وردة في اغراء والدتهِ بطرق التحيل حتى وعدتها ان تحبب سليمًا بابنتها وقالت انها تحب الفتاة كثيرًا وستقنع ولدها ان يتزوج بها بعد حين فوطّنت ورده نفسها على ذلك واخبرت ابنتها به فاصبحت الفتاة عالقة القلب بسليم مع بعدهِ عنها وكانت وردة لفرط دهائها تكثر من تقديم الهدايا

وسائر وسائل التقرب من والدة سليم وتعدها بالسعادة الدائمة اذا تمّ لها ما وعلقت به وبقيت الحال كذلك مدة بعد سفر سليم الى القاهرة ومادموازل اميلي ووالدتها تنتظران نجاز الوعد

اما فواد شقيق سليم فكان من السذّج الذين لا يهمهم الالتفات الى مصلحة سواهم ولذلك لم يكن يتداخل في امر والدته وما دار بينها وبين ورده

وكانت والدتهُ لشدة اخلاصها لورده لا تخفي عليها شيئاً كبيرًا ولا صغيرًا فلما كتب اليها سليم من القاهرة انهُ احب سلمى وفي نيته العقد عليها تكدرت وذهبت بالكتاب الى وردة واطلعتها عليهِ وسألتها اذا كانت تعرف الفتاة فاخذت تقذف بها وبسيرتها وهي لا تعرف عنها شيئاً وقالت لها ان الناس قلما يخلصون لاحد وهم لا يحرمون محرّماً فان ولدك سليماً يستحق فتاة تليق بهِ ولا فرق عندي تزوج ابنتي او سواها ولكنني لا ارضى لهُ بهذا النصيب . وقد ارادت بذلك التمويه على تلك الوالدة السليمة النية فاستشارتها في الامر فقالت لها اكتبي لهُ ان العادة التي سار عليها اسلافنا تقضي بان الشاب لا يتزوج بمجرد اختياره هو والافضل ان يرفع هذا من ذهنه ويترك امر اختيار الزوجة لوالدته ثم تحذرهُ من التمليق الذي يستخدمه الناس في اغراء الشبان الى غير ذلك ولم تكن هي تعرف الكتابة فكلفت جارها داودًا ان يكتب لها ذلك الكتاب فكتبهُ كما يشاء وبعث بهِ

فاجاب سليم عليهِ مبرهناً صحة رأيه واخذ يمتدح من سلمى وحسن

خصالها ودارت المخابرة على هذا الامر بين سليم ووالدتهِ مدة وهم لا يرون منهُ الاَّ ثباتاً في الحب حتى كادت تيأس وردة من مرامها مع ما دسّتهُ من الدسائس واغرت والدة سليم عليهِ من الاقاصيص المختلقة والاحاديث الملفقة

فلما اعيتها الحيل خلت بشيطانها داود وسألته اذا كان يعرف سلمى قال نعم اعرفها واعرف والدها وبيتها

وكانت تعرف حبه للدراهم فقالت هل لك بهذهِ الخدمة فتقدمها من اجلي ولك عربون عليها معبتي ومتى تم الامر على ما نريد يكون لك نصيب من الدونة

فلما رأى باباً للربح قال مرحباً بك اني رهين اشارتك وليس بيننا فرق فان خدمتك واجبة عليَّ فمري بما تريدين

قالت قد علمتَ سرَّ الامر وانا لو لم ارَ في اميلي ميلاً اليهِ ما همَّني رامرم ولكني بحوث بالنسبة لمحبة ابنتي لهُ احبهُ انا ايضاً مثل محبتها ·

فلما قالت ذلك لحظت في وجه داود انقباضاً لقولها انها تحب سليماً

فضحكت وردة مظهرة المزاح وامسكت يد داود قائلةً لا يغضبنك قولي اني احبهُ فما هو بالغ من محبتي نقطة من بحر محبتي لك يا عزيزي

فضحك داود حتى غارت عيناه الصغيرتان وبرزت اسنانهُ السوداء وقهقه حتى كاد يستلقي على قفاه ثم نظر الى وردة وربّت على ظهرها قائلاً بورك فيكِ يا حبيبتي انا اعلم ذلك جيدًا ولا شك عندي بحبك وها اني اكراماً لعينيك ساعٍ جهدي في كل ما تريدين

فقالت لهُ وهي تغازلهُ بعينيها المُطلتين فوق وجنتين مكسوتين بعقاقير العطّار الملونة تلمعان كانهما مغشاتان بالجبصين المحمرّ - عاشت المروءة والنخوة يا حبيبي هكذا يكون المحبون فامضِ الى القاهرة وتدبر الامر بحكمتك وذكائك وافدني بما تعمله

فنهض يريد الذهاب الى بيته يتأهب للسفر فنقدتهُ في كفه بعض الجنيهات قائلة خذ يا حبيبي هذهِ نفقات الطريق ولا تؤاخذني (رح تسلم دي القامة) .

فقبض الدراهم وخرج فرحاً مسرورًا واخذ يدبر الحيلة لتبغيض سلمى الى سليم لانّ لهُ ايضاً في ذلك مأربًا انتقاماً من سلمى وحبيب اما وردة فانها اغرت والدة سليم على كتابة كتاب كتبته لما هي ينطبق على مؤدى رسالة داود ظناً منها ان الدفعتين معاً تكفيان لبلوغ المرام

الفصل الثاني عشر

﴿ سعيدة ﴾

وكان في بيتها خادمة قديمة قد وافقتها لؤماً وخساسة اسمها سعيدة فبعثت اليها بعد خروج داود وانقدتها جنيهين قائلة خذي هذين الجنيهين هبة مني على صداقتك لي فعجبت العجوز لهذه العطية على غير انتظار وعلمت لدهائها ومكرها ان سيدتها تريد منها امرًا فهمت الى يدها وقبلتها وقد انبسط وجهها واخذت تدعو لها بطول البقاء وان يفرحها الله بالست اميلي ويوفق لها عريساً موافقاً

فقالت وردة وقد تنهدت كمن يشكو مضض الدهر وقالت انتِ تعلمين يا سعيدة اني ترملت منذ عدة سنين وليس لي الاّ هذه الفتاة

قالت نعم يا ستي ربنا يخليها ويبخت لها ويطول عمرك

قالت وردة وقد تركت الدنيا من اجلها لانها تعزيتي الوحيدة في هذا العالم ولا يخفى عليك ما هي عليه امبلي من الجمال واللطف والدلال

قالت نعم يا ستي سماالله عليها ربنا يخليها والله ما فيش زيها بين كل بنات اسكندرية

فقالت وردة . وكم من خطيب طلبها وهي لا ترضى احداً وانا لم اغصبها على القبول لانها تستحق نصيباً جيداً

قالت اي والله ستي امبلي تستحق نصيب عال

فقالت ولكن الآن اتاها نصيب ارضاها وبعد ان كادت تصل اللقمة الى الفم جاء اولاد الحرام واغروا الشاب حتى علق بابنة أخرى في القاهرة ويظهر من كتابته لوالدتهِ انهُ يعشق تلك الفتاة عشقاً آه من اولاد الحرام المدلسين

فقالت سعيدة مغضبة ربنا يجازيهم مين همّ دول ربنا ينشله من بين ايديهم

قالت هم في القاهرة في شارع شوبرا واسم صاحب البيت الخواجه سليمان واسم الابنة سلمى والظاهر ان سليماً يزورهم كل يوم ولذلك لا يتركون لهُ فرصة يفتكر او يتردد

فقالت سعيدة يا دهوتي من اولاد الحرام صحيح يا ستي يا ما في

في الدنيا دي ولكن طولي بالك انا اعرف ابعده عنهم وباذن الله ادخل فيهم لحدي النوم وافرقهم زي التراب ما لكيش دعوى وحياتك ماني راجعه اسكندرية حتى اجيبه وأياي وهاديني مسافرة من دي الوقت

قالت ذلك ونهضت الى غرفتها واخذت تعد ثيابها فتبعتها سيدتها واخذت توصيها بكتمان هذا الامر عن كل انسان حتى يتم لهم فطمأنتها واعدت ما تحتاج اليهِ من الثياب في صرّة وتناولت شيئاً من الطعام وودعت سيدتها وخرجت توًّا الى المحطه فركبت القطار قاصدة القاهرة وكانت تعرف طرقاتها لانها ربيت فيها وخدمت كثيرين على يد المخدمين وغيرهم

فوصلت القاهرة في المساء وباتت في بيت بعض اقربائها وفي الصباح لبست جلابيتها وملايتها والبرقع وقصدت بيت الخواجه سليمان وكان وصولها اليهِ قبل يوم الاهرام بثلاثة ايام

فقرعت الباب فلاقتها والدة سلمى وسألتها عما تريد فقالت اني امرأة مسكينة ليس لي من يعوانني وقد حاولت الاستخدام على يد احد المخدمين فاذاقني المرّ حتى اني كنت اذا خدمت في بيت يأخذ مني نصف ماهيتي ويتهددني واسيادي يشكون مني ومن المخدِّم فيطردونني واخيرًا قلت بنفسي اني لم اعد استخدم على يد المخدمين وجئت افتش عن بيت اناس طيبين يكونون اهلاً لخدمتي لاني اموت في خدمة الاناس الطيبين فاهداني بعض الناس على حضرتك وقد جئت ويظهر لي ان حضرتك سيدة ماصلة فاذا رأيتِ اني اكون خادمة عندك خدمتك بعينيَّ وقلبي

وكانت والدة سلمى قد قاست عذاباً اليماً بسبب الخدم والمخدمين فكانت تطلب من المخدم خادماً او خادمة فيأتيها بها ويطلب اجرته فيأخذها ثم لا تلبث الخادمة عندها بضعة ايام حتى يغريها المخدّم على الخروج من عندها طمعاً في تخديمها في بيت آخر حتى ينال اجرته ثانية وهذه حالة يشكو منها سائر اهل القاهرة ولا سيما السيدات لاحتياجهن الى الخدم وكان في بيت الخواجه سليمان خادمة اذاقتهم مرّ العذاب من سوء المعاملة وجهالتها في لوازم البيت فلما سمعت كلام سعيدة ولطفها مع ما عاينت فيها من الظواهر الحسنة سرّت بتلك الفرصة وهرولت الى سلمى واخبرتها بالامر فوافقتها على استخدامها واخراج الخادمة القديمة ولكنها قالت لها ما ادرانا انها ليست من اهل الحيل فربما تسرق منا شيئاً او تضرّ بشيء

فعادت اليها وسألتها عن اسمها فقالت اسمي سعيدة فقالت ولكن العادة يا سعيدة ان يأتي الخادمات بضمانة

فقالت وقد تبسمت تبسماً يدل على استنكافها من هذا السوال وقالت والله يا ستي ليس عندي ضمانة ولكن عندي هذا السوار وهذه الحلق فاجعليها عندك رهناً والله يعلم اذا كنت امينة وسترون مني كل ما يسركم باذن الله فاقتنعت منها بذلك وادخلتها واخرجت الخادمة القديمة فاخذت تظهر كل مهارة في الخدمة والنظافة ولطيف الحديث حتى اعجبت بها سلمى ووالدتها كل الاعجاب وحسبتا انهما حصلتا على سعادة لم يحصل عليها أحد سواهما

وكانت سعيدة تمتدح سلمى دائماً وتتقرّب منها وتظهر لها كل محبة فأحبتها سلمى بنوع خاص ولذلك ارادت استصحابها الى الاهرام

اما داود فأعدّ نفسهُ للسفر في الصباح التالي فبارح الاسكندرية على قطار الاكسبرس وقضى معظم الطريق في تركيب القصة التي قصها على سليم كما تقدم

وكان في ظنهِ انها تكون كافية مع الكتاب الذي كتبتهُ وردة عن لسان والدتهِ لارجاع سليم عن حب سلمى فبلّغ رسالة السوء وعاد الى الاسكندرية وتربص الجميع هناك في انتظار جواب سليم على كتاب والدتهِ بعد مقابلته داود فخاب انتظارهم لانهُ مضى اسبوع ولم يصلهم شيءٌ

اما وردة فكانت لا تزال آملة ان تنال بغيتها بمساعي سعيدة فلبثت تنتظر الفرج من عندها

الفصل الثالث عشر

حبيب ووالدته

تركنا اصحاب زيارة الاهرام عائدين الى بيوتهم وتركنا حبيباً واهل بيتهِ عند محطة حلوان ولكننا لم نذكر ما كان من وداع حبيب لأدما وقد كان في متمناهُ ان لا يفارقها لولا مراعاتهُ عيون والدتهِ وشقيقتهِ ولكنهُ اشار اليها عند الوداع بالضغط على يدها والنظر اليها انهُ انما فارقها قهراً وسيلتقي بها مرّة اخرى ويتكاشفان لواعج الغرام

اما هي فأحست عند وقوف العربات للوداع عند محطة حلوان

كأنَّ قطعةً من قلبها انفصلت عنها ولكنها تعللت باللقاء مرَّة اخرى لان حبيباً كان يتردّد على بيت أبيها يوماً بعد يوم

ركب حبيب ووالدتهُ وشقيقتهُ القطار وهو سابح في تيار من الهواجس التي لم يشعر عمرهُ بمثلها وكان يتردّد في الحب الجديد الذي لم يتمكن منهُ بمقدار ما تمكن من ادما وانما كان يشعر مع ذلك الحب بنوع من الشفقة عليها لما شاهد من سرورها العظيم بقبولهِ اياها على انهُ كان يشعر بانقباض داخلي لا يعرف لهُ سبباً

فمشى القطار بهم وهو صامت لا يتكلم فأدركت ذلك والدتهُ فقالت مالي اراك صامتاً يا حبيب وقد رأيتك اليوم مسروراً جدًّا في الاهرام فهل انت متكدر من شيءٍ

فانتبه لنفسهِ بغتةً وقال متبسماً لا يا سيدتي بل انا في غاية السرور من هذا اليوم ولكن لا اعلم لماذا يشعر الانسان بعد مثل هذا السرور بانقباض واظنهُ من قبيل رد الفعل وليست هذهِ المرَّة الاولى التي شعرت بها بمثل هذا الشعور فاني كلما عدت من مجتمع سرور او انبساط ابقى مدة صامتاً اراجع في مخيلتي ما مرَّ بي اثناء ذلك السرور وما شاهدتهُ من المناظر وما سمعتهُ من الاحاديث

فقالت شقيقتهُ صحيح يا أُمَّاهُ وانا ايضاً كذلك لانكِ لو تعلمين مقدار سروري في هذا اليوم ليس فقط لوجودي بجهات الاهرام وانما لاجتماعنا بهؤلاء الاصحاب وخصوصاً صديقتي ادما وترينني الآن اميل الى السكوت والتفكر فيما مرَّ بنا اثناء هذا النهار

فلما سمع حبيب ذكر اسم ادما خفق قلبهُ وعاد الى هواجسهِ فقالت والدتهُ حقيقة يا شفيقة ان ادما ابنة عاقلة لطيفة قريبة من القلب كثيرًا وقد كنتِ تمتدحينها امامي كثيرًا ولكنني عاينت منها فوق ما كنت اسمع فسرّ حبيب لهذا الحديث لعلهُ يستطلع بهِ افكار والدتهِ من قبيل الفتاة فقال لوالدتهِ الم تعرفيها قبل الآن يا أماه

قالت لا يا ولدي ولكنني كنت اسمع عنها من شقيقتك من يوم كانتا في المدرسة في بيروت ولم تبرَح منذ تركت للدرسة تمتدح منها وقد زرتها في البيت مرات قليلة واما اليوم فقد قضينا معظم النهار معاً فرأيت منها لطفاً زائدًا وقد اعجبني منها تهذيبها ولطف حديثها ولكنني عجبت من شدة تعلقها بشفيقة وتعلق شفيقة بها

فقال تلك ايام المدرسة تنمو فيها المحبة بنموّ القلوب

فقالت شفيقة نعم يا اخي هذا حقيقي ولكني قد احببتها اكثر من سائر رفيقاتي وهي ايضا تحبني كذلك

فقال حبيب وقد ازداد حباً بها وسرّ لمحبة والدتهِ لها – وهي بالحقيقة تستحق محبتك لانها في غاية اللطف والتهذيب

وكانت والدتهُ اثناء ذلك تفتكر بالفتاة وبأنها مناسبة لولدها وارادت ان تستطلع رأيهُ من جهتها وتذكر لهُ امر الاقتران بها ولكنها امسكت عن ذلك امام ابنتها تأدباً وعوّلت على ان تستطلعهُ في فرصة اخرى

وكان حبيب من الجهة الثانية يفتكر مثل فكرها تماماً وهكذا انقطع الحديث ولبث كل منهم يجول في افكارهِ حتى وصل القطار الى

حلوان وساروا الى البيت

اما ادما فوصلت البيت مع والدتها وهي تكاد تطير فرحاً لما كان من تحقق امانيها ولكنها كانت تشعر بشدة لهفها للاجتماع بهِ مرَّة ثانية لتكاشفهُ الحب صريحاً وتنتظر عقد الخطبة رسمياً حتى يطمأن بالها

اما سليم فوصل بالعربة الى بيت سلمى فاراد الاستئذان بالانصراف فدعوهُ الى العشاء معهم وقضاء بقية السهرة عندهم فنظر الى وجه سلمى فاذا هي تلتمس بقاءهُ ايضاً فاطاع اشارة عينيها مذعناً على انهُ كان يفضل الذهاب الى غرفتهِ والاختلاء بهواجسهِ والافتكار بما اتفق له ذلك اليوم

فنزل الجميع والخادمة سعيدة معهم ودخلوا المنزل وذهب كل منهم الى غرفتهِ ليغسلوا وجوههم من آثار الغبار الذي تراكم عليها في الطريق فنزع سليم رداءهُ (البالطو) فتناولتهُ سعيدة لتنظفهُ من الغبار ودخل سليم الغرفة ليغسل وجههُ فتناولت سعيدة الرداء وذهبت بهِ الى منفرد متظاهرة بالتفتيش عن الفرشة وجعلت تفتش في جيوبهِ فعثرت على ورقة عرفت من لونها وهيئتها انها هي التي كتبها داود بحضور سيدتها وردة وبعث بها الى سليم عن لسان والدتهِ فأخفتها في جيبها وعادت بالرداء الى سليم وكان قد غسل وجههُ فلبسهُ وجلس الجميع يتجاذبون اطراف الحديث ويتداولون بما مرَّ بهم ذلك اليوم شأن كل عائد من مثل ما كانوا فيهِ

فقضوا وقت العشاء وما بعدهُ في احاديث متنوّعة وقد آنست سلمى في سليم العود الى الملاطفة لانهُ كان يتظاهر بالسرور امامها خوفاً

عليها تاركاً تردُّده الى ما يأْتي بهِ القدر في المستقبل

الفصل الرابع عشر

﴿ شفاء المحبين ﴾

وفي آخر السهرة انصرف سليم مودّعاً سلمى وهي تقول له لا تطل الغيبة علينا يا سليم وخرج قاصداً منزلهُ وقضى مسافة طريقهِ مفكراً بما احدق بهِ من المصاعب وهو لا يدري كيف يتخلص منها واشد تلك المصاعب حديث داود فانهُ كان يردّدهُ في ذاكرتهِ ولما يصل الى ما قاله لهُ عن حبيب كان يشعر بنار اتقدت في جسمهِ ثم يتذكر رسائل والدتهِ وما كتبتهُ اليهِ عن كدرها منهُ لرغبتهِ في سلمى فيتصوّر مقدار ما يؤثرهُ ذلك في صحتها ثم يرجع بافكارهِ الى سابق حياتهِ فيرى ان والدته هذهِ قد فضلت البقاء ارملة عشرين سنة ولم ترضَ الزواج حباً بهِ وباخيهِ ورغبة في راحتهما وكم سهرت عليهِ وكم ضمتهُ الى صدرها وحنت اليهِ وكم كان يعدها بالمكافأة على تلك الاتعاب وكيف اصبحت بعد زواج اخيهِ عالقة القلب بهِ ولا رجاء لها الاَّ فيهِ ولا شيءَ يسليها عن ترملها واحزانها الاَّ الافتكار بمستقبل معيشتهِ وكيف انها كانت تعد الدقائق والساعات حتى تزوّجهُ وتفرح بهِ وتقيم في بيتهِ لانها كانت تؤثرهُ على شقيقهِ لذكائهِ ولطفهِ ثم ينظر الى ما هي فيهِ الآن وكيف انها وقعت في وهدة اليأس من اجراء مخالفتهِ لها حتى انها ربما تقضي اسًى وحزناً ويكون هو السبب في كل ذلك

فلما تصوَّر هذه النهاية تحركت عواطفهُ واشتد بهِ الحزن حتى بكى واخذ يناجي نفسهُ قائلاً ان جميع هذه المتاعب مصدرها من سلمى فتركها والتخلص منها ينقذني من جميع هذهِ الاحزان دفعة واحدة ولكن آه آه هذهِ سلمى كيف اتركها وكيف أتخلى عنها وقد ارتبطنا معاً برابطة المحبة وعلقت بها شديدًا وقد وعدتها وعدًا وثيقاً بالاقتران فماذا يكون من امرها اذا اخلفتُ الوعد بل كيف تفعل لو علمتْ ان هذا الامر قد خطر ببالي ... لا لا يا سليم لا ... لا اتركها ولا يجب ان اتركها لئلا اكون سبباً لشقائي وشقائها ... ولكنها تحب حبيباً آه من هذا الحبيب ولكن كيف يمكن ان تحبهُ أَلعلها تخون عهدي ... ثم صمت برهة وعاد فقال اما اذا تحققت انها تحبهُ فلا يتعب ضميري بتركها ومن يخبرني انها تحبهُ او لا تحبهُ ... ولكنني سمعت ذلك بأُذني من رجل غريب لا اعرفهُ ولا يعرفني وقد رأَيتها بعيني جالسة الى جانبهِ يضحكان وعلى وجهيهما آثار المحبة ولما رأياني داخلاً بغتا وخجلا أليس ذلك كافياً لاثبات ما سمعتهُ عنها اذًا هي خائنة ... واذا تركتها من يلومني ... سلمى خائنة لا لا سلمى لا تخون وكيف يمكن ان يكون ذلك الملاك خائناً انها ملاك طاهر نقي وقد عرفتُ ذلك باختباري انها اطهر البشر نعم انها اطهرّ بنات جنسها ولا تعرف الخيانة حاشا لها من ذلك ...

وفيما هو في هذه المواجس وصل باب النزل وصعد الى غرفتهِ فدخلها واضاء الشمعة واشعل السيكارة وقد ذهب الرقاد من جفنهِ وضاق صدرهُ فاراد الجلوس فاحسَّ كأَن تلك الغرفة سجن مظلم فانقبضت

نفسهُ ولم يستطع الجلوس فاخذ يخطر في ارض الغرفة وهو سابح في هواجسهِ يردد تلك القصة في ذهنهِ تارة يغضب وطوراً يغار وتارة يحزن وطوراً ينعطف فاخذت تتجاذبهُ جواذب الحب والغيرة والحزن والغيظ والحنق واليأس والحنوّ حتى ضاق ذرعاً عن احتمال ذلك ولم يعد يستطيع البقاء في الغرفة فخرج منها ونزل الى الشارع لترويح نفسهِ والاشتغال عن عواطفهِ فنادى مركبة ركب فيها وهو لا يدري الى اين يريد الذهاب فسارت العربة في شارع الفجالة وبعد ان مشت برهة سألهُ السائق عن الجهة التي يريدها فقال سر الى العباسية فجرت المركبة وهو غافل عن كل شيء حولهُ ولم يجذبهُ منظر الشارع المضيء بالغاز والاشجار تظللهُ وتحجب عنهُ ضوء القمر فانها كانت ليلة مقمرة

بل كان مشتغلاً بسلمى وحبيب ووالدتهِ عن كل شيء حولهُ ولم ينتبه حتى وقفت المركبة الى جانب المرصد فتحوّل سليم منها الى ذلك الفضاء الرملي الشاسع الاطراف يتخللهُ بناء المرصد من جهة وقشلاقات العباسية من جهة اخرى والسكوت مستولٍ على ذلك الفضاء ويغشاهُ ضوء القمر النقي والسماء نقية ليس فيها اثر للغيوم

والبدر في كبد السماء كدرهم   ملقى على ديباجة زرقاء

فمشى بين اشجار من السنط متفرقة بجوار المرصد واخذ يشغل عواطفهُ بالنظر اليها والى ما حولهُ من الفضاء الواسع والسائق ينظر اليهِ ويعجب لانفرادهِ هناك في ذلك الليل

ونظر سليم الى ساعتهِ فاذا هي في نصف الليل تماماً فجلس على حجر

في ظل شجرة حيث لا يراهُ السائق واخذ يتأمل في حالهِ ويفكر في ما احدق بهِ من الشواغل وما يتضارب فيهِ من العواطف فتخيل لهُ ان سلمى في تلك الساعة في فراشها راقدة وعيناها مغمضتان غارقة في النوم لا تدري شيئاً عن اضطرابهِ وترددهِ ثم اعترضهُ خيال والدتهِ حزيناً كئيباً باكياً فارتعدت فرائصهُ وتساقطت عبراتهُ واخذ في البكاء وهو يحاذر ان يسمعهُ احد لارتفاع صوت شهيقهِ ثم تخيل لهُ ان تلك الاشجار رقباء يسمعونهُ وينظرون فذُعر وتوقف عن البكاء ثم عاد اليهِ وفرائصهُ ترتعد وما زال بين بكاء وخوف حتى انهكهُ التعب فارتخت عزائمهُ وذبلت اجفانهُ فطاب لهُ الرقاد فاسند رأسهُ الى تلك الشجرة فنام وهو في ما تقدم من الاضطراب

فرأى في منامهِ كأن سلمى قادمة اليهِ بوجه يطفح نورًا عليها رداء ابيض ناصع يجر وراءها باسمة الثغر وعيناها السوداوان تنظران اليهِ ثم دنت منه وجثت امامهُ مثل الملاك قائلة والعبرات ملء عينيها «سامحك الله يا سليم انك والله قد اسأت فيَّ الظنون لاني بريئة من تلك التهم الدنيئة حاشا لله ان ادنس شرفي بمثل تلك الدنايا انا والله واقفة قلبي وسائر عواطفي في حبك انا طاهرة ومحبتي طاهرة اشفق على حسرتي وتأكد صدق طويتي ان هذا القلب لم يعرف سواك ثق بالله ودع عنك الظنون»

فاستيقظ بغتةً وقد ارتعدت فرائصهُ وهو يقول سلمى حبيبتي انت روحي وقلبي ولا عاش من ظنَّ بك سوءًا ثم التفت فاذا هو في قفر

لا شيء امامهُ الا الاشجار الشائكة والخلاء الواسع فندم على يقظتهِ وودَّ لو يعود النعاس الى جفنيهِ فيرى حبيبتهُ بذلك اللباس الملائكي ويتمتع بتلك الطلعة الباهرة ولكنهُ لم يستطع فعاد الى البكاء واخذ يناجي نفسهُ قائلاً

ان خيالكِ يا حبيبتي اصدق شاهد على ما تقولين وبياض ردائك دليل على نقاوة ذلك القلب الذي ما عرفت فيهِ الاَّ الطهارة والاخلاص قبح الله ذلك الواشي ذا الوجه القبيح فان وجههُ دليل على ما في قلبهِ انت طاهرة انت طاهرة لاعيب فيك . آه لوكنتِ تعودين اليَّ فأتزوَّد منك نظرة ثانية . . . اني ثابت في حبك ثبوت الجبال لاني لم أرَ منك الاَّ ثبوتاً . . . . وسكت

فعادت اليهِ صورة والدتهِ ورسائلها ولكنها لم يكن لهـا فيهِ تأثير كبير فغلبت عواطفهُ على عقلهِ حتى كاد يتناسى امر والدتهِ ونهض لساعتهِ الى العربة وقد اخذ منهُ برد الليل كل مأخذ فاحسَّ بتعب وخاف من المرض ولكنهُ ودَّ لو يقع في مرض فيشتغل بهِ عن تلك الهواجس فمشت بهِ المركبة عائدة الى القاهرة وهو يفكر في ما اشتهاهُ من المرض فتصوَّر انهُ أُصيب بمرض عضال حتى اشتدَّ عليهِ وقارب الوفاة فأجفل قائلاً في نفسهِ لا لا اريد الموت الآن لاني اكون سبباً لشقاء كثيرين نعم اني استريح ولكنني أُسبب الشقاء لأحب الناس اليَّ

ثم رجع اليهِ صوابهُ بغتة وفكر في امرهِ فاذا هو قد اصبح عبدًا لعواطفه ولم يترك لعقلهِ فرصة للعمل فقال مناجياً نفسهُ « كن حكيماً يا سليم وما هذا شأن الرجال خذ الامر بالصبر وتدبَّر الامور بالحكمة وتتبع الحوادث

بالدراية . نعم يجب ان اصبر نعم

وأصبر حتى يعلم الصبر انني ... صبرت على شيء امرّ من الصبرِ

لماذا لا تكاشف احد اصدقائك بأمرك ... ولكن مَن تكاشف من الاصدقاء ومصدر اتعابك من اعزّ اصدقائك آه يا حبيب ... ولكن من ادراني انهُ كما بلغني ذلك الشيطان اعوذ بالله من تلك الساعة ما كان اشأمها عليّ

وما زالت المركبة سائرة حتى وصلت النزل فنزل منها ووقف ليدفع للسائق اجرتهُ فادار السائق المصباح لجهة مقعد العربة ليضيء لسليم ليعد لهُ الدراهم فاستخرج سليم الدراهم من جيبهِ ودفع اليهِ شيئاً منها وعاد الى غرفتهِ ودخلها وقد اخذ التعب والبرد منهُ مأخذاً عظيماً فبدل ثيابهُ ونام

الفصل الخامس عشر

﴿ كتاب سلمى ﴾

ولم يفق في الصباح الاَّ على قرعٍ باب الغرفة فنهض وفتح الباب فاذا بخادم الفندق قد دفع اليهِ كتاباً ليس عليهِ ختم البوسطة قائلاً قد اتت حضرتك امرأة عجوز في هذا الصباح تحمل هذا الكتاب وقد اوصتني ان أُسلمهُ اليك ولم أشأْ ان ايقظك باكرًا ولما طال رقادك ايقظتك

فاخذ سليم الكتاب وحالما وقع نظرهُ على العنوان اختلج قلبهُ في صدرهِ لانهُ يشبه خط سلمى فدخل الغرفة وما تمالك ان فضهُ فاذا هو بخطها من الداخل ايضاً فنظر الى الامضاء فاذا هو امضاؤها بخط يدها

فازداد خفقان قلبهِ فجلس الى سريرهِ واخذ يقرأُ فاذا فيه

حبيبي ومنية فؤاذي سليم

اكتب اليك هذا الكتاب واظنهُ آخر ما اكتبهُ اليك او افوه بهِ لديك . اكتبهُ ويدي ترتجف وقلبي يخفق ودموعي تتساقط عليهِ اكتبهُ وانا في حال لم اشعر عمري بمثلها ولكنني استحلفك بالمحبة التي (انا اعتقد) انها محبة طاهرة خالصة من كل دنس ان تحفظ ما تقرأهُ سرًّا عن كل بشر ولكنني اتقدم اليك ان تعيرني أُذنًا صاغية وتعتبرهُ صادرًا عن قلب يتقد حبًّا واخلاصًا قلب لم يكن يعرف الخفقان قبل ان عرفك ولا عرف القلق او السهاد الأَمذ جعل نفسهُ مسكنًا لك

اكتب اليك هذا الكتابَ في منتصف الليل والناس راقدون مطمئنون وانا وحدي الساهرة التي لم يعرف النوم جفناها واظنك الآن في فراشك وقد كحل الكرى جفنيك

اشكر الله اني قد عرفت سبب متاعبك وانت لحبّك وحسن ظنك بي كنت تخفي عليَّ ذلك فاشكر الله تعالى اني عرفت الداء وصرت قادرة ان اصف الدواء وكما انك كنت تحمل كل ضيم من اجل راحتي فانا يجب ان احتمل مثل ذلك واشد منهُ ثقلاً من اجل راحتك

وقع في يدي كتاب وارد عليك من والدتك ساقته اليَّ التقادير لشقائي وراحتك وقد فهمت منهُ انك تقاسي امورًا عظامًا من اجل حبي وتكافح مكافحة الابطال من اجل عهودك معي فاكرم بك من محب صادق وصديق مخلص

امَّا التهم الموجهة اليَّ في ذلك الكتاب فلا اقول فيها الاَّ سامح الله كاتبيها . واما ما اردت كتابتهُ اليك فهو ان والدتك طيبة القلبِ وقد اخلصت الذمة في تربيتك وتركت الدنيا من اجلك وقد وضعت كل آمالها فيك واقلُّ ما تنتظرهُ منك اخلاص الطاعة لها وتعزيتها في شيخوختها وقد صاربت سنوها في هذهِ الدنيا معدودات فلا تعقَّها او تكدر خاطرها

وأَنا اعلم انك اذا اصررت على عزمك وخالفتها تكون سبباً لشقائها . ولا اجهل ان مصدر متاعبك العهود التي بيننا لاعتبارك اياها عهوداً مقدسة لا يسمح لك شرفك بنكثها . اكرم بهِ من شرف اثيل ولكن الضرورات تبيح المحظورات فبكل اسف اقول لك اني قد رأَيتَ من الواجب عليَّ حل تلك العهود بحيث تكون حرًّا مختارًا كأن لم يكن بيننا عهود ولا مواثيق

فنحن منذ الآن كما كنا قبل عشر سنين لا عهود بيننا ولا روابط

آه .... اقول ذلك بقلب يقطر دماً ويدين ترتجفان وعينين لا تريان ما اكتب اليك لما حال بينهما وبين هذا القرطاس من الدموع ووددت اني ما حييتُ حتى كتبتهُ

فاذا علمت ذلك بادر الى والدتك واجبر كسر قلبها فانها وا حرقي عليها منكسرة القلب لفراقك يئسة من بعادك وان كان لا بد لك من ارضاء احدانا فهي اولى بالرضاء واحق بالرثاء اذ يهون عليك ان تعود بتصوراتك الى ما كنت فيهِ منذ عشر سنين يوم لم يكن لسلمى صورة في ذهنك يوم كانت هي والعدم سيين . اما والدتك فلا تستطيع نسيانها

لانك اول يوم فتحت فيهِ عينيك كانتْ هي امامك ترنّتك وتقوم بخدمتك فاذا بكيْتَ توجعت لك واذا جعتَ أَطعمتك و ذا غابت عنك ساعة عادت اليك بلهفة الوالدة الحنون · وكفى بذلك موجباً لي ان احبها وأُؤثر راحتها أَليست هي التي حملتك في جوفها تسعة أَشهر

ولا بد لي قبل الختام من ان اودعك الوداع الاخير اذ ربما لم تعد عيني تراك اما القلب فانت ساكن فيهِ لا تبرح كيف لا وقد ملكتهُ وأَقمت فيهِ أَغراساً · وانقدم اليك ان تذكرني في ساعات الفراغ واعلم ان بين الاحياء اذا كنتُ حية وبين الاموات اذا كنتُ ميتة فتاة تحنُّ الى ذكراك وتصبو الى رؤياك تحبُّ محبيك وتبغض مبغضيك واذا بقي لها في قلبك صورة فاحفظها تذكارًا لما كان بيننا واصفح عن جسارتي ودم سعيداً سالمًا لقتيلة حبك

سلمى

وما جاء على آخر الكتاب حتى بلّلهُ بالدموع واشتد به الهيام حتى صار يشهق لفرط البكاء فاستلقى على السرير واطلق لنفسهِ عنان البكاء · وكان وهو يقرأُ قد عوّل ان يفتقد كتاب والدتهِ ولكن الحزن والهيام انسياه ذلك فاستلقى واوغل في النحيب حتى نشفت دموعه وجف ريقهُ في حلقهِ وكاد يختنق ثم احسَّ بقشعريرة فالتحف الغطاء وكان لا يزال منهوكاً لكثرة السهر بالامس وشدة الهيام وكثرة البكاء فاخذت بهِ سنة النوم فنام وقد سقط الكتاب من يدهِ على السرير

الفصل السادس عشر

حبيب ووالدته

فلنتركهُ راقداً لعلهُ يستريح من تلك الجواذب والدوافع ولنرجع الى حبيب وما تمَّ لهُ بعد وصولهِ مع والدته وشقيقته الى البيت

فان والدتهُ كانت اثناء سير القطار وحديث شفيقة واخيها عن ادما تتردد في افكارها خواطر من هذا القبيل على انها سرَّت لما رأت في حبيب ميلاً الى ادما ولما وصلوا البيت وغيروا ثيابهم واغتسلوا من الغبار كان الخادم قد اعد لهم طعام العشاء فتناولوهُ وسارت شفيقة الى فرشها عاجلاً كجاري عادتها لانها كانت خلية البال ساكنة العواطف لا همَّ لها الاَّ مساعدة والدتها في تدبير امر البيت والترتيب واللبس والطعام واذا انتهت من ذلك لا يبقى الاَّ الرقاد

فلما توجهت تلك الليلة الى فراشها خلت والدة حبيب بهِ واخذا يتجاذبان اطراف الحديث وكل منهما يفكر في ادما بغير علم الآخر

فقالت الوالدة وقد رأت حبيباً صامتاً كانهُ يفكر في امر ما بالي اراك منشغل البال يا حبيب العلك تشكو من شيء فانتبه حبيب وانتصب جالساً وقال لا يا اماه لا اشكو شيئاً بحسن دعاكِ ورضاكِ عليَّ اني والحمد لله بكل خير وعافية

قالت تسلم يا ولدي وعسى ان يبقيك لي الله سالماً وشقيقتك لكي افرح بك وازوّجك · قالت ذلك ونظرت اليهِ كأَنها تنتظر ما يبدو منهُ

وكانت كلما خاطبتهُ في امر الزواج قبل ذلك اليوم ينكر عليها امرهُ ويأخذ في اقناعها ان الزواج متعب وان البقاء بدون زواج افضل واكمل واسعد وكانت تستلهُ من ذلك وتتقدم اليهِ ان لا يقول هكذا لان الزواج امر لا بدَّ منهُ ان عاجلاً وان آجلا . وهو يقول ان لا مأرب لهُ فيهِ وهو مسرور بمعيشتهِ مع والدتهِ وشقيقتهِ

اما تلك الليلة فانهُ لم يجبها بل بقي صامتاً وتذكر الفرق بين حالهِ في الامس واليوم فقد كان خالياً لا همَّ لهُ الاَّ اتمام شغلهِ ومرضاة والدتهِ والاشتغال بالمطالعة والكتابة ساعات الفراغ والقلب خالٍ والعواطف هادئة والحياة هنية سهلة لا يكدرها اضطراب ولا يشوبها قلق ولا تعترضها غيرة او شوق والعقل حرٌّ يجول في المواضيع العلمية والفكاهية والابحاث الملذة فاصبح اليوم منشغلاً تتضارب فيهِ العواطف بين الحب والشوق والاهتمام . فلما خاطبتهُ والدتهُ ولم يجبها ظنتهُ في شاغل مزعج يريد اخفاءهُ عنها فعاودتهُ السؤَال قائلة كيف تقول انك غير منزعج واراك صامتاً لا تتكلم

فارتبك في امرهِ لا يدري بماذا يجيب وقد صعب عليهِ التصريح بما يخالج ضميرهُ من جهة الفتاة وهو يتردد بين الحياء والارتباك فغلب عليهِ الحياء فقال قلت اني في خير ولا شاغل لي ولكنني افكر في ما رأيناهُ اليوم في الاهرام من المناظر البديعة وما تمتعنا بهِ من الهواء النقي

قالت لا اظنك الاَّ تفكر في شيء آخر لان وجهك منقبض وفي نفسك شيءٌ تريد اخفاءهُ عني فاذا كنت في شيء من المتاعب لماذا لا تصرح بهِ لي واذا كنت تخفي ذلك عني فلمن تبيحهُ

فحاول الدفاع عن نفسهِ عبثاً حتى رأى والدته قد علا وجهها الانقباض والحزن وكادت تبكي فقال وهو بين الاحجام والاقدام اذا كان في نفسي شيءٌ ليس لي من ابوح بهِ لهُ الاَّ انتِ

قالت قل اذاً يا حبيبي وهمَّت اليهِ وضمتهُ الى صدرها وقبلتهُ وقد كادت تتساقط العبرات من عينيها

فقال لا حاجة بك الى الخوف يا أُماه فان الذي في نفسي لا يحزنك بل هو سبب كبير لفرحك

فاشرق وجهها وأبرقت اسرَّتها وازداد قلقها لاستطلاع افكارهِ وقالت بلهفة قل بالله قل يا حبيبي العلك لا تريد ان تفرحني

قال بلى اريد ذلك وانت تعلمين ان اوَّل شيءٍ اطلبهُ في هذه الدنيا انما هو فرحك

قالت قل اذاً قل استحلفك بتربة المرحوم والدك ان تصرح بما في قلبك

فقال وقد علا وجههُ الاحمرار ان في قلبي مثل ما في قلبك والذي اريدهُ هو الذي تأْمرينني باجرائهِ

قالت وما هو ذلك العلك عمدت ان تتزوَّج واطعتني في رأْيي

قال واكثر من ذلك ايضاً

قالت أَلعلك احببت ادما التي احببناها نحن

فأَبرقت عيناهُ وخفق قلبهُ عند ذكرها وقال نعم يا اماه اني احبها ولا سيما لما رأَيت انكما تحبانها

فابتهجت وغلب عليها السرورُ حتى ادمعت عيناها وهمّت الى ولدها تقبلهُ وقالت هذا هو مدار سعادتي يا ولدي وهذه هي الساعة التي قد قضيت عمري في انتظارها فاشكر الله على ما وفقهُ لنا ودبرهُ بحكمتهِ الازلية

فقال حبيب ولكن ألعل المسألة موقوفة على رضائنا نحن ومن ادرانا ان الفتاة توافقنا على ذلك

قالت انني واثقة برضاها لانها على ما يظهر لي تحب مباديك وتميل الى من كان مثلك ولا اظنها تطمع باحسن منك وهي ليست من الغناء على اكثر مما أنت فيهِ

فعاد حبيب الى تعقلهِ وفكر في امر مستقبلهِ وتذكر حالهُ من الدنيا فاذا هو مستخدم في الحكومة لا يأمن من الرفت فغلب عليهِ الخوف من الفشل فقال لوالدتهِ ولكن هبي اننا متفقان في الرأي فهل تظنين حالتنا تسمح لنا بالزواج ونحن في خدمة الحكومة والرفت آفتنا ونحن عرضة لهُ في كل يوم

قالت ان الرزق على الله يا ولدي وهذا تدبيره ليس علينا بل على الله وانت الآن لست في حاجة الى الاقتران وانما نكتفي بعقد الخطبة فقط وفي اثناء الخطبة يدبر الله بما يشاء

فلم يقتنع حبيب بكلام والدتهِ ولكن حبهُ لادما جعلهُ يقتنع ويسلم معها فقال صدقتِ يا اماه وبما اننا على وفاق من هذا الامر فاتمامهُ سهل ولكن امهليني برهة افكر فيهِ والتدبير على الله

فقالت صدقت افعل ما بدا لك ولنحفظ هذا الامر مكتوماً حتى يتم باذن الله . ثم ذهب كل منهما الى فراشهِ

اما حبيب فظلَّ هاجساً في ادما وخطبتهِ لها وما دار بينهُ وبين والدتهِ بشأنها . وكان على شدة رغبتهِ فيها وتعلق قلبهِ بها يشعر باحجام داخلي وتخوُّف من الاقدام على الخطبة وجعل يبحث عن طريقة ترفع منهُ هذا التخوُّف فاقرَّ ان يكاشف صديقهُ سليماً في الامر غدًا ويستشيرهُ

الفصل السابع عشر

﴿ كشف السرّ ﴾

وفي صباح الغد نهض حبيب من فراشه وبعد ان تناول شيئاً من الطعام كجاري العادة ركب القطار الى القاهرة وسار الى الديوان وهو عازم على مشورة سليم فلما كانت الساعة الثانية عشرة انتحل سبباً اعتذر بهِ لرئيسهِ للخروج من الديوان قبل الميعاد المعين وسار توًّا الى مكتب صديقهِ سليم فقيل لهُ انهُ لم يحضر اليوم الى هناك فانشغل بالهُ عليهِ فسار الى غرفتهِ فوصل الغرفة فاذا بالباب مفتوح ولا يسمع في الغرفة صوت فدخل ونظر فاذا بسليم على الفراش غارق في النوم فعجب لرقادهِ في تلك الساعة ولاحت منهُ التفاتة فاذا بورقة ملقاة على السرير مفتوحة ورأى فيها خطاً يشبهُ خط سلمى وكان يعرفهُ فازداد تعجبهُ واراد ايقاظ سليم فصبر حتى يرى ما في الورقة فنظر اليها وهو يعلم ان الاطلاع على كتب

الناس امر مذموم ولكنهُ كان مندفعاً الى ذلك بما علمهُ من امر سليم ووالدته وتردده ولعلمهِ انهُ اذا اطلع على سرّه ولو بغير علمهِ ربما استطاع منفعتهُ

ولكنهُ كان خائفاً من استيقاظ سليم وهو يقرأ الورقة فلم يمسكها بيدهِ بل نظر اليها وهو واقف بازاء السرير فوقعت عينهُ على الفقرة التي تقول فيها انها تحلّهُ من تلك العهود وانها تفعل ذلك لاراحتهِ وانقاذهِ من مخالب التردد وهو لم يستطع لاضطرابهِ ان يقرأ الورقة قراءة كاملة من اولها الى آخرها ولكنهُ فهم مضمونها وعجب كل العجب لشهامة تلك الفتاة

ثم خطر لهُ ان سليماً لا بد من ان يكون قد نام باكياً عن غير قصد منهُ وانهُ لا يريد ان يطلع احد على سرّ امره فتقهقر من الغرفة وخرج ولم يعلم بهِ احد لاشتغال اهل المنزل بمهامهم ولكنهُ خاف ان يدخل احد غيرهِ ويرى مثل ما رأى فاغلق الباب وراءهُ وانسلّ راجعاً من حيث اتى وهو يفكر في امر صديقهِ ومتاعبهِ وقد نسي ما جاء من اجلهِ ولم يعد يقدر على العود الى حلوان قبل ان يراهُ ثانية ويفهم منهُ شيئاً عن حالهِ

فذهب الى قهوة وجلس فيها برهة وهو على مثل الجمر ثم عاد الى غرفة صديقهِ وطرق الباب فناداهُ سليم بصوت ضعيف ان يدخل فدخل فاذا بهِ لا يزال راقدًا وقد اخفى الورقة وكلَّل العرق وجههُ وتوردت وجنتاهُ توردا مرضياً فحياهُ فردَّ التحية وهو في حالة الضعف والكآبة

وكان سليم لما شاهد حبيباً قد تهيجت عواطفهُ لتذكرهِ ما كان في شاغل عنهُ بالحمى التي اصابتهُ في ذلك اليوم وتهيجت اشجانهُ فدمعت عيناهُ ولكنهُ لم يستطع الاّ دعوة حبيب للجلوس فجلس وقد اثر فيهِ منظر صديقهِ كثيرًا حتى انفطر لهُ قلبهُ

فجلس الى سريرهِ ومدَّ يدهُ وامسك بها يد سليم فاذا هي تتقد سخونة فعلم انهُ مصاب بالحمى ولكنهُ تجاهل وقال مالي اراك في الفراش يا عزيزي هل تشكو من شيء

قال لا اشكو من شيء سوى الانحطاط والسخونة وكأني مصاب بالحمى

قال وما سبب هذه الحمى هل شعرت بها اليوم ام بالامس . قال بل اليوم وقد كنت بالامس مشعرًا بتعب وارقت قليلاً فاصبحت اليوم منزعجاً ولم استطع الخروج من الغرفة ثم اشتدَّ بي التعب وشعرت بالحمى فاخذت بي سنة الكرى وأفقت الآن كما ترى

وكان سليم يخاطبهُ ويفكر في سبب مجيئهِ اليهِ في تلك الساعة على غير المعتاد وتذكر كتاب سلمى وحكاية داود فحدثتهُ نفسهُ والنفس امَّارة بالسوء ان بين ارسال كتاب سلمى ومجيء حبيب علاقة لاتفاق الاثنين في اليوم ولما يخامر ذهنهُ من نتائج حكاية داود عنهُ ولاح لهُ ان العبارات التي قرأها في كتاب سلمى مع ما يتجلى فيها من الشهامة وعزة النفس لا تخلو من الاحتيال والمواربة لتستطلع منهُ افكارهُ وخطر لهُ انها قد بعثت حبيباً ليكتشف لها عن نتيجة ذلك الكتاب

غير ان هذهِ الخواطر كانت تمرُّ بمخيلتهِ ويعترضها سابق اعتقادهِ بسلمى

وحبيب ولكن الغيرة واليأس كانا يرجحان لديهِ تواطؤهما عليهِ على انهُ حاول جهدهُ في اخفاء تلك العواطف وبقي صامتاً يتعلل بانحراف صحتهِ وشعورهِ بالألم والانحطاط وحبيب ينظر اليهِ نظر المحب الصادق المخلص الذي يفتدي اصدقاءهُ بنفسهِ وقد حدثتهُ نفسهُ مراراً ان يستطلعه حقيقة حالهِ ولكنهُ كان يخاف ان يذكرهُ بامر يودُّ نسيانهُ لما هو فيهِ من المرض

فلبث الاثنان صامتين مدة لا يتكلمان وكلٌ منهما في هاجس ثم تكلم حبيب قائلاً كيف تشعر الآن يا عزيزي ألعل الضعف لا يزال كثيراً

فاجاب سليم بصوت مختنق لا اراهُ الا يتزايد وأحسُّ كأن ناراً تتقد في جسمي وصداعاً شديداً في رأسي

فقال هل ادعو لك الطبيب

قال لا ارى حاجة الى الطبيب الآن ولكن ربما أحتاج اليهِ بعد ئذٍ

قال وماذا تريد ان أقدم لك الآن هل ادعو لك الخادم يأتيك بشيءٍ من المرَق او الليموناده لتبلّ معدتك وتخفف بعض الحمَّى عنك

قال لا بأس من ذلك

فدعا حبيب الخادم وامرهُ فأحضر قدحاً كبيراً من الليموناده فتناولهُ حبيب ودفعهُ الى سليم وأسندهُ ليجلس فتناول سليم القدح وشرب منهُ جانباً ووضعهُ على الطاولة بأزاء السرير وعاد الى التوسد والعرَق قد بلل ثيابهُ فاستأذنهُ حبيب ان يغير ملابسهُ المبتلَّة ففعل وقد احسَّ ببعض الراحة . وكأن المرض كان حاجزاً بينهُ وبين هواجسهِ

فحالما احسَّ ببعض الراحة عادت اليهِ ارتباكاتهُ وكان كلما نظر الى حبيب يزداد ارتباكاً وغيرة لما يخطر لهُ من سبب مجيئهِ في تلك الساعة على غير المعتاد وكيف ان مجيئهُ لم يحدث الَّا يوم مجيء كتاب سلمى فلاح لهُ انهُ جاء بايعازها واخذ هذا الظن يتمكن فيهِ حتى قارب الاعتقاد فأحب ان يستطلع ذلك منهُ بالحيلة فقال لهُ ومن الغريب مجيئك اليَّ اليومْ على غير المعتاد وانا في هذهِ الحال فهل كان قلبك دليلاً لك على ذلك ام كيف .

قال لا وحبك اني لم يخطر لي شيءٌ من ذلك قط لاني فارقتك في الامس عند عودتنا من الاهرام وانت مسرور منبسط الوجه وكنت اظن انك تصبح اليوم كذلك ولم يكن مجيئي اليك الآن الا بطريق الاتفاق . واراد حبيب ان لا يذكر سبب مجيئهِ لئلاَّ يقودهُ الحديث الى التكلم عن ادما وغيرها وليس تلك الحال حال استشارة فقال لهُ اني اتيت اليك بالاتفاق

ولكن قولهُ هذا زاد سليماً تمسكاً بظنهِ اذ كيف يمكن ان يكون الاتفاق قادهُ الى تلك الغرفة في وقت لم يكن يخطر لاحد وجود سليم فيهِ في البيت فحمل قولهُ هذا محمل التحيل ولكنهُ تجاهل وكظم على ما في نفسهِ وصمت

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر احسَّ حبيب بالجوع لانهُ لم يتغدَّ بعد فاستأذن سليماً بالانصراف وخرج توًّا الى بعض المطاعم وتناول الغداء وهو يفكر في امر صديقهِ وخطيبتهِ وكيفية وصول كتاب والدة سليم اليها

واصبح قلقاً عليها هي ايضاً فنهض وسار الى منزل الخواجه سليمان فاستقبلوه كجاري عادتهم من الملاطفة والايناس ولكنهُ لم يرَ سلمى بينهم فسألهم عنها فقالت والدتها انها شعرت في هذا الصباح بضعف فبقيت في الفراش فلم يعد السؤال ولا اراد ذكر شيءٍ عن سليم لئلا ينشغل بالهم عليهِ وبعد ان قضى برهة عندهم ودعهم وخرج توًّا الى محطة باب اللوق وركب القطار الى حلوان وسار الى منزلهِ

فاستقبلتهُ والدتهُ وعلى وجههِ آثار الانقباض فانشغل بالها وخافت ان يكون لذلك سبب يتعلق بأدما فابتدرتهُ بالسؤال عن سبب انقباضهِ فاخبرها ان صديقهُ سليماً مريض

فقالت بلهفة وماذا اصابهُ يا ولدي

قال اصابتهُ الحمى وقد فارقتَهُ عند ما فارقتهُ

قالت وقد اضطرب بالها هل تركتهُ وحدهُ في غرفتهِ

قال نعم يا أُمَّاه وانا مشتغل البال عليهِ اذ ليس عندهُ من يقوم بخدمته

قالت كيف تركتهُ وحدهُ وهو غريب منفردَ في هذهِ الديار . مساكين الغرباء ويا حسرتاه على والدتهِ لو عرفَت بمرضهِ اما كانت تسرع اليهِ لتعولهُ وتخدمه

قال لا شك انها تفعل ذلك ولكنها في الاسكندريه ولا ارى لزوماً لاعلامها بذلك وانما يجب علينا قياماً بواجبات الصداقة ان ننظر في امرهِ ونعولهُ نحن بأنفسنا

قالت (معلوم) هذا امر واجب وانا ارى اذا عاودتهُ الحمّى في الغد

ان ندعوهُ ليقيم عندنا بضعة ايام ريثما ينقه

قال غدًا اذهب اليهِ وارى في ذلك

قالت انا اذهب معك لان قلبي قد انفطر عليهِ يا ولدي لانه بعيد عن والدتهِ ولكن هل عرفت به عائلة الخواجه سليمان

قال لا وكنت عازماً على اعلامهم بذلك وبالاتفاق وجدت سلمى مريضة ايضاً فلم اخبرهم خوفاً من انشغال بالهم وخصوصاً سلمى لانها مخطوبة له سرًّا كما تعلمين وهي تحبهُ محبة عظيمة فغدًا اذهب اليهِ وادبر الامر كما يتفق

قالت حسناً تفعل ولكن ماذا فعلت بشأن حكايتنا

قال لم افعل شيئاً واعترف لك اني كنت عدت ان إستشير سليماً في الامر لما بيننا من الصداقة ولانهُ قبل ان يخطب سلمى استشارني فمن اللياقة ان افعل مثل فعلهِ والتبصر اولى بنا

قالت بورك فيه ياولدي وبارك الله اعمالك

وقضوا بقية ذلك اليوم باحاديث متنوعة تخللها الاحاديث عن سليم وسلمى وادما

اما كيفية وصول كتاب والدة سليم الى سلمى ان الخادمة العجوز سعيدة كانت قد استخرجتهُ من جيبهِ كما تقدم وكانت قد ادركت في الايام القليلة التي عرفت فيها سلمى انها عزيزة النفس ابيَّتها لا ترضى بالذل ولا تحب التزلُّف وأيقنت أنها اذا اطَّلعت على ما كتبتهُ والدة سليم في حقها تنفر منهُ وأعدَّت نفسها لاتمام أمر الانفصال بدهائها ومكرها وكانت قد عرفت مضمون الكتاب قبل مجيئها من الاسكندرية لان سيدتها وردة

هي التي كانت تكتب الكتب الى سليمًا على لسان والدتهِ بواسطة داود وكانت سعيدة عالمة بكل حرف يكتب وكل حركة تحدث من هذا القبيل

وكانت قد اجتمعت بداود في القاهرة فأفهمها بما فعلهُ مع سليم فترجح لديها ان سليمًا قد نفر قلبهُ من سلمى وأقل نفور منهُ يكون كافيًا لحل العقد والانفصال وظنّت انَّ اطلاع سلمى على ذلك الكتاب اقل ما يؤثرهُ فيها اظهار بعض الفتور فيكفي مع تردُّد سليم ان يأول الى الانفصال فذهبت بالكتاب خفية والقتهُ في أرض غرفة سلمى فلما جاءت سلمى للرّقاد رأتهُ فتناولتهُ وقرأتهُ فعلمت ان سبب كدر حبيبها انما هو هذا الكتاب وأمثالهُ ولبثت في غرفتها منفردة مدة تتردَّد في امرها لا تدري ماذا تعمل فغلبت عليها الشهامة وعزَّة النفس ان تكتب اليهِ ما كتبتهُ كما قرأناهُ وبعثت بهِ مع خادمتها سعيدة وأوصتها ان تسلمهُ اياهُ يدًا بيد ولكنها لما دفعت الكتاب اليها شعرت بالندم على ذلك وخافت ان يؤول ذلك الكتاب الى الانفصال حقيقة فعضّت على ناجذها وحدثتها نفسها ان تمسك سعيدة عن ارسالهِ وهمّت بان تناديها فاذا بها قد توارت عن النظر فشق عليها الامر وازداد قلقها لانها كتبت ذلك الكتاب وهي في حالة التأثر الشديد وقد تغلبت فيها الشهامة ولكنها ما لبثت ان هدأ روعها حتى عادت اليها عواطفها واخذت تلوم نفسها على كتابة تلك العبارات وخصوصاً حلّ العقد الذي بينهما ولما تتصوَّر ان ذلك الكتاب آل الى الانفصال حقيقة يقشعرُّ جسمها وترتعد فرائصها ويبكتها ضميرها فاصبحت من جراء ذلك وكثرة السهر ضعيفة القوى فلازمت الفراش تسكيناً لما بها واخفاء

لهواجسها ولكن ذلك كان سبباً كافياً لقلق والديها لانهما كانا عالقي القلب بها لانها وحيدة لهما وكانا معجبين بذكائها ولطفها وما كانا ليجودا بها لسليم لولا ان شاهدا فيهِ من الشهامة وكرم النفس والاستعداد لمستقبل عظيم وما عايناه' من محبة سلمى له'

الفصل الثامن عشر

﴿ الذهاب الى حلوان ﴾

وفي الصباح التالي نزل حبيب من حلوان في القطار الاوّل ليرى سليماً قبل الذهاب الى الديوان فدخل الغرفة فاذا بهِ لا يزال في الفراش وقد ظهرت على وجهه' آثار الضعف والهزال فحيّاه' وجلس الى جانبهِ يسأله' عن صحتهِ فرأى في خطابهِ بعض النشوفة فحمله' على ما علم من اضطرابهِ وكدرهِ وثابر على التلطف معه' في الحديث فقال

ان والدتي تسلّم عليك كثيرًا وقد انشغل بالها عليك وكانت تودُّ المجيء معي في هذا الصباح لمشاهدتك ولكني وعدتها ان آتي بها بعد الظهر فكيف انت اليوم عسى ان تكون قد نمت نوما هنيئاً في الأمس

قال لم أنم الا يسيرًا وقد حلمت احلاماً مزعجة كثيرًا وفي نيتي ان اتناول مسهلاً اليوم وقد بعثت خادم النزل ليستجلبه' لي واوصيتهم ان يصطنعوا لي مرقاً

قال قد فعلت حسناً وها اني ذاهب الآن الى الديوان وسأعود اليك بعد الظهر لأرى ماذا يتم بك وعسى ان تنقضي المسألة بسهولة قال

ذلك وخرج مودّعاً بعد ان دفع الى سليم بعض الجرائد ليتسلى بقراءتها

فلما خلا سليم بنفسهِ اخذ يفكر في امرهِ وأمر سلمى وودَّ لو يعلم حالها بعد كتابة ذلك الكتاب وكأنَّ قلبهُ دلَّهُ انها مريضة مثلهُ وازداد بهِ الهيام وتذكر حالهُ وما هو فيهِ فاخذ في البكاء وهو يحاذر ان يراهُ او يسمعهُ احد ثم سمع قرع الباب فعلم ان الخادم قادم بالمسهل فمسح عينيهِ وأذن لهُ فدخل والدواء بيدهِ فتناوله وشربهُ ومكث بين بكاء وافتكار

اما حبيب فعاد في الساعة الاولى بعد الظهر اليهِ ودخل عليهِ وجسَّ نبضهُ فاذا هو متسارع والحرارة آخذة بالارتفاع فعلم ان الحمى تعاودهُ ولا يلبث ان تشتد عليهِ وطأتها كالامس فقلق عليهِ ولكنهُ تجاهل وسألهُ عن حالهِ فقال كنت في الصباح احسن مني الآن

فاخذ يغالطهُ ناسباً ذلك الى تأثير المسهل ثم قال ان والدتي الحت عليَّ ان اذهب بك الى حلوان نقضي عندنا بضعة ايام ريثما تسترجع صحتك لان هواء حلوان جيد نقي نشيط والناس يذهبون اليها لتغيير الهواء بغير مرض وبالنسبة لانفرادك هنا ارى ان توافقني في الذهاب

فتمنع سليم وكبر عليهِ الامر لما يكنُّهُ من الحقد على حبيب وقال معتذراً لا حاجة بي الى مفارقة الفراش الآن ولا اظن هناك ما يوجب الانتقال

قال ولكن الأنسب ان تذهب معي

قال لا وشدد في الامتناع حتى فرغت حيلة حبيب فيهِ فظن ان دعوتهُ لا تقرن بالقبول الاَّ اذا جاءت والدتهُ معه

فودعهُ وخرج وسار توًّا الى حلوان واخبر والدتهُ بالامر وقال ارى

ان تذهبي معي بعد تناول الغداء فلعله يصغي الى دعوتك فوافقته فتغديا ثم ركبا القطار الى القاهرة

فلما دخلا على سليم وجداه في حالة الحمى الشديدة يئنّ ويتوجع فحالما رأته والدة حبيب تناثرت الدموع من عينيها حنوًّا ولا سيما لما رأته منفردًا في تلك الغرفة فتقدمت اليه وقبلته وسلمت عليهِ

اما هو فحالما رآها تذكر والدته وحنوّها فهاجت فيهِ عواطفه واخذ في البكاء

فازداد حنوّ المرأة واوغلت في البكاء ولكنها تجلدت واخذت تخفف عنه فصاح آه يا اماه آه اين انتِ

فازدادت هي بكاء حتى انفطر قلبها وقالت سلامتك يا حبيبي اني وحياتك مثل والدتك حنوًّا ويعلم الله انك بمعزة ولدي حبيب

فتذكر سليم حاله مع والدتهِ يوم كان في حجرها لا شاغل له الا هي ولم يكن يعرف الحب ولا جرى له مثل ما جرى فهاجت اشجانه واخذ في البكاء وتمنى لو تعود اليهِ الايام الماضية وينسى ما قاساه بسبب الحب ولكنه كان يفكر في ذلك ويبكي وهو يود كتمان كل شيء

اما حبيب فلما شاهد ذلك من صديقهِ لم يتمالك عن البكاء لتذكره اتعاب صديقه مع والدتهِ بسبب سلمى فحول وجهه عن السرير لئلاَّ يلحظ سليم بكاءه فتزداد اشجانه

فقضوا برهة في مثل ذلك ثم لبث الجميع صامتين لا يتكلمون وبعد يسير تقدمت المرأة الى سليم وقبلته قائلة برضاء والدتك يا حبيبي

ان تذهب معي الى حلوان

فلما سمع منها ذلك كاد يبيح بما في ضميره لشدة تأثره من تلك العبارة لعلمه ان والدته غير راضية عنه ولكنه تجلد واكتفى بالبكاء على سؤالها

فاخذت تخفف عنه وتطيب قلبه وهو لا يزداد الا بكاء

فقالت له كفى ياحبيبي كفى بكاء فان ذلك مضر بصحتك وانت عليل

فقال وقد طفحت عواطفه وثارت اشجانه اني مستوجب لاكثر من ذلك يا اماه اني مستوجب لاكثر من ذلك هكذا يكون جزاء العقوق ناكر الجميل

فتعجبت والدة حبيب لهذا الكلام ولم تفهم مراده وارادت الاستفهام منه عن مقصوده فاشار اليها حبيب انه انما يتكلم في غيبوبة لشدة الحمى وما كلامه هذا الا من قبيل هذيان المحمومين قال ذلك خوفاً على انفصاح امر صديقه وهو يعلم انه حريص على كتمانه

ثم قال لوالدته دعيه الآن ريثما يهدأ روعه وها اني ذاهب لآتيه بالطبيب

قال ذلك وخرج توًّا الى اقرب طبيب وتواطأ معه ان يصف له الذهاب الى حلوان لتبديل الهواء

فلما حضر الطبيب جس نبضه وساله بعض الاسئلة وسبر حرارته فقال انه مصاب بحمى شديدة الآن ولا يمكنه مفارقة الفراش ولكنه قال لسليم يجب عليك يا عزيزي بعد زوال هذا الدور عنك ان تسير الى حلوان لتغيير الهواء وقد يكون تغيير الهواء وحده كافياً لزوال الحمى

عنك بغير دواء ولكني اصف لك مع ذلك وصفة تتناولها هناك فانها تساعدك في سرعة الشفاء

فسأله سليم اذا كان يمكنه الاستغناء عن المسير الى حلوان

فقال كلاّ

فاذعن وهو يئن من شدة وطأة الحمى وقال في نفسه لا تكرهوا شيئاً لعله خير لكم فربما اقدر بوجودي عندهم اذا بقيت حياً ان استطلع شيئاً يرفع عني اثقال هذا التردد واتحقق الامر بنفسي

وبقي حبيب ووالدته عنده الى الغروب. فانفثأت عنه الحمى وسكن روعه وصفا لون وجهه فهمّا اليه والحّا عليه ان يرافقهما الى حلوان

ولما لم يرَ بدًّا من ذلك نهض من الفراش رغماً عنه ولبس ثيابه بمساعدة حبيب وكانوا قد اعدُّوا مركبة مقفلة خوفاً من برد الليل ونزل الجميع وركبوا توًّا الى المحطة ومنها في القطار الحديدي الى حلوان فانزلوه في غرفة اعدوها له وبات تلك الليلة مرتاحاً

وفي الصباح التالي شعر انه احسن حالاً

اما حبيب فانه بات تلك الليلة يفكر في امر صديقه ويبحث عن طريقة ينقذه بها من تلك الحال وقد اعتبر ذلك فرضاً واجباً عليه بمراعاة لحقوق الصداقة وبعد التفكر برهةً عنَّ له ان غداً يوم الجمعة وليس له شغل في الديوان فيسير الى الاسكندرية ويجتمع بوالدة سليم ويكاشفها بامر ولدها ويحنّن قلبها عليه بسبب مرضه ويبين لها انها اذا لم تنثن عن عزمها تفقد ولدها . وتأكد لديه انه اذا فعل ذلك ينجح لعلمه بمحبة والدته

له ُ وانها لم تكن لتعترضهُ في امر الزواج من تلقاء نفسها ولا بد من ذوي غرض يحملونها على ذلك وبذهابهِ الى الاسكندرية وقضاء بعض النهار معها يتمكن من معرفة خفايا المسألة واقناع الوالدة فاذا فاز بالامر يكون قد خدم صديقهُ خدمة تستحق الاعتبار

ولكنهُ رأى الافضل قبل ذهابهِ ان يطلع والدتهُ سرًّا على قصدهِ لئلاَّ ينشغل بالها على ذهابهِ فبكر اليها وقص عليها الحكاية واطلعها على سرّ المسألة واوصاها ان تكتم ذلك عن سليم كل الكتمان

فوافقتهُ على ذلك فذهب الى سليم في غرفتهِ وسألهُ عن حالهِ في ذلك الصباح فشكر الله على تحسن صحتهِ فسرَّ الجميع ومكث عندهُ برهة وخرج ولم يخبرهُ عن ذهابهِ وودع والدتهُ وسار الى القاهرة باكرًا حتى يدرك قطار الاكسبرس الذي يسافر من القاهرة الساعة التاسعة صباحاً

فخطرت ادما في بالهِ وهو ذاهب الى المحطة واحبَّ المرور بمنزلها ولكنهُ قال في نفسهِ ربما اذا مررت ان اتأخر عن السفر فانا الآن في مهمة لصديقي ومتى فزت بها يصفو لي الجوّ واتمتع برؤية ادما فسار توًّا الى المحطة وركب القطار وطار ولم يأخذ معهُ من معدات السفر شيئاً لانهُ كان عازماً على ان يعود الى القاهرة بقطار الصعيد الذي يبارح الاسكندرية في الساعة الحادية عشرة فيصل القاهرة صباح السبت ويذهب توًّا الى شغله في الديوان

الفصل التاسع عشر

﴿ زيادة الخرق اتساعاً ﴾

اما سليم فاصبح منشرح الصدر كما قدمنا ولعله ان ذلك اليوم يوم الجمعة كان ينتظر ان حبيباً لا يفارق سريره فمضت الساعة والساعتان بعد مشاهدته اياه صباحاً ولم يره فسأل والدته عنه فقالت انه نزل القاهرة لبعض المهام فظنه يعود نحو الظهر ولكنه اخذ يفكر في سبب ذهابه فخطر له ما سمعه عنه وعن سلمى فثارت فيه الغيرة وحدثته نفسه ان حبيباً انما جاء به الى حلوان ليخلو له الجو بسلمى ولبث ينتظر عودته وهو على مثل الجمر وظهرت على وجهه امارات الارتباك فادركت منه والدة حبيب ذلك فجاءت الى جانبه ودعت ابنتها شفيقة وجلستا اليه تخاطبانه وتحادثانه في شؤون مختلفة لينصرف عما هو فيه

اما هو فحالما رأى شفيقة تذكر سلمى فلم يزدد الا اشجاناً ولم يزدد وجهه الا انقباضاً فحارت تلك الوالدة في امرها ولم تعد تعرف كيف تسليه فظنت ان القراءة ربما تصرف افكاره لعلمها بما يخالج ضميره من التردد في امر سلمى ووالدته

فقالت لشفيقة أليس عندنا قصص او روايات من التي يقرأها اخوك

قالت ان اخي يضع اوراقه وكتبه كلها في الخزانة ويقفل عليها والمفاتيح لا تفارق جيبه لانه شديد الحرص على الكتب والاوراق

فقالت فتشي لعله يكون قد ترك كتاباً منها خارج الخزانة فذهبت

وبعد برهة عادت وهي تقول لم اجد كتباً ولكنني عثرت على المفاتيح وكأنهُ نسيها في جيب البالتو الذي كان عليهِ في الامس فتهللت الوالدة فرحاً وقالت لسليم ألا تحبّ مطالعة القصص يا ولدي فانتبه سليم وكان غارقاً في بحار التأمل وقال لا بأس من المطالعة فانها تسلي الحزين وتلهي الموجوع عن اوجاعهِ قال ذلك وهو يريد اخفاء ما بهِ .

فهرولت شفيقة الى الخزانة وعادت وفي يدها رواية افرنجية قائلة لا بد من ان تكون هذه القصة جميلة لاني رأيتها في يد شقيقي منذ اسبوع يطالع فيها وقد قضى معظم الليل ساهرًا في قراءتها فلو لم تكن جميلة ما شغلتهُ كل الليل

فتناول سليم الكتاب واخذ يقلب فيهِ متظاهرًا بالقراءة فخرجت الوالدة وابنتها من غرفتهِ اذ لم يعد ثم حاجة الى وجودهما

اما هو فاخذ يقلب في اوراق الكتاب وافكارهُ مشتغلة في حبيب وسبب غيابهِ عن البيت في ذلك اليوم وكلما افتكر بمجيئهِ الى حلوان وذهاب حبيب وغيابهِ الى قرب الظهر يتصوَّرهُ جالساً الى حبيبتهِ سلمى كما رآها المرة الاخيرة في غرفة الاستقبال وكما افهمهُ داود فتشبُّ نار الغيرة في جسمهِ ويكاد يتقد غيظاً وقد ندم على مجيئهِ الى هناك

وفيما هو يقلب صفحات ذلك الكتاب وقعت عينهُ على ورقة مطوية ففتحها فاذا هي بخط يشبه خط سلمى فقرأها فاذا فيها اشعار وعبارات عشق وهيام وكانت الورقة التي جاءت حبيباً من ادما وكان بين خطيهما تشابهٌ لانهما تعلمتا الخط في مدرسة واحدة . وهو لشدة تهيجهِ

وسوء ظنهِ بحبيب تخيل لهُ ان الخطِ خط سلمى عينها

فلما قرأ ما بها من احساسات المحبة تحقق لديهِ ما سمعهُ من داود واخذ قلبهُ بالخفقان وجعل ينتفض وهو على السرير كمن اصيب بزمهرير وبردت اطرافهُ ووقع في حيرة ثم علا وجههُ الاحمرار وانقدت فيهِ حاسة الغيرة والحنق ولم يعد يتمالك عن السب والقذف رغماً عنهُ حتى انهُ وثب من السرير الى الارض واخذ يخطر في ارض الغرفة وهو يعيد نظرهُ على تلك الورقة ويناجي نفسهُ قائلاً

آه يا خاينة يا محتالة أإلى هذا الحد اوصلتك وقاحتك كيف استطعتِ ان تطلي عليَّ حبك كل هذه المدة تظهرين لديَّ بمظهر الملائكة وانتِ شيطان رجيم .... آه من دهائك ومكرك آه آه واخذ يرفس الارض برجلهِ ثم سمع وقع اقدام خارج الغرفة فخاف ان يأتي احد ويراهُ في تلك الحالة فهمَّ الى الباب واغلقهُ وعاد الى الورقة ونظر اليها وتأملها وكان كلما نظر اليها تهب فيهِ نار الحنق ثم قال

آه يا سلمى أهذهِ هي المحبة الطاهرة التي استخففتني بها تبًّا لك يا خاينة ... لم يعد لديَّ شك بخيانتك وطالما سمعت عنك وطالما كذبت ما سمعتهُ وكتمت ذلك في قلبي حتى كاد يقتلني حرصاً على شرفك واجلالاً لك عن مثل تلك التهم لاني لم اكن اتصوَّر صدور ذلك منك اما الآن وقد تحققت لديَّ خيانتك فقد نبذتك نبذ النواة وصدت شاكرًا الاتفاق الذي قاد ذلك الرجل اليَّ حتى قص عليَّ قصتك.....

آه يا خاينة

ثم بهت بغتة كأن شيئاً اعترض سير افكارهِ فصمت برهة ينظر الى تلك الورقة ثم قال لا شك انك كتبتِ اليهِ هذه الورقة من اوَّل حبك لهُ وانتِ التي دفعتهِ الى محبتك أإلى ذلك قادتك وقاحتك

وانت يا حبيب أهذه غاية الصداقة كيف انطلت عليَّ صداقتك كل هذه السنين وانت تتظاهر لديَّ بالاخلاص آه ما اصنعك بالصداقة ولكن اللوم عليك اقل كثيراً مما هو على تلك التي ملكتها قلبي ووهبتها روحي وقاومت والدتي المسكينة من اجلها . . . .

آه يا والدتي آه اصفحي عن عقوق ابنك هذا وجهله . ويل لمن لا يطيع والديهِ اني مستوجب لاكثر من هذا الشقاء ولكن هذه الورقة قد رفعت عني ثقلاً كبيراً لاني تحققت الامر بنفسي وعرفت الصديق من العدو

فالآن ماذا افعل أأخرج من هذا البيت واقصد والدتي واستغفرها واقبل رجليها قبل يديها لاني عرفت صدق نصيحتها . . . آه آه آه من الحب فانهُ يعمي البصيرة

ثم أحسَّ بتعب من وقوفهِ فصعد الى السرير واستلقى وقد غلب عليهِ البكاء فبكى حتى جفَّت دموعهُ وعقب هذا البكاء تعب شديد فسكت واخذ يفكر في ما اتفق لهُ ذلك اليوم ويحرق اسنانهُ غيظاً ثم يتذكر ذهاب حبيب وتأخرهُ وقد دقت ساعة البيت ١٢ دقة وآن وقت الغداء ولم يحضر فتصوَّر انهُ باقٍ في بيت سلمى يتمتع بحديثها ويقضي ذلك النهار عندها

وفيما هو في ذلك سمع طارقاً يطرق الباب واذا بوالدة حبيب داخلة وفي يدها قصعة من مرق اللحم فحالما رآها اختلج قلبهُ فقدمت لهُ الصحن فلم يتحرَّك لتناولهِ فخاطبتهُ بكلام ارقّ من الزلال قائلة ألا تريد قليلاً من المرق يا ولدي

قال وقد تحير كيف يجيب لا لا حاجة لي بالمرق

فعجبت لجوابهِ على هذهِ الصورة وقالت ما بالك يا عزيزي العلك مشعر بالحمى

قال نعم

قالت ولكن ذلك لا يمنعك من تناول بعض المرق لانهُ يردُّ القوى

فقال لها نافراً واين الخواجه حبيب

قالت لم يعد يا ولدي

قال والى اين ذهب واليوم يوم الجمعة لا شغل عندهُ

قالت لا ادري يا عزيزي ولعلهُ ذهب في مهمة فامسكهُ بعض اصدقائه ليتغدى معهم

فازداد قلقهُ وتصوَّر انهُ دعي للبقاء في بيت سلمى يغازلها ويحادثها ولما تصوَّر ذلك هبّت النيران في جسدهِ

كل ذلك ووالدة حبيب واقفة وصحن المرق في يدها ثم قدمتهُ اليهِ فهمَّ ان يتناولهُ ويدهُ ترتجف من التأثر فانسكب جانب منهُ على المنشفة التي كانت قد وضعتها لهُ على السرير فخافت ان يخجل من ذلك فبادرتهُ قائلة لا بأس يا ولدي وهمّت الى المنشفة فابدلتها ودفعت اليهِ

الملعقة وتركتهُ وخرجت لتأْتي اليهِ بشيءٍ آخر

فحاول الطعام فاذا بهِ لا يستطيعهُ فجعل القصعة على طاولة بجانب السرير واستلقى متظاهرًا بالتعب والحاجة الى الرقاد وكان بالحقيقة اذ ذاك اردأ حالاً من الامس ولكن تهيجهُ وغضبهُ انسياهُ كل تعب حتى احسَّ انهُ يستطيع الوثوب من علوّ شاهق الى مسافة اذرع

فعادت اليهِ تلك المرأة يبعض اللحم المشوي فاذا هو نائم مغمض العين ولم يأكل شيئًا من المرق فتناولت القصعة وعادت ظانّةً انهُ يفضل الرقاد واغلقت الباب وراءها

اما هو فعاد الى هواجسهِ يردّد ما قرأَهُ في تلك الورقة وما سمعهُ عن حبيب وسلمى وكان اكثر تأثيرًا عليهِ من الجميع خيانة سلمى فانهُ كان اذا تصوَّر كلامها واحاديثها عن مقدار حبها لهُ وتكريس نفسها لاجلهِ تعترض افكارهُ الغيرة عليها من حبيب فتهب فيهِ نيران الغضب ويهمُّ كأَنهُ يريد قتلها

ومما زادهُ تأكدًا لما سمعهُ وقرأَهُ غياب حبيب ذلك اليوم وقد جاءَت الساعة الثالثة بعد الظهر ولم يعد حتى اصبح ذلك البيت غشاوة سوداء على عينيهِ وكم تمنّى لو انهُ لم يأْتِ اليهِ وحسب انها مكيدة من حبيب وقعت عليهِ وغلب عليه الندم لمخالفة والدتهِ وجعل ضميرهُ يبكتهُ على مخالفتها ولما كان يتصوَّر انها تكدرت بسبب ذلك كان تهيج فيهِ عواطف الحنوّ والاسف فيبكي . وجملة القول انهُ قضى بقية ذلك اليوم في مثل هذهِ المواجس وكان خائفاً من عود الحمى عليهِ شديدة بسبب ما تحملهُ من الانفعالات ولكنهُ لم يشعر بها

الفصل العشرون

﴿ حبيب في الاسكندرية ﴾

فلنتركهُ وشأنهُ ريثما تهدأُ عواطفهُ ولنعد الى حبيب فقد تركناهُ سائرًا في الاكسبرس في صباح ذلك اليوم الى الاسكندرية وكان عالماً بمنزل والدة سليم لانهُ اقام في الاسكندرية في الصيف الماضي وكان يتردد اليهم ولهُ مع فؤَاد شقيق سليم صداقة ومحبة وكان يسر من حديثهِ لما فيهِ من السذاجة وعلامة النية

فلما وصل بهِ القطار الى الاسكندرية الساعة الحادية بعد الظهر ركب عربة وطلب شارع المسلة فوقفت بهِ العربة بقرب بيت فؤَاد فتحوَّل منها وطرق الباب فاستقبلتهُ سيدة متوسطة العمر عليها ثياب البذخ والغنى معتدلة الجسم مع ميل الى السمن وفي وجهها ظواهر التصنع والبهرجة من ابيض واحمر

فلما وقع نظرهُ عليها ظنَّ نفسهُ قد اخطأَ البيت فخاطبها قائلة اليس هنا بيت الخواجه فؤَاد قالت نعم ولكنهُ ليس هنا وقرأَ على وجهها بعض الارتباك فخاف ان يكون قد اخشن لها بالكلام فتكدرت منهُ

فتلطف بالسؤَال ثانية قائلاً وهل السيدة والدتهُ غائبة ايضاً قالت كلاَّ يا سيدي بل هي هنا تفضل فدخل ونادت الست ام فؤَاد فجاءت وهي في لباس بسيط الزي ووجه تلوح عليهِ ملامح السذاجة والاخلاص يكدرهُ بعض الانقباض فحالما وقع نظرها على حبيب ترقرقت الدموع في عينيها

وهمت اليهِ فقبلتهُ وضمتهُ الى صدرها قائلة اهلاً وسهلاً بعزيزي حبيب اهلاً وسهلاً . فقبل يدها ودخلت بهِ الى غرفة الاستقبال وهي لا تمالك عن البكاء لتذكرها ولدها سليمًا لانهُ كان رفيقاً لحبيب في صغرهِ وكانا يأتيان البيت غالباً سوية

فادرك حبيب سبب بكائها ولكنهُ تجاهل قائلاً كيف حالك يا سيدتي وكيف الخواجه فؤاد والاولاد

قالت كلهم بخير وكيف فارقت سليماً ولماذا لم تأت بهِ معك

قال جئت على حين غفلة ولم اره قبل مجيئي وهو في خير يطلب رضاك

فتنهدت تنهدًا عميقاً ولم تجب

اما تلك المرأة السمينة فانها تكدرت من مجيء ذلك الشاب اذ كانت في شغل مع ام فؤاد فبعد ان دخلت الى قاعة الاستقبال وجلست هنيهة نهضت تريد الخروج وطلبت قبعتها فقالت لها ام فؤاد تفضلي يا ست وردة لم يؤن وقت الانصراف بعد

قالت لابد لي من الذهاب يا عزيزتي واما ذلك الامر فانا اتممهُ اليوم بالنيابة عنك

فقالت حسن يا عزيزتي كثر الله خيرك

وخرجت لوداعها ثم عادت الى حبيب وجلست اليهِ وقد رأت علامات السفر على وجههِ فقالت العلك قادم الآن من القاهرة

قال نعم اني قادم في هذهِ الساعة من المحطة

قالت وما سبب مجيئك . خيرًا ان شاء الله

قال ليس الاَّ الخير يا سيدتي

قالت وكيف فارقت سليماً

قال قلت لكِ انهُ في خير بحمد الله ودعاك ورضاك

قالت ولكن ... وسكتت كأنها تريد ان تقول شيئاً ويمنعها الحذر

فقال حبيب ولكن ماذا

قالت آه من سليم ألعلهُ احكى لك الحكاية

قال وقد اراد التجاهل وأيَّة حكاية

قالت حكاية تلك الفتاة التي علقوهُ بها سامحهم الله وتناثرت الدموع من عينيها

قال وأيَّة فتاة

قالت كتب اليَّ منذ بضعة اشهر انه يريد خطبة فتاة من اهل القاهرة وانهُ أَحبها وطلب اليَّ ان احضر لكي يتم العقد عليها بوجودي فسأَلت بعض صديقاتي هنا عنها وخصوصاً السيدة التي كانت هنا الآن وقد رأيتها وهي من اهل الغنى والاصل وتحبني محبة اكيدة وتحب سليماً محبتها لي فاخبرتني ان الغلام مغشوش وان الفتاة لا تليق به وقد احكت لي عنها حكايات كثيرة تقشعرُّ منها الابدان · ولا يخفى عليك ان ولدي اعز شيء لدي في هذهِ الدنيا · قالت ذلك وخنقتها العبرات ... لعن الله الساعة التي سافر بها الى القاهرة ولماذا نحن الوالدات نكرهُ الغربة لاولادنا أليس خوفاً من مثل هذه الوقعات · فكتبت اليهِ الحكاية ونصحت لهُ ان يترك ذلك البيت ولا يعود الى هذا الامر

فاجابني مدافعاً عنها وقد ظهر ميلهُ الشديد لها فأَجبتهُ واوصيتهُ بتركها وبينت لهُ بعض الوجوه . كل ذلك وهو متمسك برأْيهِ وتراني حائرة في امري وقد حرم الكرى جفني واسقمني التعب والسهر ولولا هذهِ السيدة التي رأَيتها لكنت قضيت نحبي ولكنها تحبني كثيرًا وهي لا تفارقني ليلاً ولا نهارًا ولا تنفك عن تعزيتي بارك الله فيها

الفصل الحادي والعشرون

﴿ ام فؤَاد ﴾

وكان حبيب عند ما شاهد الست وردة عند الباب قد قرأ على وجهها الخبث والخلاعة فلاح لهُ ان كل الشقاء والبلاء منها ولكنهُ لم يكن يعرفها قبل ذلك الحين فاحب تأْكد ظنهِ فقال

ولكن من اين تعرفين هذهِ السيدة العلها جارتكِ

قالت كانت جارتي قبلاً وهي الآن تسكن في محرم بك ولكنها لا تفارقني وتراني مستأْنسة بها كثيرًا

قال ما اسمها

قالت الست وردة

قال امرأَة من

قالت زوجها مات منذ عدة سنين وليس لها الاَّ فتاة لطيفة بارعة في الجمال واللطف آه من النصيب فلو كان ولدي من اصحاب السعادة ما اخذ سواها لانها فضلاً عن جمالها وتهذيبها غنية جدًّا وكل اموال

والدتها ارث لها ولا يخفى عليك يا عزيزي ان سليماً يا ولداه لم يرث مالاً من والده وهو كامل الاوصاف ولا ينقصه الا المال فلو تزوجها لعاش سعيداً وتخلص من تعب الشغل والاهتمام بالمعاش

فاستنتج حبيب ما كان يظنه ولكنه اراد تحقق ظنهِ فقال ولكن هل تتأكدين ان الفتاة تقبل بهِ

قالت اني متأكدة ذلك من فم والدتها اذ ليس عندها اعز من سليم وقد طلب الفتاة عدة اشخاص اغنياء ولم ترض بهم لانها هي ايضاً تحبه وقد سبق مني الوعد لوالدتها ان سليماً لا يأخذ سواها

قال هل قلتِ لها ذلك بدون ان تسأليه

قالت نعم لاني لم اكن اظنُّ انهُ يمتنع ولا ان يحيط بهِ اولاد الحرام ويخطفوه مني ..... ياولداه

فتحقق حبيب ظنه وعلم ان البلية لكبرى من تلك الارملة الداهية فقال ولكن لنفرض ان سليماً اصرَّ على عزمهِ فماذا تفعلين

قالت لا اعلم ولكنني ربما اموت حسرة عليهِ وقد اقسمت ان لا احضر عرسه اذا اصرَّ على عزمهِ لاني لم اعد استطيع رفع رأسي بين الناس ولا مواجهة هذهِ السيدة التي ربطت معها القول بابنتها وقد رفضتْ خطَّاباً كثيرين من اجل خاطري وخاطر سليم

فقال ولكن الا تعلمين ان الحب سلطان واكثر نفوذهِ على الشبان والشاب اذا أَحب فتاة باطلاً يتعب المعنفون والناصحون وقد قيل

اذا تألفت القلوب على الهوى فالناس تضرب في حديد بارد

قالت ولكن اين يترك كرامتي وشيخوختي وقد تركت الدنيا من اجلهِ وربيته بدموع عيني وانت تعلم ذلك

قال نعم اعلم ذلك وهو لا اظنه ينكره ولكنك تقولين انه يصعب عليك الرجوع عن قولك وقد وعدتِ والدة الفتاة فكيف يمكنه هو الرجوع عن قوله ولا بد انه وعد الفتاة التي احبها انه يتزوجها والشبان اشد تأثرًا في ذلك من السيدات فكيف يمكنه الرجوع عن قولهِ

قالت ولكن يا ولدي هو مغشوش وليس لديهِ من ينصحه

قال وهل تتأكدين انك غير مغشوشة بكلام هذهِ الامرأة

قالت لا يمكن ان أكون مغشوشة وقد جاورت هذه الامرأة عدة سنين

قال جل من لا يغلط ياست ام فؤاد ولكن كيف تأكدت ان ولدك مغشوش

قالت لاني سمعت من الناس وهذه السيدة تعرف ذلك البيت وقد احكت لي عنها حكايات كثيرة

فتبسم حبيب مستهزءًا وقال ولكن شهادتها مجنوحة يا سيدتي لان لها مصلحة تروم قضاءها وهي تزويج ابنتها

فاجابت وقد استغربت ذلك منهُ وقالت كلاَّ لا مصلحة لها يا ولدي لان ابنتها ليست كاسدة لغناها وجمالها وقد اتاها طلاب كثيرون ولم تقبلهم مرضاةً لي

قال وهل علمت هي ان سليماً يريد غير ابنتها

قالت نعم وهي التي كانت تهديني الى الطرق لانقاذه مما وقع فيه

حتى انها لمحبتها لي كانت تكلف بعض الناس بأن يكتبوا المكاتيب بهذا الشأن لاني لا اعرف الكتابة ولولاها ما عرفت ماذا اعمل

فضحك حبيب وقرب كرسيهُ نحوها قائلاً من هنا تفهمين انها خالية الذمة والشرف لانها بعد ان علمت بعدم اتفاق النصيب لابنتها لهُ وانهُ يريد غيرها ما زالت تسعى لاستجلابهِ ولو كانت من اهل الذمة والشرف لفعلتْ كما فعلت تلك الفتاة الطاهرة النقية الشريفة

قالت وماذا فعلت

قال انظري يا سيدتي اني اتيت من القاهرة لاخاطبك في امر يعود بخيرك وخير ولدك فاذا اصغيت لي ذكرتهُ لك وانا لا مصلحة لي في الامر سوى خير صديقي واخي سليم وحفظ كرامتك

قالت تفضل قل

قال ان ما سمعتهِ عن تلك الفتاة محض افتراء وكذب لانها من اطهر البنات عنصرًا واحسنهن خلقاً ولم يحبها سليم الا لاجل خيرهِ وسعادتهِ وسعادتك انت ولا يخفى عليك ان سليماً ليس من الشبان الجهلاء الذين لا يميزون خيرهم من شرهم بل هو شاب عاقل مدرب يفهم الامور كما يفهمها اعقل الناس وانا اعلم جيدًا ان الفتاة لو لم تكن مناسبة لهُ وتستحق محبة ما احبها ولا تصدقي بما قيل لك عنها او عن اهلها

وقد علمتُ عنها شيئاً سريًا لم يطلع عليهِ احد الا انا وسليماً اقوله لك لكي تحققي حسن طوية الفتاة وشهامتها فاصغت اليهِ لتسمع ما يقول

فقال ان سليماً لم يطلع خطيبتهُ هذهِ على شيء مما دار بينك

وبينهُ من المكاتبات بشأنها قط ولكن احد كتبك اليهِ وقع في يدها بطريق الاتفاق فكتبت اليهِ كتاباً لو قرأتهِ لقلت ان هذه الفتاة معدن الشهامة وعزة النفس ·

قالت وما ذا كتبت اليهِ

قال كتبت اليهِ تقول انها مع ما في قلبها من الحب لهُ اذا كان وجودها معهُ يكدر والدتهُ فانها تحل عقد الخطوبة لان مرضاة الوالدة اولى من مرضاتها · وانا لم أطلع على ذلك الكتاب الاَّ بطريق الاتفاق وسليم لا يعلم اني اطلعت عليهِ لانهُ شديد الحرص على كتمان هذا الامر

فتعجبت ام فواد لهذه الشهامة وتذكرت كيف ان صديقتها وردة بعيدة عن ذلك لما رأت من تزلفها الذي كان يزداد بازدياد الخوف من خروج سليم من يدها ولكنها كادت تشك بكلام حبيب فقالت أحقيقي ما تقول يا حبيب

قال أؤكد لك يا سيدتي ومتى اجتمعنا ووافقتني على رأيي اطلعك على ذلك الكتاب

قالت ولكن قد يمكن ان تكون قد كتبتهُ على سبيل الحيلة لتحبب سليماً اليها فانك يا ولدي لا تعرف مكر النساء

قال اعجب منك يا سيدتي كيف تقولين اني اجهل ذلك واراك لستِ اعرف مني به وقد انطلت عليك حيلة هذه المرأة التي يظهر الدهاء على وجهها ولماذا لا تعتبرين اعمالها هذه من قبيل الدهاء والمكر وكيف انك تنسبين الدهاء الى فتاة انقى من الزلال عنصراً وانت لا تعرفينها

الا بواسطة هذه المرأة وانا أؤكد لك انها قد قالت ما قالت لك عنها وهي لا تعرفها

قالت هي تعرفها جيدًا واقول لك اني لما يئست من نفاد الحيلة مع سليم بالمكاتبة قد قر رأينا ان تستدعيهُ الى هنا ونخاطبهُ في الامر شفاهاً وقد مضت هي الآن لتكتب اليهِ بهذا الشأن عن لساني

قال ولكن لا اظنهُ يحضر

قالت ولماذا

قال بسببك انت يا سيدتي

قالت وكيف ذلك العلهُ لا يريد ان يراني

قال ليس من اجل ذلك لانهُ يحبك حباً اكيدًا ولولا ذلك ما اهتم في اقناعك واطال الاخذ والرد بشأن الفتاة ولم يرد ان يعقد عليها رسمياً قبل ان تكوني راضية

قالت فاذًا لماذا

قال لانهُ لا يستطيع المجيء

قالت هل هو مشغول ام لا يقدر ان يفارق خطيبتهُ

قال ليس مشغولاً وخطيبتهُ قلت لك انها كتبت اليهِ انها تحل الخطبة وهو لا يذهب اليها

قالت ماذا اذن

قال لانهُ طريح الفراش يا سيدتي

فوثبت من المقعد وصاحت ويلاهُ هل ولدي سليم مريض بسببي

وكيف يكون ذلك بسببي

قال بسبب كتاباتك اليهِ لانها كتابات حادة تجرح الحاسيات فوقع في ارتباك لانهُ لا يريد ان يغضبك ولا ان يتخلى عن تلك الفتاة التي احبها وعقد معها عهداً ان لا يقترن بسواها

قالت يا حسرتاه وياولداه هل هو مريض الآن واخذت في البكاء وجعلت تلطم وجهها قائلة واين هو مقيم ومن يعولهُ ومن يخدمهُ يا ولدي يا سليم كيف تكون مريضاً ولا اكون انا الى جانبك.

قال لا ينشغل بالك عليهِ انهُ عندنا في البيت في حلوان ووالدتي وشقيقتي في خدمتهِ لان والدتي تحبهُ مثل محبتها لي فلا تقلقي

قالت هل اشتد عليهِ المرض وما هو مرضهُ

قال اصيب ببعض ادوار من الحمى منذ يومين وقد فارقتهُ اليوم احسن حالاً وجئت لاخاطبك في الامر وافهمك حقيقة الحال حتى لا تعتبي عليَّ فانا اقول لك اذا اصررت على مقاومتهِ فانك تكونين سبباً لاشتداد المرض عليهِ . وكلمة واحدة تدل على رضائك عنهُ كافية لتخفيف مرضهِ

فاخذت تفرك يديها وتقول يا ولداه يا سليم سلامتك يا حبيبي لا بأس عليك هلمَّ بنا يا عزيزي لنذهب الى مصر لاني لا استطيع البقاء هنا لحظة كيف ابقى هنا وولدي مريض في حلوان هيا بنا . فقال قد عولت على ان اعود في قطار الصعيد الساعة ١١ فاستعدي للسفر معي

قالت طيب ولكن لا بد لي من اعلام الست وردة بذلك

قال ما لنا ولها ألعلها اكثر شفقة على ولدك منك ولو سلمتُ معك

باخلاصها ومحبتها ومع ذلك فافعلي ما بدا لك · وقد عوّل ان لا يضغط على احساساتها عازماً على اقناعها بما يريد بعد الوصول الى حلوان ومشاهدة ولدها مريضاً فانها عند ذلك تستخف بكل شيءٍ في سبيل مرضاتهِ

ثم سألها عن الخواجه فؤاد وقرينتهِ قالت قد ذهبا في دعوة للغداء في بعض الاماكن

فقال اذًا سنراهما قبل سفرنا وها اني ذاهب لبعض المهام في المدينة واعود مساءً ونذهب معاً

قالت حسناً فودعها وخرج يتجوّل في بعض انحاء المدينة لترويح النفس

اما ام فؤاد فانها سارت الى الست وردة في بيتها وكانت وردة قد فارقتها على ان تكتب الى سليم ليحضر للاسكندرية وهي التي أغرتها على ذلك ظناً منها انهُ متى جاء يكون استجلابهُ أسهل اكراماً لوالدتهِ مع ما اعدَّتهُ لهُ من الدهاء والحيلة · فمضت من ساعتها وكتبت الكتاب الى سليم وكتاباً آخر الى داود وقد استطالت غيبتهُ في القاهرة ولم تعلم ما فعلهُ بالمهمة التي سار من اجلها وكان لم يكتب اليها منذ يومين

فلما حضرت الست ام فؤاد اليها كانت قد بعثت الكتابين الى البوسطة فاخبرتها بمرض ولدها وانها مضطرة للذهاب الى هناك لاجل اعالتهِ

فاظهرت الاسف الكثير ولكن اسفها كان لخوفها من خفوق مسعاها بذهاب تلك الوالدة وقالت لها بالله لا تذكري ذلك امام اميلي لانها لو عرفت بمرضهِ ربما تموت حزناً

قالت لا تقولي لها

اما ما كان من امر سلمى فاننا تركناها في غرفتها مريضة من شدة التأثر وكانت تنتظر في اثناء ذلك النهار علماً اوخبراً عن حبيبها بعد تلاوة هذا الكتاب ولكن مضى معظم النهار ولم تعلم عنهُ شيئاً فانشغل بالها وربما ندمت على كتابة ذلك الكتاب اليهِ واحست انها عجلت في كتابتهِ وهي في حال التهيج الشديد وكان يجب ان تتأنى اذ ربما يترتب عليهِ ما لا تريدهُ وقضت عصر ذلك اليوم تتقاذفها الهواجس وكانت كلما افتكرت بالكتاب يخفق قلبها

اما والداها فلم يفارقا سريرها الا اذا جاءهما ضيف او زائر فيخرج احدهما او كلاهما لمقابلتهِ وكانت سعيدة العجوز اكثر الجميع اظهاراً للحزن لا تبرح عند رجلي سرير سيدتها تنتظر امرها في خدمة او اشارة

وكانت سلمى كلما سمعت طرقاً على الباب تظن القادم سليماً قادماً كجاري عادتهِ ثم تتذكر كتابها اليهِ فيخفق قلبها وتحرق اسنانها ندماً على كتابتهِ لانهُ منعها من مشاهدتهِ وقالت في نفسها كان يجب ان آخذ الامر بالتأني ولا اجلب لنفسي هذا البلاء وكانت تريد البكاء فلا تستطيعهُ او تمنع نفسها خوفاً من انكشاف امرها لدى والديها وهذان كانا ينتظران قدوم سليم في عصر ذلك اليوم كجاري العادة ولما جاء الغروب ولم يحضر انشغل بالهما عليهِ

ثم جاء المساء ولم يحضر فازداد انشغال بالهما ولم يذكرا ذلك امام سلمى خوفاً عليها

الفصل الثاني والعشرون

﴿ادما﴾

اما ادما فقد تركناها على مقالي الجمر بعد عودها من الاهرام لانها كانت تنتظر مجيء اليوم التالي بفروغ صبر لعلمها ان حبيباً لابد من مجيئهِ اليها ليتكاشفا ما في القلوب من لواعج الحب

فباتت تلك الليلة ولم تنم الا يسيراً وقضت الصباح التالي الى بعد الظهر تعلل نفسها بمجيئهِ عصر ذلك اليوم بعد خروجهِ من الديوان

وكان في منزلها ساعة كبيرة معلقة في فسحة الدار فكانت تنظر اليها كل لحظة تنتظر الوقت الذي ظنته يأتي فيهِ ووالدتها في غفلة عن ذلك اما هي فلم ترفع نظرها من الساعة حتى حدثتها نفسها لفرط قلقها وملها من الانتظار ان تدير العقرب بيدها وتقرب وقت الميعاد. كل ذلك وافكارها سابحة فيما دار بينها وبينه بالامس بجوار ابي الهول وتعد نفسها بمخاطبتهِ متى حضر وجعلت تستعد على بعض العبارات لتقولها له تعبر بها عن احساساتها

فلما كانت الساعة الثانية بعد الظهر اخذ قلبها بالخفقان وجعلت تطل من الشبابيك والشرفات الى الشارع لعلها تراه قادماً ولما تمل من الوقوف على الشرفة (البلكون) تعود الى غرفتها لا يستقر لها قرار فاذا سمعت صوت عربة تنهض مسرعة الى الشرفة فلا ترى حبيبها فتقف منذهلة مبهوتة واعينها شائعة الى الشارع على مسافة بعيدة فاذا رأت شبحاً ظنته حبيباً

فاذا اقترب من البيت يخيب ظنها فتعود الى غرفتها وتنظر الى المرآة لترى اذا كانت اهلاً لاستقباله وتعلل نفسها بالتفتيش بين الكتب والاوراق وهي مع ذلك تحاذر ان تدرك والدتها ذلك منها

ثم تعود الى الشباك فتطل منهُ مسندة يدها اليهِ تنظر الى الشارع ثم تعود الى الشرفة ثم تعود الى الاوضة ثم تنظر الى الساعة فتراها تمشي الهوينا ولم يكن لديها اطول من ذلك اليوم قط لانها بينما كانت تظن ان الساعة قد دارت دورة تنظر اليها فاذا هي لم تدر ربع دورة

وفي نحو الساعة الرابعة فيما هي مطلة من النافذه شاهدت شبحاً كثير الشبه بحبيب فخفق قلبها وارتعشت ركبتاها و بردت اطرافها وامعنت نظرها فيهِ وقد ابرقت اسرتها حتى كادت تطير اليهِ شوقاً ولما اقترب قليلاً رأتهُ ينظر الى بيتها فاحبت ان تقف لتقابلهُ من اعلى الشرفة فاذا بهِ قد انعطف في العطفة المؤدية الى بيت الخواجه سليمان فاحست كأن قلبها سقط من مكانهِ وعلا وجهها انقباض رغماً عنها وهاجت فيها هواجسها وهي لا تصدق انهُ يمر بقرب البيت ولا يدخلهُ او يسأل عنها فاخذت ترجم بالغيب تتقاذفها الظنون ولكنها لم تستطع صبرًا على ذلك فارادت ان تتحقق اذا كان هو حبيباً وهل دخل بيت الخواجه سليمان فدخلت بيت الجيران وفيهِ نافذة تطل على باب بيت الخواجه سليمان وجعلت تنظر من خلال (الاباجور) ولا يراها احد فاذا بهِ قد دخل ذلك الباب فلم تتمالك عن الارتجاف والارتعاش غيرة عليهِ وصارت تحسب لذلك الف حساب ثم قالت في نفسها لعلهُ يريد المرور بنا عند

عوده من هناك فلبثت تنتظر عوده وهي مطلة على الشارع من النافذة فاذا به عائد بعد ساعة ولكنهُ لم يعرج نحوها وانما نظر وراءه الى البيت وحوّل وجههُ وعاد الى المدينة وهي لكبر نفسها وخجلها لم تظهر لديهِ على الشرفة او تشير اليهِ ليحضر ولكنها لبثت تنظر اليهِ وهو ماشٍ حتى تواري عن نظرها فاحست كأنهُ قطعة من قلبها وقد فصلت بسكين وازداد اضطرابها وامتقع لونها ووالدتها في غفلة عن ذلك لخلو ذهنها من الامر

فعادت ادما الى غرفتها وجعلت تفكر وقد خالج قلبها الف ظن ولكن حسن الظن غلب عليها فقالت في نفسها لعلهُ ذهب في شغل لاني رأيتهُ مسرعاً وسيعود الى هنا

وما زالت في مثل ذلك حتى غربت الشمس ولم يأت احد فاشتغل بالها وخاب ظنها ولما اخذ الظلام بالانسدال شعرت كأن لوحاً من الحديد قد أثقل صدرها واظلمت الدنيا في عينيها وضاق خلقها وانقبض وجهها وصغرت نفسها وتحول سرورها الى كدر وحارت في تعليل ما رأته ذلك اليوم حتى ظنت في حبيب الفتور في محبتها وانهُ انما اظهر لها ذلك بالامس استطلاعاً لخفايا قلبها وانهُ لم يعقد النية على حبها وطوراً تحسب تأخرهُ لشاغل منعهُ عن المجيء . وكانت كلما تصورت فتورهُ تندم على كتابة ذلك الكتاب اليهِ وترى انها فعلت فعلاً يتنزه عنهُ امثالها لما فيهِ من الخفة ولا سيما اذا كان أملها في غير محله وشعرت كان حواسها كلها منبهة تتأثر لاقل عامل وقلبها لا ينفك عن الخفقان لاقل حركة او

صوت ولا سيما اذا كان صوت صعود على السلم او صوت قرع الباب او صوت عربة على الشارع وكلما دقت الساعة زادت دقات قلبها

وعند العشاء سمعت صوت صاعد على السلم فاختلج قلبها وهمت الى الباب لتفتحه ولكنها علمت قبل فتحه ان القادم والدها على انها كذبت نفسها وفتحت الباب واطلت من (الدرابزون) فاذا به والدها فعادت خائبة تحاول اخفاء عواطفها رغماً عنها وقد كانت ممن يستطيعون التسلط على عواطفهم ولكن عواطفها كادت تعصاها في ذلك اليوم لما كان يظهر على وجهها من ملامح الانقباض واليأس رغماً عنها

فلما دخل والدها حيته كالمعتاد وأخذت تحادثه احاديث متنوعة اخفاء لما يهيج في جوارحها وبعد ان ارتاح نوعاً مدت المائدة فجلسوا للطعام وادما لم تستطع طعاماً ولكنها تظاهرت انها تأكل

وبعد العشاء عللت نفسها وغلب عليها الأمل بأنهُ يأتيها ساهرًا فعادت الى الانتظار وكلما سمعت حركة يخفق قلبها حتى مضي وقت السهر ولم يأتِ احد فذهب كلٌّ الى فراشهِ أما هي فلم يكحل الكرى جفنيها وقضت كل ذلك الليل ساهرة في سريرها تستأنس بصورة حبيبها كما رأتها المرّة الاخيرة عند أبي الهول يخاطبها وكانت تشغل نفسها بعدّ دقات الساعه الكبيرة لاستيلاء السكوت التام على البيت وما جاوره لايسمع فيهِ الاّ صوت الخفراء على الشوارع ينادون من وقت الى آخر (وحِّد)

فمضى معظم الليل وهي في تلك الهواجس يتخللها احساس بالندم ولا سيما عند ما يخطر لها ان عدم مجيئه ناتج عن عدم اكتراث بمحبتها وقالت في

نفسها لو كان يحبني مثل حبي له ما استطاع الرقاد بدون ان يأتي لمشاهدتي ثم يخطر لها انه قدم الى بيت الخواجه سليمان فتثير في قلبها الغيرة من سلمى حتى صارت تشعر نحوها ببغض داخلي مع ما كان لها من المحبة في قلبها

ثم يخطر لها ان سلمى مخطوبة لسليم وهي تحبه كثيرًا وهو يحبها فتضعف غيرتها ولكنها لما تفتكر ان حبيباً وصل الى قرب باب بيتها ودخل ذلك البيت ولم يدخل هذا تغلب الغيرة عليها وكانت اذا فكرت في ذلك يستولى عليها اليأس فتأخذ في البكاء لخيبة املها وافتضاح امرها

ثم يخطر لها خاطر يستوقفها بغتة وتتذكر امارات وجهه والاساليب التي كان يخاطبها بها عند ابي الهول فتعود اليها امالها وتقول في نفسها لابل قلبه مثل قلبي واذا لم يكن مثل قلبي تماماً فهو يحبني والظاهر ان محبة جنسنا اشد من محبة جنس الرجال فما يؤثر فينا قد لا يؤثر فيهم بنفس الكيفية على نسبة واحدة

وخلاصة القول انها قضت ذلك الليل تتقاذفها عوامل اليأس والرجاء والشك واليقين والامل والخيبة والثبات والندم والغيرة والحنق الى قرب الفجر فغلب عليها النعاس فنامت

ونهضت في الضحى فغسلت وجهها وهي على يقين انه يأتي اليها في ذلك اليوم وان لم يكن في الصباح فبعد الظهر . ولا حاجة بنا الى اعادة وصف حالها من القلق والملل وكم نظرت الى الساعة وكم اطلت من الشباك والشرفة الى الشارع وكم تأثرت لصوت الصاعدين على السلم

وصوت المركبات وكم ضاقت اخلاقها حتى كانت والدتها لا تستطيع الاستفهام منها عن شيء لئلا تكدرها او تسمع منها نفورًا وكانت والدتها تنسب ذلك لاسباب مختلفة ولكنها لم يخطر في بالها السبب الحقيقي لخلو ذهنها منهُ ولما تعلمهُ من تعقل ادما ورزانتها وعزة نفسها وبعدها عن المداخلة في ما يأول الى الحب وما شاكل .

ولما كانت الساعة الثانية جعلت تنظر مجيئهُ فمضت الساعة والساعاتان ولم يحضر فملت الانتظار واخذت تشغل عواطفها بالتطريز او القراءة حتى لم تعد تستطيع الجلوس فخطر لها ان تذهب الى سلمى لعلها تستطلع شيئاً عنهُ هناك

فلبست ثيابها واستأذنت والدتها وخرجت وهي تنتظر ان تقابلهُ قادماً فلما وصلت الى العطفة المؤدية الى بيت سلمى خفق قلبها لتذكرها مرورهُ هناك بالامس ووقفت برهة تتردد في الدخول خوفاً من ان يكون آتياً اليها فيذهب الى بيتها ولا يراها . واخيرًا قادتها قدمها الى بيت سلمى فدخلت بعد ان قرعت الباب فاستقبلتها الوالدة وعلى وجهها اثر الانقباض ولم يكن الخواجه سليمان في البيت فسألت عن سلمى فقالت لها انها في الفراش مريضة

فاستأذنتها بالدخول عليها ودخلت فلما رأتها سلمى تذكرت سبب مرضها وما قادها اليهِ الحب وكيف ان ادما خلية لم يعلق قلبها باحد فحسدتها على حالها ولم تتمالك عن البكاء رغماً عنها

فعجبت ادما لذلك وهمّت اليها وحيتها وسألتها عما بها فاخذت تتعلل

لها اسباباً مختلفة لتموّه عليها. ولكن عواطفها كانت قد طفحت وهي تتألم من كتمان امرها وتود ان تكاشف بهِ احداً لتفرج كربتها وكانت تحب ادما حباً كثيرًا وتانس اليها وتلتذ بحديثها وحدثتها نفسها انها اذا ارادت المكاشفة ليس ثم من تكاشفه الا هذه الصديقة لاعتقادها باخلاصها ولكن ذلك الخاطر لم يكد يخطر لها حتى اعترضهُ ميل المحبين الى كتمان امرهم وغلب عليها الحياء فسكتت

وادركت ادما ارتباكها فابتدرتها بالسؤال قائلة مالي اراك يا عزيزتي في ارتباك فاخذت تعتذر لها وتنسب ذلك الى انحراف صحتها ولكنها لم تتمالك ان قالت « هنيئاً لك يا ادما »

فوقعت تلك العبارة في قلب ادما موقع السهم لتذكرها حالها وغلبت عليها اساءة الظن فظنتها عالمة بامرها مع حبيب وانها تحسدها عليهِ ولم تستطع مكاشفتها في ذلك ولكنها قالت لها « على أيّ شيء تطوبينني يا عزيزتي »

فارادت التصريح لها بانها تطوبها لخلو ذهنها من الحب فغلب عليها الحياء فقالت اريد « انك صحيحة وانا عليلة » ولكن ادما ادركت انها تقول ذلك تسترًا وراء ماخافت اظهارهُ فازداد قلقها ظناً منها انها عالمة بما بينها وبين حبيب وانها تطوبها من اجل حبهِ لها غير ان ذلك الظن كان ضعيفاً جدًّا لما يغشاهُ من علمها بسابق ارتباط سليم بها وما بينهما من المحبة

فلبثت الاثنتان صامتتين برهة وسلمى تفكر في سليم وتود ان تعلم

عما هو به بعد اطلاعه على كتابها اما ادما فكانت كأنها على جمر الغضى خوفاً من ان يأتي حبيب الى بيتها في ذلك الحين فنهضت مودعة وعادت الى البيتِ وهي تظن انها ستجد حبيباً هناك ولكن خاب ظنها لانها لم تجد احدًا سوى والدتها فاظلمت الدنيا في عينيها وقضت بقية ذلك اليوم كما قضت الامس و باتت في ارتباك وقد اخذ اليأس منها مأخذًا عظيماً

ولما اصبح الصباح نهضت وقد بهت لونها من كثرة الارتباك والسهر فرأت والدتها فيها ذلك فسألتها عما بها فقالت لا اعلم سوى اني اشعر بانقباض لغير سبب اعلمهُ فقالت لها هلم بنا نخرج للنزهة في هذا الصباح فانهُ صباح جميل والحت عليها فوافقتها فخرجا نحو الساعة التاسعة تتمشيان في الشارع نحو الهمهشة فمرًّا بجانب محطة السكة الحديدية وادما غارقة في بحار الهواجس فبعد ان تجاوزتا المحطة لاحت من ادما التفاتة الى ورائها فاذا بحبيب يسرع نحو المحطة فخفق قلبها وكانت تنتظر ان يلتفت نحوها فلم يلتفت ثم رأتهُ قد تحوّل نحو المحطة ودخلها فاضطربت. ولا سيما لعلمها ان الساعة وقت مسير قطار الاكسبرس فترجح لديها انهُ مسافر فيهِ اذا لم يكن قد ذهب لوداع احد فاخذت تحاول والدتها لتبقى هناك ريثما يسافر القطار لترى اذا كان يعود فسافر القطار ولم يعد احد فتحققت انهُ سافر فازداد بلبالها ولم تعد تعلم كيف تعلل ذلك فسارت مع والدتها وعادت بعد النزهة وهي في هاجس عظيم تتردد بين اليأس والغيرة فدخلت غرفتها وأخذت في البكاء خفية عن والدتها

الفصل الثالث والعشرون

كتاب سليم

اما سليم فقد تركناه في حال الغضب ببيت حبيب ينتظر مجيء صديقهِ ولما كان العصر ولم يحضر لم يعد يستطيع البقاء وحدثته نفسهُ ان يخرج من البيت للنزهة فنهض والحمى لا تزال عليهِ ولكنهُ كان في شاغل عنها باضطرابهِ وغيظهِ فلما رأتهُ والدة حبيب يلبس ثيابهُ سألتهُ عن غرضهِ قال اريد النزهة في حديقة حلوان ترويحاً للنفس فشعرت ان حبيباً قد اخطأ بذهابهِ بغير علمهِ وعلمت ان ذلك يسوء سليماً ولكنها لما تذكرت انهُ انما ذهب لمصلحة يقضيها له قالت بنفسها متى عاد يعلم سبب غيابه فيعذره

فخرج سليم بنفسهِ وقد جعل تلك الورقة في جيبهِ حتى اتى الحديقة فسمع صوت قدوم القطار من القاهرة فسار نحو المحطة فاذا بالقطار قد وقف ونزل الركب منهُ وكان يظن انهُ يلاقي حبيباً فيهِ وهو لا يريد ان يلاقيه لشدة تهيج عواطفه لانهُ لم يكن يعلم كيف يخاطبهُ لو رآه فحدثتهُ نفسهُ ان يركب في ذلك القطار ويعود الى القاهرة هرباً من البقاء هناك حتى لا يشاهد حبيباً لعلمهِ إنهُ متى شاهده يزداد اضطرابهُ وربما سبب لهُ ذلك زيادة المرض فنزل في القطار وعاد الى القاهرة وسار توًّا الى غرفتهِ وقد انهكهُ التعب والحمى لم تفارقهُ فلما دخل الغرفة وخلا بنفسهِ جعلت تتقاذفهُ عوامل الاضطراب والغيرة واستخرج تلك

الورقة من جيبهِ وتأملها فازدادت هواجسهُ وتعظم حنقهُ على سلمى فرأَى ان يكتب اليها كتاباً يكاشفها بما في قلبهِ ويوبخها على ما اعتقده فيها من خرق حرمة الحبّ فاغلق باب الغرفة وجلس الى الطاولة والحمى تتعاظم في رأسه واخذ قلماً وقرطاساً وكتب

آه يا سلمى

هذا كتابي اكتبهُ ولا ادري اذا كنت آتي على آخرهِ قبل ان آتي على آخرتي· اكتبهُ والنار في قلبي والحمى في رأسي والقلم يرتجف بين انملي وهو حقيقة آخر ما اكتبهُ اليكِ· وقد كان في نيتي ان امسك عن الكتابة رفقاً بكِ وشفقة على عواطفك ولكنني خشيت ان اقضي نحبي قبل ان اطلعك على ما بلغني وتحققتهُ عنكِ· آه يا سلمى واأسفاهُ على الايام التي قضيتها عالقاً بكِ جانحاً اليك اناضل عنكِ وادافع عن طهرك· فكم كذبت ناقلاً وردعت معنفاً وكم اغضبت تلك الوالدة التي قضت اشهرًا لا تعرف الرقاد خوفاً عليَّ من مخالب الجهل حتى اتيح لي سماع حكاية من رجل قبيح الوجه ولكنهُ سعد الجبين قص عليَّ قصةً ذهبت برشدي غيرة عليكِ من شابٍ طالما اخلصت لهُ الصداقة وفتحت لهُ مكنونات قلبي فاذا بهِ عدوٌّ في ثياب صديق· ولكنني مع ذلك اجللتك عن تلك التهم وصبرت صبر الرجال فاتتنى التقادير وقادني الاتفاق الى ورقة كتبتها يدك الى ذلك الصديق وفيها من عبارات العشق والهيام ما فيها· ولكي تتحققي ما اكتشفتهُ فها هي الورقة مرسلة اليكِ طي هذا اقرأيها فاذا كنتِ سلمى التي اعهدها وكانت تلك العواطف

لا تزال رقيقة فاندبي الفضيلة وابكي الطهر ونوحي على المحبة كما بكيتها انا واعلمي انكِ قد جئت امرًا ذهب بآمالنا ادراج الرياح

اما انا فاكتب ولا عقل لي لتعاظم الحمى في بدني وانما هي العواطف تسوق هذا القلم كيف تشاء · ولكن واأسفاه وخيبة الامل ياسلمى اين المحبة الطاهرة التي حلفتِني بها عند قاعدة ذلك الهرم الذي لا يزال قائماً يشهد على تينك الشفتين وتينك العينين اللتين ألا نتا قلبي بدموعها حتى كذبتُ الرواية وعدتُ الى الاخلاص ولكن قرائن الاحوال وهذه الورقة حققتْ ما كنت راغبا في تكذيبه غيرة عليك

واما كتابك اليَّ فلم يزدني الا سوءَ ظن فيك ولو كانت تلك العبارات صادرة عن قلب نقي كما كنت اعهد فيك فانها كافية لان تجعلني عبدًا رقًا لك وربما قاومت الدنيا كلها من اجلك ولكنها عبارات اتقنتِ في سبكها الصناعة واكثرتِ فيها من التمويهِ علماً منك بشدة اخلاصي وصدق محبتي

ولكن الامر على خلاف ماتتوهمين لان سليماً لم يعد ذلك الشاب الغر الذي يأخذ الاشياء بظاهرها ويسلم زمام قلبه لمن لم ترع ذماماً ولم تستبقِ حرمة · اقول ذلك وقد ازداد خفقان قلبي لشدة الضعف وعظم الانفعال وارتفاع الحمى وربما وقع هذا القلم من يدي رغماً عني

ولا بد لي قبل ان اترك القلم ان اخاطبك الخطاب الاخير اذ ربما اذا نهضت الآن قبل اتمام الخطاب لا استطيع اتمامهُ في فرصة اخرى لان الحمى لا تفارقني هذه المرة حتى تفارق نفسي جسدي فيخلو لك

الجوّ يا سلمى ولا يعود ثم من يكدر صفو اجتماعك بحبيبك الذي « لا يخطر غيره في بالك »

آه وا أسفاه دعيني قبل ان يجف دمي وتقف حركة قلبي ان ابكي المحبة الطاهرة التي كانت لك في هذا القلب الذي ما عرف سواك قبلك ولن تمهله منيته ريثما يعرف احدًا بعدك اذ لا البث ان اختم هذا الكتاب حتى ينهكني المرض ويشتد بي الضعف فاستلقي على السرير انتظر فيها الراحة الابدية

اودعكِ وياليتني ودعتك هذا الوداع والمحبة لا تزال طاهرة فاتوسد الثرى واوصيك خيرًا بتلك الوالدة المسكينة التي لو علمت ما بي لهمّت اليّ وفدتني بنفسها تلك هي المحبة الطاهرة التي لا يمكن ان يكدرها عيب. ولكنها الآن غير عالمة بما بي بل هي ناقمة عليّ غاضبة على عقوقي فاذا رأيتها بعدي استغفريها عني لعلها تستأنس برؤيتك لبقائها على اعتقادها بحبي لك

آه... قد وهى جلدي وضعفت عزائمي استودعك هذا سرًّا يرافقك الى اللحد كما يرافقني انا لئلاّ تشوّه محبتنا بارجاف المرجفين ولوم اللائمين واذا كنتُ لا اغار عليك فاني اغار على تلك المحبة التي ما كان اطهرها استودعك محبتي ويأسي والسلام من

قتيل حبه واخلافك

سليم

ولم يأتِ على آخر الكتاب حتى خارت قواهُ ولم يكد يطويه ويجعلهُ في المغلف حتى شعر بدوار شديد فاستلقى على السرير وهو يفكر في طريقة لارسال الكتاب لسلمى .

ولبث مستلقياً الى الغروب فجاء الخادم واضاء الشمعة وسأَلهُ عما يريدهُ من الطعام فطلب قليلاً من المرق ولم يكن جائعاً ولكنهُ خاف من شدة الضعف فجاءهُ بشيء من المرق فتناولهُ وهو لا يزال يشعر بالحمى وقد احسَّ بعد كتابة ذلك الكتاب ان جانباً كبيرًا من متاعبهِ قد زال عنهُ وتخلص من التردد ولكنهُ ما زال يفكر في سلمى وما يكون من امرها عند قراءة ذلك الكتاب ولكن الغيظ غلب عليهِ فلم يشفق عليها

وقضى ذلك الليل يفكر في طريقة لايصال الكتاب الى سلمى وهو لا يأمن ان يبعث بهِ مع احد خوفاً من وقوعهِ بيد غريبة • وكانت صورة والدتهِ نصب عينيهِ حزينة كئيبة من اجلهِ وفكر في امرهِ وما هو فيهِ وكيف ان اعز الناس لديهِ في القاهرة اصبحوا الدّ اعدائهِ فكره الاقامة فيها ومال الى هجرانها والاقامة في بلد آخر وخطرت الاسكندرية في بالهِ حيث تقيم والدتهُ فعوَّل على المهاجرة اليها اذا بقي حياً الى الغد حيث يقيم بجانب والدتهِ وينسى سلمى وحبيباً والايام التي قضاها في القاهرة ولم يرَ فيها الاَّ المتاعب والبلاء وعزم انهُ بعد وصولهِ الاسكندرية يبعث الى كاتبهِ في القاهرة لينقل المكتب الى هناك ويتخلص من جوّ هذه المدينة ويتسلى بوالدتهِ وشقيقه ويعيش هناك .

وفي منتصف الليل فارقتهُ الحمى وعادت اليهِ قواهُ نوعاً واحسَّ

بنزول حمل التردد عن ظهرهِ فارتاح الى ما عوّل عليهِ من السفر وصمم ان يترك القاهرة في صباح الغد

ونام بقية ذلك الليل نوماً هنيئاً واصبح احسن حالاً لانكسار حماءة الحمى عنهُ ولكنهُ كان ينتظر ان تعاودهُ بعد الظهر كعادتها فهم في الصباح ولبس ثيابهُ ولم يحمل معهُ شيئاً من اثوابهِ ولكنهُ اخذ كتاب سلمى في يدهِ على نية ان يدبر وسيلة يوصلهُ بها اليها ويكون على ثقة من وصوله الى يدها

فركب عربة وسار نحو الساعة التاسعة فوقفت بهِ العربة تحت بيت سلمى فقال للسائق اصعد الى هذا البيت ونادِ سعيدة الخادمة وقل لها ان المخدّم يريد ان يخاطبك

فصعد واستدعاها فجاءت ولما رأتهُ ارادت التأهل بهِ فقال لا تذكري اسمي امام احد بجياتي عليك وانما اريد منك ان توصلي هذا المكتوب الى سلمى يدًا ليدٍ واذا سألك سيدك او سيدتك عمن دعاك قولي ان المخدم او احدًا غيرهُ كلمك بشأن من الشؤون واحذري ان يعلم والد سلمى بهذا الكتاب . قالت حاضر على رأسي

فتركها سليم وامر السائق فساق العربة الى المحطة ومن هناك ركب القطار الى الاسكندرية



الفصل الرابع والعشرون

﴿ العجوز ورسول السوء ﴾

اما سعيدة فانها كانت بعد القاء ذلك الكتاب الى سيدتها وما عاينته من عواقب ذلك من مرض سلمى وارتباكها اصبحت عالقة الذهن باستطلاع نتيجة ذلك وكانت تتقرّب من سلمى اثناء مرضها وتقوم بخدمتها احسن قيام حتى كانت سلمى تستأنس بها وتلتذ بحديثها امـا سعيدة فلم تكن تتجاسر على استطلاع شيء منها ولكنها كانت تنتظر ان تبوح هي بشيء من تلقاء نفسها فرأت انها حريصة على سرها كثيرًا فلما دفع اليها سليم ذلك الكتاب في مغلف بدون عنوان قالت في نفسها هذهِ فرصة ثمينة لا يجب ان اضيعها وكانت لا تعرف القراءة فذهبت توًّا بعد ذهاب سليم الى بيت داود لكي تطلعهُ على ذلك الكتاب

فلما وصلت اليهِ رأتهُ جالساً وعلى وجههِ امارات الانقباض فحيتهُ وسألتهُ عما بهِ فقال اني في ارتباك عظيم يا سعيدة قالت خيرًا ان شاء الله وما سبب قلقك وارتباكك فاستخرج ورقة من جيبهِ وقال لها انظري الى هذه الورقة انها كتاب ورد اليَّ في هذا الصباح معنوناً من الخارج باسمي ولكنهُ من الداخل موجهاً الخطاب فيهِ لسليم بامضاء والدتهِ ولا ادري كيف حصل ذلك ولا ما هو معنى هذا الغلط

قالت وما هو الخوف من كونهِ كذلك

قال اقول لك اني خائف من هذا الامر خوفاً عظيماً جداً لان

الخط من الداخل خط سيدتك كتبتهُ على لسان والدة سليم تدعوه فيهِ للحضور الى الاسكندرية وأما سبب خوفي فاني أخاف ان تكون سيدتك قد كتبت كتابين في وقت واحد ووضعت كتابي في مغلف سليم وكتابهُ في مغلفي فاذا صح ظني يكون قد افتضح امرنا وانقلبت حيلتنا علينا ولا ادري ماذا اعمل اذا وقع كتابي في يد سليم واخاف ان يكون فيهِ شيءٌ يوضح حقيقة الحال فلا حول ولا

فقالت سعيدة دعنا من هذه الظنون وانظر الى ما جئتك بهِ الآن

قال وماذا

فدفعت اليهِ الكتاب قائلة مرَّ سليم الآن وعلى وجههِ اثر الضعف والانقباض ودفع اليَّ هذا الكتاب واوصاني ان اعطيهُ لسلمى يدًا بيد واظنهُ جواباً على الكتاب الذي اوصلتهُ اليهِ منها كما اخبرتك عنهُ ففضهُ واقرأهُ لنرى ما فيهِ

ففضهُ وقرأهُ وهو يتهلل فرحاً لنجاح حيلتهِ وقد نسي ارتباكهُ في امر الكتاب الذي ورد عليهِ ذلك اليوم واخبر سعيدة عما فيهِ ففرحت ايضاً وقالت هاتهِ ولأذهبن حالاً وادفعهُ اليها ولا اشك انهُ يكون فصلاً لكل خطاب فوضع لها الكتاب في مغلف كما كان فاخذتهُ وعادت الى البيت فسألتها والدة سلمى عن سبب غيابها فقالت ان المخدم جاء يتهددني لاني خدمت عند حضرتكم بغير اذنهِ فقلت لهُ اني لست خادمة ولكنني مقيمة عند اسيادي تكرماً منهم وصدقة عليَّ فلم يصدق وذهب ليشكوني فتركتهُ واتيت وانا لا ابالي بهِ

فعجبت سيدتها بحبها لها واستحسنت منها تلك الحيلة ودخلت سعيدة على سلمى وكانت جالسة في الفراش وقد تغير لون وجهها وتحول ذلك الجمال الى ذبول وعيناها لا تنشفان من الدموع حتى تكسرت اهدابهما وكانت في تلك اللحظة تفكر في كتابها الى سليم وهي متعجبة من عدم جوابهِ عليها فلما دخلت سعيدة وحيتها قالت لها ما وراؤكِ ياخالتي

قالت كل خير يا سيدتي ولكنني والحق يقال حزينة جدًّا من اجل مرضك ولا اظنك مريضة كمرض سائر الناس

قالت وكيف اذًا

قالت لاني لم أرَ للدواء تأثيرًا فيك واذا صدق ظني فانك في كدر اكثر بما انت في مرض

قالت وقد خفق قلبها وأرادت مخالفتها في قولها . ما أدراكِ انني كذلك وما الذي يكدرني . لا . انما انا مريضة

قالت لا ألومك على كتمانك لان البنات يحببن كتمان كل شيءٍ ولكنك ربما اذا كشفتِ لي قلبك اقدر ان اعزيك او اساعدك لاننا نحن العجائز لنا مهارة كبيرة في امر العالم لكثرة اختبارنا وأما انتنَّ البنات فكلمة ترفعكن وكلمة تحطكن لان قلوبكن لينة لا تعرف شيئاً من دهاء الرجال ومكرهم

فلما سمعت منها ذلك عجبت لانطباقهِ على حالها وحملتهُ محمل التحنك والاختبار ومالت بكليتها الى مكاشفتها أمرها ولكن شيئاً في داخلها كان يمسكها عن ذلك

وأدركت سعيدة ذلك منها فقالت ولكني أعجب كل العجب كيف تتمادين في امر الحب ولا تستشيرين أحدًا فربَّ مشورة من عجوز مثلي تنقذ فتاة من الموت لان ما تستعظمهُ البنات قدلا تكترث بهِ العجائز لعلمهن بما ينطوي عليهِ شبان هذا الزمان الذين يخاطبون فتاة ويعقدون معها عهدًا ثم اذا رأوا فتاة اخرى وأعجبهم حديثها تركوا تلك وتمسكوا بهذه وعقدوا معها عهدًا وبعضهم يفعل افظع من ذلك بان ينتحلوا أسباباً ويختلقوا حكايات لا اصل لها حتى يتخلصوا من خطيبةٍ جاعلين كل الحق عليها غير مبالين بحرمة الحب

وكان لكلام سعيدة وقع في أُذني سلمى ولكنها مع ذلك لم تشا مفاتحتها بما في قلبها وكانت تجلُّ سليماً عن ان يكون مثل الذين أشارت اليهم سعيدة في كلامها فسكتت . فلم تزد سعيدة خوفاً من اغضابها

وكانت سعيدة تتردد في دفع ذلك الكتاب اليها فخرجت من الغرفة لبعض مهام البيت وكانت والدة سلمى تصلح فرش غرفتها فلما انتهت منهُ جاءَت غرفة سلمى تسأَلها عن صحتها فقالت انها احسن حالاً بحمد الله فجلست اليها تسليها وتحادثها في شؤُن مختلفة ولا سيما عن سليم فانها كانت قد استبطأَتهُ لغيابهِ عن البيت ثلاثة أيام متوالية . فقالت ماذا تظنين سبب غيابهِ اخشى ان يكون مريضاً فلنبعث اليهِ من يسأَل عنهُ

فتذكرت سلمى حالها معهُ فاضطربت جوارحها وكاد يظهر ذلك

عليها ولكنها تجلدت وقالت ربما كان غائباً في بعض الارياف في قضية الا تذكرين انهُ غاب مرة اسبوعاً كاملاً لذهابه الى اسيوط للمرافعة ببعض القضايا وقضاء بعض المهام

قالت نعم أذكر فلعلهُ ذهب الى هناك ولكنهُ لما ذهب المرَّة الماضية اخبرنا بذهابهِ

قالت ربما لم يستطع هذهِ المرة اخبارنا

وفيما هما في ذلك سمعا قرع الباب واذا بسعيدة قادمة تقول ان الخواجه سعيداً واهل بيتهِ قدموا يا سيدتي فخرجت الوالدة لاستقبالهم ودخلت بهم غرفة الاستقبال وبقيت سلمى في الغرفة منفردة وكانت لما سمعت قرع الباب تذكرت خفقان قلبها عند طرقهِ من سليم قبلاً فهاجت فيها اشجانها وغلب عليها البكاء

وفيما هي في ذلك دخلت اليها سعيدة مسرعة وفي وجهها خبر فقالت لها سلمى ما وراؤك يا سعيدة

قالت مرَّ بنا سيدي سليم الآن وبعث اليَّ واعطاني هذا الكتاب وأمرني ان اسلمهُ اليك يداً بيدٍ

فلما سمعت سلمى اسم سليم والكتاب أخذت فرائصها ترتعد وقلبها يختلج فتناولت الكتاب ويداها ترتعشان وقد ازداد وجهها امتقاعاً فدفعت سعيدة الكتاب وخرجت واغلقت الباب وراءها

اما سلمى فأخذت الكتاب ولم تعرف كيف تفضهُ لشدة الاضطراب وزيادة الارتعاش وأخيراً فضتهُ وللهفتها لم تعرف كيف تقرأهُ على انها

ما بدأت بقراءتهِ حتى صارت تنتفض في فراشها وبردت أطرافها وتساقطت دموعها ووقعت الورقة التي كانت ملحقة بهِ من يدها الى الارض

ولا حاجة بنا الى شرح حالها عند قراءة ذلك الكتاب مع ما هي فيهِ من الضعف واقل ما اصابها ارتجاف وخفقان سريعان حتى خافت ان تقع في الغيبوبة فنادت سعيدة وكانت مستعدة للاجابة فدخلت اليها فاذا هي في تلك الحالة فاتتها بشربة ماء ولم تدع والدتها تعلم لانشغالها بضيوفها في غرفة الاستقبال وأخذت سعيدة تخفف عنها وتسليها وهي تصيح بصوت عال وتلطم وجهها قائلة سليم حبيبي وافضيحتاه واأسفاه أهذه آخرة حالي معك ويل للواشين المفسدين

فقالت سعيدة ويل لهم ومن هم وماذا فعلوا يا سيدتي خفضي صوتك لئلا تسمعنا والدتك

فانتبهت سلمى لذلك وجعلت تسكّن روعها وسمعت صوت وقع اقدام امام الغرفة فامسكت نفسها ولكن من اين لها ذلك وقد فاضت عواطفها وطار عقلها واشتد حزنها لما نسب اليها من الخيانة في ذلك الكتاب واستولى عليها اليأس وأخذت تلطم صدرها وتصفع وجهها وهي تقول ويل للمفسدين الذين لا يخافون الله فانهم غشّوه واقنعوه بالحيلة والخداع ولكن سامحهُ الله كيف صدقهم وكذبني انا التي وقفت نفسي لاجله· اني احبهُ حباً أثبت من الجبال ولم اعرف حبيباً قبلهُ ولن اعرف احدًا بعده· حبيبي سليم حبيبي سليم آه يا حبيبي أأنت مريض مثلي

العلّ المفسدين قد دخلوا بيننا حتى بيثونا نحن الاثنين في وقت واحد آه ما احلى الموت الى جانبك وعيناي تنظرانك ويل للمفسدين ....آه من الحب ما امرّه

كل ذلك وسعيدة واقفة الى السرير تهوّن عليها وقد انفطر قلبها عليها رغماً عن دهائها ومكرها ولا سيما لما تذكرت انها هي التي سعت معْ داود حتى القياها في تلك الورطة فبكّتها ضميرها ولكن طبع اللؤم والخساسة غلب عليها فتذكرت نجاح مشروعها وانها ستعود الى شيدتها ظافرة فارتاح بالها

الفصل الخامس والعشرون

﴿ اتفاق غريب ﴾

اما الضيوف فقد قلنا انهم بيت الخواجه سعيد ومعهم ادما التي ما برحت في ارتباك لانهـا شاهدت حبيبها مسافراً وهي لا تعلم سبباً لسفرهِ وقد بدأت في قلبها الغيرة عليه من سلمى وانما جاءت في ذلك اليوم لعلها تستطلع عنهُ شيئاً

وبما ان والدها معها لم يدخلوا غرفة سلمى ولكنهم دخلوا غرفة الاستقبال واخذوا باطراف الحديث فسألت والدة ادما عن صحة سلمى فقالت انها لا تزال منحرفة المزاج فسألتها عن سليم اذا كان قد جاءهم في ذلك اليوم فقالت انهُ لم يأت منذ ثلاثة ايام ولا ندري

ما بهِ ولعلهُ سافر الى بعض المدن في الريف للمرافعة بقضية كجاري العادة

وبعد المحادثة مدة نهضت ادما تريد الدخول الى سلمى فطرقت باب غرفتها مستأذنة وكانت سلمى في معظم اضطرابها وكتاب سليم في يدها فاخفتهُ ومسحت عينيها · ولاضطرابها لم تنتبه للورقة التي كانت فيهِ ثم فتحت سعيدة الباب فدخلت ادما وقد عجبت لفرط ما شاهدت في وجهِ سلمى من النحول وما في عينيها من اثر البكاء فعلمت انها انما هي مريضة حباً وفي نفسها شيءٌ تخفيه ولكنها تجاهلت وسألتها عن صحتها فاجابتها الجواب المعتاد في مثل ذلك فتناولت ادما كرسياً وجلست الى السرير بجانب سلمى وقد خرجت سعيدة واغلقت الباب وراءها

واخذت ادما تعزيها وتخفف عنها اوجاعها بلطيف حديثها وهي لا يضحك لها فم ولا تنشف لها عبرة وقد احسَّت بارتجاف وقشعريرة فتوسدت وجعلت اللحاف عليها حتى رأسها

وكانت ادما جالسة الى جانبها تتأمل في حالها وتنظر الى الارض فوقع نظرها على ورقة خفق قلبها عند مشاهدتها فمدت يدها بخفة وتناولتها ونظرت اليها بسرعة فاذا هي الورقة التي بعثت بها الى حبيب فاخفتها في جيبها ويدها ترتجف وقد خالج فكرها الف ظن وحسبت لوجودها هناك الف حساب وبعد التفكر برهة تحقق لديها ان حبيباً لا شك يحب سلمى وانهُ قد جاء بتلك الورقة اليها ليهزأ بها امام حبيبتهِ ولما تصورت

ذلك هبّت نار الغيرة في قلبها ولعنت الساعة التي كتبت فيها تلك الورقة ولم تتمالك عن البكاء رغماً عنها فلحظت سلمى بكاءها فظنتها تبكي رثاء لحالها فازداد هيامها وهاجت احزانها فعادت الى البكاء وهي تقول لماذا تبكين ياحبيبتي . لالايجب ان تبكي اما اذا كان بكاؤك حزناً عليّ فابكي لان حالتي تستوجب البكاء اما انت فهنيئاً لك . فلم يزدها هذا القول الا اضطراباً وغيرة لانها ظنتها تحسدها على حبيب او تشير اليهِ في شيء

وارادت مخاطبتها والاستفهام عن مرادها فسمعت قرع باب الدار فدق قلبها لانها اصبحت لشدة هواجسها تتأثر لاقل الاصوات ولا سيما في تلك الساعة لانها كانت في معظم الارتباك فوقفت واطلّت من باب الغرفة لترى القادم فاذا هو حبيب وعلى وجههِ امارات الارتباك فحالما رأتهُ علا وجهها الاحمرار وارتعشت ركبتاها وبردت اطرافها حتى لم تعد تستطيع الوقوف فاسندت نفسها الى الباب تنظر الى حبيب وقد عجبت لارتباكهِ وظنتهُ ارتبك عند مشاهدتها بغتة

اما هو فحالما رآها بغت لانهُ لم يكن ينتظر ان يقابلها هناك فدنا منها مسلماً وعلى وجههِ مظاهر الانقباض فمدت يدها فقبض عليها فاذا هي باردة كالثلج فهزها ولم يعرف لارتباكهِ كيف يسلم عليها واطلّ الى سرير سلمى فاذا هي راقدة فحياها وسألها عن حالها . اما هي فحالما رأتهُ تذكرت حبيبها سليماً فهاجت عواطفها واخذت في البكاء وكانت عينا ادما عليها لترى ما يبدو منها ومن حبيب عند تلك المقابلة لتتحقق ظنها فاذا بهِ سلم عليها بغاية اللطف وهي حالما رأتهُ ترقرقت الدموع في عينيها فازدادت

ادما غيرة وازداد ارتعاشها وخرجت الى غرفة الاستقبال لكيلا تشاهد منظرًا آخر يزيد اضطرابها وقد تحققت ان كل آمالها ذهبت ادراج الرياح ولم تكتسب من كل سعيها الا الفضيحة واليأس فجلست في احد اركان الغرفة واسندت رأسها الى يدها على الوسادة وغرقت في بحار الهواجس

فاذا بحبيب قد دخل الغرفة ونادى والدة سلمى فتبعتهُ فخلا بها في غرفتها مدة يتكلمان سرًّا ثم عاد الاثنان وعلى وجهيهما مظاهر القلق فلم يزدها كل ذلك الا تمكناً من اعتقادها بخيانة حبيب وان كل ما دار بينه وبين والدة سلمى انما كان بشأنها فلم تعد تستطيع البقاء في ذلك البيت فارادت الاعتذار والذهاب الى بيتها فاذا بحبيب قد ودع الجميع ولم يمكث وخرج ولم يودعها فلبثت ريثما خرج ونهضت متظاهرة بانحراف شعرت به واستأذنت والديها وصاحبة المنزل بالذهاب فاذنوا لها فخرجت والدمع ملء عينيها ولم تصدق ساعة وصلت البيت فدخلت غرفتها واخذت في البكاء والنحيب وقد غلب عليها الندم لكتابة تلك الاسطر اكثر مما غلبت عليها الغيرة من سلمى ولم تعد تعرف ماذا تندب ولا ماذا تبكي وقد ضاقت الدنيا في عينيها ونقمت على الساعة التي كتبت فيها تلك الورقة واخذت ترثي حظها وتلوم الدهر الذي قادها الى تلك الحال وما كان اغناها عن الحب بعد ان كانت حافظة لكرامتها قانعة بما قسم الله لها فلم ترضَ الا بكشف امرها حتى وقعت في تلك المصائب

اما سبب مجيء حبيب الى بيت الخواجه سليمان في ذلك اليوم فهو انه عاد الى القاهرة مع والدة سليم ليلاً فوصل العاصمة في صباح ذلك اليوم باكرًا فسار توًّا الى محطة حلوان لعلمه ان سليماً هناك فوصل بيته فاذا بسليم ليس فيه فسأل والدته عنهُ فقالت لا ادري الا انه خرج في عصر الامس للنزهة في حديقة حلوان ولم يعد فانشغل بالهُ وبال والدته عليه واخذوا يبحثون عنه في حلوان ويسألون الجيران فلم ينبئهم منبئ فازداد انشغال بالهم واما والدته فانها لفرط تشوقها الى رؤيته ظنت ان سوء حظها قد حمل ولدها على الانتحار فازداد بلبالها واخذت تندبه وهم يخففون عنها ويلطفون اضطرابها

فثارت الحمية في رأس حبيب حتى اصبح اكثر من والدته قلقاً عليه فقال لها ها اني ذاهب للتفتيش عنه في مصر لعله ذهب اليها فركب القطار وجاء القاهرة وسار الى منزل سليم فاذا بالغرفة خالية فسأل اهل المنزل فقال له الخادم انه بات هنا في الامس وخرج في هذا الصباح فسأل عنه في مكتبه فقالوا انه لم يأت ذلك اليوم الى هناك فقال في نفسه لعله ذهب الى بيت سلمى فسار الى هناك وقد بلغ منه الاضطراب مبلغاً عظيماً فدخل البيت في الحالة التي قدمناها وخلا بوالدة سلمى يسألها عنه فاخبرته انه لم يزرهم منذ ثلاثة ايام وانشغل بالها عليه فسألته عن سبب التفتيش عنه فقال انه يحتاج اليه في شغل خصوصي ولم يخبرها بحقيقة الحال لئلا يزداد قلقها

وخرج من ذلك البيت ولم ينتبه لشدة قلقه ان يسلم على ادما

وقد لاحظ فيها فتوراً عن ذي قبل فخطر له امور كثيرة ولكنه من جهة لم يكن عالقاً بها لدرجة تحول له نسيان نفسه من اجلها ومن جهة اخرى كان منشغل البال على صديقه خوفاً عليه من الانتحار لعلمه بما هو فيه من اليأس

وسار يطلبه في كل مكان اعتاد ان يراه فيه فلم يقف له على اثر وما زال في ذلك وهو لم يذق طعاماً ولا مناماً في مساء الامس الى الظهر فلما اعيته الحيلة وخارت قواه من الدوران عاد الى حلوان لعل سليماً يكون قد جاء الى هناك فاذا بوالدته ووالدة سليم ينتظران قدومه على المحطة فلما رأته والدة سليم وحده جعلت تلطم وجهها وتصيح يا ويلاه اين ذهب سليم .. ولدي سليم اين انت .. آه يا ولداه . واخذت في العويل والبكاء حتى عجب الناس الواقفون في المحطة لحالها ورثوا لها

فجعل حبيب ووالدته يخففان ما بها ويعللانها بقرب مجيئه وهي لا شيء يعزيها او يسليها فالتفتت الى حبيب قائلة لماذا اتيت بي الى هذه الديار . اين ولدي سليم هل جئت بي لتزيد حرقي عليه هل اصابه سوء وانت تخفيه عني ارنيه ولو ميتاً ... آه يا ولداه يا حبيبي العلي انا الشقية سبب ضياعك يا كبدي .. تعساً لي وتباً ليوم ولدت فيه أأكون سبباً لشقائك وضياعك العلي كنت مخطئة بنصحك وقد عظمت عليك المصيبة فقتلت نفسك . لا كانت البنات ولا كان الزواج تعال يا ولدي وتزوج ابة شئت وانا اقوم بخدمتك وخدمتها بقية حياتي

وما زالت في ذلك حتى ابكت الجميع وعلا الصياح كالمأتم

مأتم يكون ميتاً

فوقف حبيب وهمّ بيد والدة سلمى وقبلها قائلاً بالله عليك خففي عنك ولا يحسن بك التشاؤم فان البكاء لا يليق بنا الآن والافضل لنا ان نفتش عنه في انحاء المدينة او نبعث التلغرافات الى جهات اخرى ونسأل عنه ولا يجدر بنا الجلوس والبكاء

قال ذلك وهو يعلم انه قد بذل جهده في التفتيش عنه في كل مكان واما التلغرافات فلا يدري الى اين يبعث بها ولكنه قال لهم ها اني ذاهب الى القاهرة ثانية لعله يكون قد جاء غرفته وعسى ان لا اعود حتى اجده فقالت والدة سليم اذهب يا ولدي وفق الله مسعاك واذا رأيته اخبرنا ذلك تلغرافياً ربنا يحفظك لوالدتك قالت ذلك وبكت

فسار الى المحطة وركب القطار حتى وصل القاهرة واخذ يفتش عن صديقه وهو لا يزال بغير طعام

الفصل السادس والعشرون

﴿ سليم في الاسكندرية ﴾

فلنترك حبيباً جائعاً يفتش عن صديقه ولنعد الى سليم وما جرى له في الاسكندرية فقد تركناه راكباً القطار اليها في الصباح وهو يخشى ان تعاوده الحمى قبل وصوله اليها وما انفك اثناء الطريق مفكرًا فيما تم له في تلك الايام القليلة واخذ يتصور سلمى في حالات مختلفة بين اليأس والكدر والجزع والحنق وهي تقرأ الكتاب ولما يخطر له انها اصيبت

بسوء بسبب كتابه يحنُّ اليها ويختلج قلبه في صدره وجلاً لان قلبه لا يزال مسكناً لها رغماً عما اراده صاحبه من العنف والجفاء فان الحب المؤسس على الطهارة لا ينتزع من القلب بسهولة ولو انتزع فان المحب يبقى زمناً يحن الى حبيبه القديم بحكم العادة ولكن سليماً كان يود ان ينسى صورة سلمى وقد حاول ذلك بطرق مختلفة وهذا ما حمله على مبارحة القاهرة ولكن شخصها كان لا يزال امام عينيه في هيئة محزنة ترتعد لها فرائصه حنوًا وربما ندم على كتابة ذلك الكتاب على انه لما يتذكر الاحاديث التي سمعها عنها وما ظهر لديه منها مظهر الخيانة يرى انه فعل الصواب ولكنه مع كل ذلك كان يشعر بقلق ويود نسيان تلك الحوادث جملة

فوصل القطار محطة الاسكندرية وهو في غفلة ولم ينتبه الاَّ عند سماعه صوت جرس المحطة فنظر من نافذة العربة فاذا هو في محطة الاسكندرية فتحول وخرج الى موقف المركبات وركب واحدة منها وامر السائق ان يسير به الى شارع المسلة فسارت المركبة وعندما وصل الشارع اخذ قلبه في الخفقان لشدة الضعف لا سيا عند تذكره والدته وكيف تكون مقابلتها اياها عن غير انتظار منها وايقن انها سيصيبها اغماء لدهشتها وفرحها به

فوصلت العربة ووقفت بقرب باب البيت فتحول منهـا ووقف عند الباب يتردد في قرعه ويداه ترتجفان وركبتاه ترتعشان واخيرًا قرع الباب ففتحهُ خادم لايعرفه فسأله عن الخواجه فؤاد فقال انه في

شاغل بالبلدة فقال وامرأته قال هي هنا فدخل واذا بامرأة اخيه قادمة ولم تعرفه لاول وهلة لما هو فيه من الضعف ولكنها حالما امعنت نظرها فيه عرفته فنادت سليم قال نعم اين والدتي قالت هي في القاهرة وما الذي جاء بك

فلما سمع انها في القاهرة تعجب ولم يصدق وبهت لذلك القول وقال ماذا تقولين قالت نعم قد سافرت اليها مساء امس مع صديقك حبيب العلك لم تشاهدها

قال لا ولا علم لي بذهابها ولكنه اخذ يفكر في سبب مجيء حبيب وذهابه بوالدته وهو لا يهتدي الى حل

فقالت له امرأة اخيه ما لي اراك نحيلاً ما الذي جرى لك قال كنت منحرف الصحة وجئت لتغيير الهواء ثم دخل قاعة الاستقبال وقد انهكه التعب والضعف فدعته امرأة اخيه ان يغسل وجهه ويبدل ثيابه ففعل وهو لا يستطيع اخفاء ما داخله من الريب في سبب مجيء حبيب الى والدته

وبعد ان غسل وجهه وبدل ثيابه جلس للاستراحة واذا باخيه قادم من شغله يتناول الغداء فعجب هذا بمجيئه فاخبره انه آتٍ لتغيير الهواء استجلاباً للصحة فدعوه للغداء فتناولوه ولم يقم سليم عن المائدة الاً وقد عاودته الحمى فاجلسوه في الفراش وقاموا بخدمته وجعلوا يتحادثون في شؤون شتى . اما هو فاخذ يبحث عن سبب مجيء حبيب فقالوا له انه جاء في مثل الوقت الذي جئت فيه وقضى عندنا بعد الظهر وهو

يحادث والدتك في شأنك وفي الساعة العاشرة من مساء امس ذهبا معاً الى القاهرة ومن العجب انك غير عالم بذلك

فقال اني لم اكن عالماً قط ثم انشغل عن تلك الهواجس باشتداد الحمى فقالوا نستدعي لك طبيباً قال لا بأس من استدعائه فقالوا ان لاحدى السيدات صديقات والدتك طبيباً ماهرًا سندعوه لك

فبعثوا الخادم فعاد بالطبيب و بعد هنيهة جاءت السيدة وردة وابنتها وهما في ما اعتادتاه من التبرج والبذخ في اللباس ولم يكن هو يعرفهما الا معرفة وجه

فدخلت الست وردة على غرفته وهمت اليه وقبلته بحرارة قائلة اهلاً بك يا ولدي ما الذي جرى لك يا حبيبي واحرقتاه على قلب والدتك فانها لما علمت بمرضك اسرعت اليك على جناح البخار فاين هي

قال اني لم ارها يا سيدتي وقد عجب لاحتفائها به

اما ميليا فانها حيته وقد علا وجهها الاحمرار وجلست الى كرسي امام السرير واظهرت كل ما استطاعته من مظاهر الاسف لمرضه

وكان سليم لا يزال يعجب لاحتفاء هذه السيدة به وكيف انها سلمت عليه سلام الوالدة لولدها ثم قالت للطبيب أتقدم اليك يا حكيم ان تبذل قصارى جهدك في تطبيب حضرة الافندي لانه بمعزة ابنتي هذه (واشارت الى ميليا) ولذلك رأيتني عندما سمعت بمرضه قدمت مسرعة ولا سيما لان عزيزتي والدته غائبة ويجب عليّ القيام بخدمته في غيابها

فازداد سليم تعجباً لذلك الحنو الغريب وشعر باعتباره لتلك السيدة وكان كلما نظر الى ميليا يتذكر سلمى فينقبض ثم تشغله آلامه عن التمادي في الافتكار

فوصف له الطبيب دواء وقال لا بد له من تغيير الهواء وافضل مكان له الرمل لنقاوة هوائه وصفاء جوه فوقفت الست وردة عند سماعها ذلك قائلة انهُ امر سهل جدًّا وهذا بيتي في الرمل حسن الموقع عند شاطىء البحر معد لاستقبالهِ وفيه من الآنية والاثاث ما يكفي او يزيد عن الحاجة وانا اذهب للقيام بخدمته هناك ريثما تحضر والدته لان حضرة الست (واشارت الى امرأة اخيه) لا تستطيع مفارقة بيتها واولادها والذهاب الى هناك

فاستأنس سليم بلطف تلك السيدة كثيرًا وشعر بثقل فضلها عليه ونظرًا لتعود عواطفه الحب شعر بارتياح الى مشاهدة ميليا اما وردة فانها بعثت في الحال بعضاً من خدمها ليعدوا منزلها في الرمل ويستحضروا ما يحتاجون اليه من الطعام وغيره وقالت لسليم ارى ان خير البر عاجله وبما ان الطبيب قد اشار عليك بالسكنى في الرمل فلنذهبن اليه حالاً

فقال اني اصبحت غريقاً في افضالك ايتها السيدة ولا اعرف كيف افصح عن امتناني

فقطعت عليه الكلام قائلة اني لم انتظر منك هذه العبارات التي يلتجىء اليها الناس في التجمل وليس بيننا مثل ذلك لان والدتك اعز من شقيقتي وانت بعزة ابنتي هذه وهذا فرض واجب عليَّ لان

ما بيني وبين عزيزتي ام فؤاد من المحبة ما لا يعلمه الا الله فكن في راحة ولا تخاطبني الا امرًا بكل ما تريده كما تخاطب والدتك لاني وحياة عزيزتي ميليا (واشارت الى ابنتها) التي تركت الدنيا من اجلها ليس لدي اعز منك فثق بذلك وارفع التكلف في الكلام وكن مرتاح البال ولا تهتم في شيء ومتى حضرت عزيزتي ام فؤاد بالسلامة تخبرك عما بيننا من المحبة القديمة . فانعقد لسانه عن الاجابة لانها سدت عليه كل ابواب الكلام بزخرف حديثها ورقة عباراتها المشفوعة بالعمل ولكنه قال لها ان ما بينك وبين والدتي شافع بكل ما سيبدو بتثقيلي عليك ولا غرو اذا احبتك والدتي فان لطفك وحسن ذوقك ورقيق حديثك مما يسلب العقول قبل القلوب . وارى اني لا استطيع السفر الآن الى الرمل لما انا فيه من الحمى وربما نتج عن سفري ضرر يصعب تلافيه فالافضل ان نتربص الى صباح الغد ريثما تخف وطأة الحمى عني فانتقل الى حيث تشائين

فقالت نحن نسأل الطبيب فاذا عارض في ذهابك اطعناه وكان الطبيب لا يزال حاضرًا فقال اذا احتجب عن الهواء جيدًا لا بأس عليه من الانتقال فقالت هي ونحن نذهب به من هنا راكبًا في المركبة الى المحطة ومن هناك نغلق نوافذ العربة في القطار ومنزلنا قريب من المحطة في الرمل لا يبعد عنها بضع خطوات فاذا ذهبنا الليلة فانه يبيت في الرمل على شاطىء البحر والهواء جيد نقي ينهض القوى ويزيل الحمى وما زالت حتى اقنعته بالذهاب حالاً وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر

فاعدوا المركبة فركب فيها هو وشقيقته والست وردة وعربة اخرى ركبت فيها ميليا وامرأة اخيه وساروا الى المحطة ومنها في قطار الرمل الى المنزل فدخلوه فاذا هو واقع على مرتفع مشرف على بحر الروم في اجمل ما يكون من البناء واتقن ما يكون من الرياش

فادخلوا سليماً الى غرفة لها نافذة مطلة على البحر وبعد الجلوس هنيهة استأذن اخوه وامرأته بالذهاب وبقيت الست وردة وابنتها وهذه ذهبت الى المطبخ لتساعد الخدم في اعداد بعض الطعام لسليم وتبعتها ميليا وبقي هو وحده فاسند رأسه الى وسادة بجانب النافذة المطلة على البحر واخذ ينظر الى الافق فاحس بنشاط رغماً عما كان يتقد فيه من الحمى فجعل يتأمل ذلك البحر الواسع ويرسل نظره الى اطرافه الشاسعة وهو في لونه الازرق العقيقي الصافي يحده عن بعد دائرة الافق ينتهي من جهة البر بمدينة الاسكندرية وكانت قد اعادت رونقها نوعاً بعد حريقها الاخير اثناء الثورة العرابية وفيها القصور الشامخة متراكمة متزاحمة وكان يسمع صوت فقش الامواج على الشاطئ اسفل ذلك البناء والشمس قد مالت الى المغيب فتزين الافق بهالات بديعة الالوان من الشفق فهاجت فيه هواجسه وتذكر ما تم له مع حبيبته سلمى وما كان من عاقبة حبه فثارت فيه اشجانه واشتد فيه الهيام حتى ترقرقت الدموع في عينيه وود لو ان تكون سلمى الى جانبه مع ما كان بينهما من المحبة الطاهرة يتجاذبان اطراف الحديث ويتشاكيان لواعج الحب فانقبضت نفسه وتلاعبت فيه اشجانه وازداد في البكاء

وفيما هو في تلك الهواجس دخلت الست وردة تحمل اليه قدحاً فيه جرعة من الدواء الذي وصفه الطبيب قائلة تناول هذا الدواء لعل لك فيه شفاء ولما رأت الدموع في عينيه اخذت تخفف عنه قائلة ما الذي يدعوك الى هذا البكاء يا ولدي وانت الآن كانك في حجر والدتك وهي عما قليل تكون هنا وقد قلت لحضرة شقيقك ان يكتب اليها بالحضور على يد صديقك حبيب

فلما سمع اسم صديقه خفق قلبه واضطربت جوارحه غيرة اذ تذكر حاله معه ومع سلمى ولكنه هم بالقدح فتناوله من يدها وقد احس بالخجل من لطف تلك السيدة وقال لها لقد غمرتني بفضلك واورثتني الخجل بهذا التنازل ... فابتدرته قائلة قد قلت لك ان ذلك التكلف ليس بيننا ولم اعد اريد ان اسمع منك هذا الكلام قط

فسكت وتناول الدواء وقد توردت وجنتاه من الحمى فتناولت هي مروحة وجعلت تروح له بها تلطيفاً لحر الحمى فاراد منعها فابت

ثم دخلت ميليا وتناولت المروحة من والدتها واخذت تروح له بها وقد اتقنت الصنعة في التظاهر باللطف والتأدب

ولا يخفى ان قلب الفتى اذا عانى الحب مرة يصبح مستعداً للوقوع فيه مرة ثانية بسرعة وقد آنس من لطف تلك المرأة وابنتها ما حمله على شدة الميل اليهما وخصوصاً الى الفتاة ولكن حاله من المرض كانت تشغل عواطفه عن مثل ذلك

واراد منع ميليا من الترويح فقالت له والدتها لا تمنعها يا ولدي

ولا تخجل من ذلك لانها مثل شقيقتك ويجب عليها خدمتك فسكت ووقع نظره على معصمها وهي تحركه روحة وجيئة فاذا هو ابيض ناصع تزينه الاساور المرصعة ونظر الى وجهها خلسةً فاذا بعينيها تبرقان وقد علا وجهها الاحمرار وهي تروح له مطرقة خجلاً

فازداد ارتياحاً الى رؤيتها واستئناساً بقربها ولكن صورة سلمى كانت لا تفارق ذهنه قط واذا شعر بميل او شبة ميل لميليا انما هو لنوع من الشبه آنسهُ بينهما اقله مشابهة الجنس ولكن حاله من المرض والغضب كانت تشغل عواطفه عن العمل. واخيرًا تناول المروحة من يدها بعد الاستئذان واخذ يروح لنفسه فتركته وجلست الى الكرسي لا تتكلم ولكنها كانت تنظر الى الارض تارة والى البحر اخرى لا ترفع نظرها اليه فحمل ذلك منها محمل الحياء والتأدب فصارت لها في قلبه صورة اعتبار ولكنه ضغط على عواطفه خوفاً عليها من التهور لئلا يقع في حب تلك الفتاة وهو في حال المرض وربما لا يكون له وصول اليها لما هي فيه من الغنى والبذخ فحول نظره نحو البحر وجلس الاثنان لا يتكلمان الى الغروب فجاءت الوالدة وامرت الخادم فاضاء الغرفة ثم جاءته ببعض المرق وبعض الطعام فتناوله وعادت من الغرفة لبعض المهام وبقيت ميليا

اما هو فكان يفضل الاستلقاء طلباً للراحة ولكن الحياء منعه من ذلك بحضور فتاة غريبة فاذا بها تقول له وهي اول مرة خاطبته بها يظهر انك في حاجة الى الراحة واظن ان وجودي الآن قد ثقل عليك

ومنعك عن الاستلقاء فها اني خارجة فاستلق وتمتع براحتك · فاجابها متأدباً حاشا لك يا سيدتي ان تكون ثقلاً عليَّ او على سواي فاني اصبحت غارقاً في لطفك ولطف والدتك وما انا في حاجة الى الاستلقاء الآن على اني لو كنت في حاجة اليه ما منعت نفسي منه لان لطفك يجرئني على اكثر من ذلك

قالت وهذا املي يا سيدي وارجو ان تتخذ حريتك في كل ما ترى فيه راحتك مهما كان نوعه ولا تقيد نفسك بالعوائد والماجريات

فاستحسن سليم منها هذا الجواب واستلقى على ظهره وقد ذبلت عيناه فادركت ميليا ميله الى النعاس فغادرت الغرفة · فلما خلا بنفسه غلب عليه الضعف والنعاس فنام ولم يستيقظ الا في الصباح باكرًا وقد زالت الحمى عنه وفتح عينيه فاذا بميليا واقفة بازائه تروح له وليس في الغرفة سواها فمد يده وامسك يدها يريد منعها فامسكت هي يده وقد علا وجهها الاحمرار وضغطت على يده ضغطاً خفيفاً فاحس بقشعريرة سرت في عروقه مثل شعوره عند ما كان يمسك يد سلمى فتذكر ما وقع فيه بسبب ذلك الحب وخاف ان يتخلص من شر فيقع في شر اعظم منه فجذب يده بلطف فاشتد احمرار وجهها وظهرت عليه ملامح الكدر والخجل معاً واحجمت عن السرير فاثر ذلك في نفسه واسف لما فرط منه مما قد كدر تلك الفتاة فاراد رتق ما فتقه فمد يده وامسك يدها وجذبها اليه وضغط عليها ويده ترتجف من الضعف فاذا بتلك اليد باردة كالثلج تكاد تذوب في يده

اما هي فسلمته يدها قائلة بصوت مختنق وطرف مطرق ماذا تريد من يدي وقد رفضتها

فقال حاشا يا سيدتي لا عاش من يرفض هذه اليد وكنت اخشى ان لا اكون اهلاً لمسها فضلاً عن نيلها قال ذلك يريد التجمل تخفيفاً لكدرها لانه كان يشعر بثقل فضل والدتها عليه فازدادت وجنتاها توردًا ولمعت عيناها وذبل جفناها وقد اخذ منها الهيام مأخذًا عظيماً وتظاهرت بالخجل لما ينطوي تحت عبارته من المعاني المؤثرة وقالت في نفسها قد آن وضع الشراك فقالت له وما الذي اخافك من لمس يدي ونيلها

قال وهو يتردد في جوابه «قصوري العظيم وقصورك العظيمة» فادركت انه يريد ما هي فيه من الثروة فقالت «اما قصورك فهو فيَّ واما قصوري فهي لك هذا اذا لم ترفضها كما رفضت يدي وجذبت يدك منها »

فعلم انهُ قد اوشك ان يقع في شراك الحب ثانية مع فتاة لم يرها لا دقائق متفرقة ولم يعرف عنها شيئاً فامسك عن الجواب متظاهرًا بالتألم من رأسه وغيَّر موضوع الكلام متجاهلاً عن المراد من كلامها فسكتت هي مكتفية بما دار بينهما وقد اجلت اتمام المكيدة لفرصة اخرى

ثم دخلت والدتها واخذت تخاطب سليما في شؤون مختلفة تطرقت منها الى حب والدته له الى ان قالت وفي علمي انها بعثت تستقدمك

الى اسكندرية وكتبت كتاباً اليك في ذلك يوم مجيء صديقك حبيب ثم لما جاء واخبرها بانحراف صحتك لم تتمالك عن الذهاب اليك بنفسها فالظاهر ان كتابها وصلك قبل وصولها هي فاتيت وهي لم تعلم

فقال سليم لم يصلني خطابها لاني كنت في حلوان قبل يوم سفري وقد انذرت ادارة البوسطة ان تحفظ كتبي حتى اتي بنفسي لاستلامها ولا بد ان يكون ذلك الكتاب محفوظاً هناك وقد ذكرتني الآن بوجوب الكتابة الى البوسطة في القاهرة ان تبعث بما يرد من الكتب باسمي الى هنا . قال ذلك وطلب قرطاساً وقلما وكتب الى ادارة البريد في مصر ان تبعث بما لديها من المراسلات باسمه الى الرمل في محطة كذا في البيت الفلاني وبعث الكتاب الى البوسطة ولبث ينتظر النتيجة

وفي الساعة الثانية بعد الظهر جاء بعض الخدم مهرولاً وهو يقول ان الست ام فؤاد قد حضرت فخفق قلب سليم وارتعدت فرائصه لهول ما ينتظره عند ما تصل اليه والدته لعلمه بشدة شغفها به وحرقها عليه . وما كاد يفكر في ذلك حتى سمع وقع اقدام مسرعة في الدار واذا بوالدته قد دخلت راكضة والقت بنفسها عليه صارخة ولدي سليم ولدي ومهجة كبدي قد حرقت قلبي يا ولداه عليك ولم اصدق ان عيني تراك بعد . . . ولدي حبيبي مهجة كبدي . قالت ذلك وهمت اليه وعانقته وضمته الى صدرها ودموعها تتساقط عليه وقد اغمي عليها لشدة الفرح فداركوها بالماء فرشوها حتى افاقت وهي تنادي واولداه حبيبي سليم قد احرقت قلبي عليك يا حبيبي ولم تتمالك عن البكاء والشهيق

فبكى هو وقبّل يدها ولم يبق احد من الحاضرين حتى بكى لبكائها لهول ذلك الموقف

فجاؤوها بكرسي جلست عليه بجانب السرير ويداها لم تفارق ولدها وهي تناديه ولا تصدق انها تراه لفرط ما قاست من لوعة فراقه والتحرق عليه

ثم نهضت وضمته الى صدرها قائلة كيف انت يا ولدي نحمد الله على سلامتك لماذا فعلت بنا هكذا يا حبيبي كيف تركت حلوان ولم تخبر احداً حتى شغلت بالنا وبال صديقك الحنون حبيب فقد فتشنا عنك مدينتي مصر وحلوان بيتاً بيتاً فلم نجدك ولو لم يصلني كتاب اخيك مساء امس لقضيت نحبي من شدة الحزن فالحمد لله على سلامتك يا ولداه كيف انت الآن

قال اني اشعر بتحسن في صحتي منذ قدمت الرمل من فضل هذه السيدة واشار الى الست وردة ففهمت والدته اليها وقبلتها وشكرتها على صنعها وتقدمت ميليا وقبلت يد والدة سليم بكل خشوع وتأدب وجلس الجميع يتجاذبون اطراف الحديث ويحمدون الله على النهاية واجتماع الشمل

وكان اكثر الجميع فرحاً بعد الوالدة ميليا لانها توسمت بما دار بينها وبين سليم خيراً

اما سليم فكان ذلك اللقاء لديه سبباً لتهييج اشجانه لتذكره ما دار بينه وبينها من الجدال وكيف انه كدر عيشها باصراره على عزمه بالاقتران

بسلمى وكيف انه كان مغشوشاً وقد انطلت عليه الحيلة فلبث مدة تتقاذفه تلك الهواجس وهو يهم ليقبل يدي والدته ويستغفرها عما صدر منه في حقها تعزية لاحزانها ولكنه تربص ينتظر فرصة يخلو بها على انفراد ولم يتمكن من تلك الفرصة الا في الصباح التالي اذ جلست الى سريره باكرًا ووردة وابنتها نائمتان وكانت الحمى قد فارقته منذ الامس فنام نوما هادئاً ففتح الحديث قائلاً كم انا نادم على ما فرط مني يا اماه حتى كدرت خاطرك واتعبت قلبك لجهلي وحماقتي

فقالت لا بأس يا ولدي انما يهمني الآن عودك الى الصحة وافعل ما يدالك فان اعتراضي عليك كان من الجهالة ايضاً ولكنني لم اكن اظن انك عالق بتلك الفتاة الى هذا الحد وانما كنت احسب انك مغرور بها او سبق منك قول بالعقد عليها على غير روية ولكن لما اخبرني حبيب بما بينكما وانك قد مرضت بسبب اصراري على منعك ذهبت الى القاهرة بنفسي لاخبرك اني راضية عن اية فتاة تختارها

فلما سمع سليم كلامها تأكدت لديه خيانة حبيب وسلمى وتواطؤهما عليه لان اعتراض والدته على زواجه بسلمى لم يطلع عليه احد غير سلمى وحدها فكيف عرفه حبيب فتحقق لديه ان سلمى اباحت له بامرها وتقدمت اليه ان يساعدها في اقناع والدته فجاء الاسكندرية خدمة لاغراض سلمى · ولما تصور ذلك ازداد حنقاً على حبيب وحدثته نفسه ان يبيح بحقيقة الامر لوالدته فامسك عنه رعاية لحرمة الحب القديم وخوفاً من استخفاف والدته به لانطلاء تلك الحيل عليه ولكنه قال لها · ان

امر تلك الفتاة قد اصبح في خبر كان ولم يعد لي مآرب فيها ولا اجري الا ما تريدينه انتِ وسابقي بين يديك طوع ارادتك فافعلي بي ما تشائين الا الرجوع الى سلمى فانك اذا التمست ذلك مني فلا اوافقك عليه

فعجبت والدته لذلك الانقلاب الغريب ولم تصدق انه يخاطبها باخلاص فقالت له قلت لك اني لا اخالفك ولا اعارضك في شيء فاختر الفتاة التي تريدها وانا اكون لها خادمة بقية حياتي اكراماً لك

فقال حاشا لله يا اماه فاني انما سعيت واسعى حتى اكون انا والتي ستكون معي خادمين لك اما كفاك ما قاسيتِهِ في ايامك فالآن انا طوع ارادتك انقاد الى اوامرك انقياد الاعمى الا في سلمى فاني قد وطدت النفس على تركها

قالت وهذا امر ليس مما يستعجل اليه الآن وانت لم تنقه من المرض تماماً وستتكلم بشأنه في فرصة اخرى ويجب عليك الآن قبل كل شيء الاعتناء بصحتك ومتى شفيت ننظر في ذلك الامر وكانت الشمس قد اشرقت ونهضت وردة وابنتها من الفراش فجاءتا للسؤال عن صحة سليم فطمأنتهما والدته باقترابه نحو الصحة واثنت على ما ابدتاه من الغيرة في خدمته

فقالت وردة ذلك فرض علينا وفرحنا بصحته ليس باقل من فرحك وقضوا ضحى ذلك اليوم بالاحاديث المتنوعة وميليا تنتهز فرصة للاختلاء بسليم لتتميم امرها وتوطيد المحبة فلم تتمكن لان والدته لم تفارق سريره لحظة

وفي الظهيرة حضر الغداء فتناولوه وسار كل الى فراشه للقيلولة لانهم كانوا قد تعبوا واصبحوا في حاجة الى الراحة

الفصل السابع والعشرون

﴿ كشف الخبا ﴾

اما سليم فبقي في سريره لا يستطيع رقادًا يجول في خاطره امر حبيب وسلمى وقد شعر بميل قليل الى ميليا . وفيما هو مستلق جاءه الخادم ببعض الكتب والرسائل الواردة عليه ببوسطة الصباح من القاهرة فتناولها واذا هي تنيف على العشرة لان البوسطة في مصر كانت تحفظ له كل ما يرد باسمه من الكتب ولما اوعز اليها ان ترسلها اليه الى الرمل ارسلتها دفعة واحدة

فأخذ يقرأ عنواناتها فوقعت عينه على كتاب بخط سلمى فخفق قلبه وانقبضت نفسه وفضه واخذ يقرأ واذا فيه :

ابعين مفتقر اليه نظرتني   فأهنتني وقذفتني من حالق

لست الملومَ انا الملومُ لانني   انزلت آمالي بغير الخالق

واعتباه يا سليم

كتبتَ اليّ كتاباً قرأته بدموع اليأس وانا حزينة باكية لاادري كيف أأول ما جاء فيه مما قد جعلتني به مرذولة خائنة وانا بريئة مما نسبته اليّ ولم افهم المراد به ولعلك كتبت كتابة معماة عن قصد

منك تلبساً واخفاء لحقيقة مرادك . ولبثت ساعات بل اياما انوح وابكي وما بكاي الا اسفاً على ما كان لي من الامال في حبك واخلاصك وغيرةً على عرضي الذي لم يمسه دنس وقد خدشته برجمك وتهمتك انا وحرمةِ الحب بريئة من كل ما يشين العذاري الطاهرات طاهرة نقية مخلصة لا عيب فيَّ غير اني سليمة القلب آخذ الاشياء بظاهرها لا اعرف المكر ولا التجيء الى حيلة ولا اعير اذني ولا قلبي لاحد . آه من هذا القلب الذي قد عصاني في حبك واغضبني في سبيل مرضاتك

ولكن سقياً لساعة جاءت بها تلك العجوز الى دارنا وقد توسمتُ فيها الخير منذ رأيتها وهي التي حملتها تلك الرسالة اليَّ وسرت في مركبتك لا ندري الى اين تسير . هي التي أنبأتني بمكنونات قلبك واخبرتني انك دفعت اليها ذلك الكتاب لا تبالي بما يؤثره على قلب هذه المسكينة التي قد مر عليها ايام لا تعرف الرقاد وما ذنبها الا انها ارادت تحمُّل المشقة بدلاً منك فحلَّت العقد الذي ربطته وخفتَ من بقائه مربوطاً حلَّته شفقة عليك ورفقاً بعواطفك وقنعت من آمالها بان يبقى سليم مطمئناً في وفاق مع والدته ورضيت بالشقاء والصبر على فراقك . هذا هو ذنبي الذي اقترفته فبعثت الي بكتابك الذي لم ترع فيه حرمة ولا ذكرت فيه محبة طاهرة تمكنتْ من هذا القلب الكئيب . كتبتَ اليَّ ذلك الكتاب لا تبالي بما يكون له من التأثير على هذه الحزينة التي لم تسمع مثل تلك الكلمات من احد على وجه هذه البسيطة

ولكنني احمد الله كثيرًا لاني قد كشفت المعمى وفهمت المراد من

تلك العبارات المبهمة التي انما اردت بها التخلص من عهودك جاعلاً الحق عليّ انا . فعلت ذلك لتتخلص مني وتذهب الى الاسكندرية ولا ادري ما لك في الاسكندرية . . . . لك فيها محبوبة تريد الجنوح اليها وقد نبذت سلمى من قلبك نبذ النواة . نبذاً قبيحاً لتحل به الفتاة الاسكندرانية على الرحب والسعة . هنأك الله بما تريد ولتتمتع تلك الفتاة بحبك ولا اذاقها الله ما اذاقني . وارجو ان اتيقن قبل الممات انك بلغت مرادك و وطنت نفسك وسكن جاشك . واما انا فقد كفاني ما قاسيته من شقاء هذا العالم واذا بقيت لسوء الحظ حية فاني لا اقيم بين الناس وما احسن المأوى الى دير منفرد او صومعة في قمة جبل لا ارى فيها احداً فقد كرهت مخالطة هذا العالم المنغمس في الدهاء والخيانة والغدر ويكفيني شاهداً ما قاسيته بنفسي ممن كنت احسبه اعز من نفسي ووهبته قلبي وملكته كل جوارحي وانزلت كل امالي فيه وخياله لا يبارح ناظري جلست او نهضت ليلاً او نهاراً اذا مشى تبعه نظري واذا جاء خفق له قلبي واذا تكلم رقصت له جوارحي واذا اشار فكلّي اصغاء واذعان لا ارتاح الا في رضاه ولا احن الا الى ذكراه واذا رقدت آنسني طيفه واذا استيقظت شاقني اسمه . ذاك هو سليم حبيبي القديم الذي هو اول من طرق باب هذا القلب ففتح له فتربع فيه . فاذا كان هذا الذي اعنيه قد نبذني ظهرياً غير مبال بعواطفي ولا مشفق على حياتي فممن ارجو المواساة وعلى من القي حملي وفي من اضع امالي . فمالي الا ان اقول على الدنيا ومن فيها السلام .

ولم اكتب هذا اليك الا لاعلمك ان حيلتك لم تنطل عليَّ ليس ذلك لسوء ظني فيك حاشا لله ولكن مخبرًا جاءني عفوًا واطلعني على حقيقة الحال · فما قد بلغنك عني فمش معافى وليطمئن ضميرك حتى تعيش سعيدًا · اما انا فاني لولا عتبي عليك وحزني على فراقك لعشت سعيدة لخلو ضميري من كل شائبة ولكن الاحوال هكذا قضت ولكل نفس اجل فاهنأ بما تعمل ولا تبـال بقتيلة حبك

سلمى

ولم يأت على تمام القراءة حتى تناثر الدمع من عينيه وهاجت به عواطفه واخذ يردد في ذهنه ويتذكر حاله الماضية وكيف كان في حبه مع سلمى طاهرًا نقياً خالياً من كل غش وكيف آل الى هذه النهاية واخذ يتذكر الاحاديث التي سمعها عنها وما عاينه بنفسه منها لعله يرى نقصاً في اختباره واجحافاً في حكمه عليها فرأى ان كل ما رآه وسمعهُ انما هو مؤسس على حكاية ذلك الرجل القبيح الوجه وتذكر انه طالما كان يرى ما بين سلمى وحبيب من الالفة ولا يبالي لاخلاصه ووثوقه · ولكن من يوم سمع حكاية داود تبلبل باله واساء الظن وصار كلما شاهد منها حركة يحسب لها حساباً فخامر ذهنه ريب في صحة حكمه ثم تذكر الورقة التي وجدها في كتاب حبيب فقال في نفسه وما هذه الورقة اذًا اليست بخط يدها وما الداعي لكتابتها اليه لولا المحبة الشديدة

ثم انتبه من هواجسه واخذ كتاباً آخر من تلك الكتب فاذا هو بخط يشبه الخط الذي كان يرد اليه من والدته فتذكر ان الست وردة

اخبرته بان والدته كتبت اليه كتاباً قبل يوم مجيئه تستقدمه فيه الى الاسكندرية فظنه هو ففتحه وحالما وقع نظره على اول سطر منه تعجب لان الخطاب موجه فيه لغيره وليس من والدته فاخذ يقرأه فاذا فيه

عزيزي الاجل الماجد الخواجه داود

بعد السؤال الخاطر نعرض انك كتبت الينا يوم وصولك القاهرة انك قابلت الشخص المعلوم ودبرت له حيلة لطيفة ليتخلص من تلك الفتاة وقلت انه لما سمع حكايتك عنها صدقها وظهر لك على وجهه امارات الغيظ وقلت اذ ذاك انك تنتظر ان يقع الخلاف بينهما في تلك الليلة ثم اخبرتنا عن لسان سعيدة انه لا يزال يتردد على البيت ويجالس الابنة كالعادة ولكن سعيدة عافاها الله فانها عملت حيلة لطيفة بسرقة ذلك الكتاب من جيبه

وكنا ننتظر ان يكون هذان الامران كافيين لاتمام ما نريد وها انا الى الآن لم نأخذ منهُ كتاباً الى والدتهِ لا سلباً ولا ايجاباً رغماً عما قلتموهُ من كتابة كتابها اليهِ فاخشى ان تكونوا انما تكتبون الينا لاجل تطمين بالنا فاذا لم يكن لكم امل في نجاح مشروعنا افيدونا حتى نتخلص من اثقال والدتهِ هنا ونقطع الامل وقد كفانا ما قدمناهُ لها من الهدايا وما اظهرناهُ من التقرب نحوها . وانت لا تنسى ان اتمام هذا الامر يربحك جانباً من الدوتة . وصدقني ياخواجه داود انني لولا ما اشاهدهُ في ميليا من الميل الى هذا الشاب ما كنت اهتم بهذا الامر الى هذا الحد

والآن لم نرَ بدًّا من مجيئهِ الى هنا فاغريت والدتهُ ان تكتب اليهِ

كتاباً تستقدمهُ وقلت في نفسي انهُ متى حضر الى هنا وبعد عن ذلك البيت يسهل علينا اقناعهُ وقد اتيت انا بنفسي وكتبت ذلك الكتاب وهذا وبعثت الاثنين في بوسطة واحدة فما عليك الاّ ان تراقب ما يأتيه من الاجراآت بعد وصول هـذا اليهِ واذا لم يحضر افدني ماذا أعمل . وفي الختام ادعو لك بالتوفيق بارك الله بهمتك وحفظك لمحبتك

وردة

وكان سليم يقرأ ذلك الكتاب ويعجب لذلك الاتفاق الذي دفعهُ اليهِ لتنكشف لهُ تلك الدسيسة التي افسدت ما بينهُ وبين احب الناس اليهِ وبقي برهة صامتاً مبغوتاً حتى ظن نفسهُ في حلم وصار ضميرهُ يبكتهُ وتذكر ما اقترفهُ بحق سلمى ظلماً وعدواناً فانفطر قلبهُ واشتدَّ حنقهُ على تلك الخائنة وذلك الرجل اللئيم وودَّ لو يراه حتى يذهب بحياتهِ ويخنقهُ بيدهِ غير ان تلك الاحساسات كان يتخللها فرح بزوال تلك السحابة من امام عينيهِ وهاجت اشجانهُ وازداد هيامهُ في سلمى فتناول كتابهـا وجعل يقرأهُ ويتحرق على ما سببهُ لها من الشقاء بمسارعتهِ في الحكم عليها وهي بريئة من كل عيب ولم يتمالك ان قبل ذلك الكتاب تطلعاً الى التي كتبتهُ .

واحس كأنهُ انزل عن ظهرهِ حملاً ثقيلاً وقد عادت الى قلبهِ العواطف القديمة والميل الشديد الى سلمى وتضاعف حبهُ لها واشتدَّ حنقهُ على وردة وداود وحدثتهُ نفسهُ ان يناديها ويوبخها او يمسك بعنقها ويخنقها ولكنهُ امسك نفسهُ واقتنع بنجاتهِ ونجاة تلك البريئة من التهم الدنيئة

ولبث برهة يتردد بين الحنق والسرور فاذا بوالدته قد دخلت عليه فحالما رآها تذكر كتبها اليهِ فقال لها اغلقي الباب وتعالي ففعلت وقد عجبت لذلك فلما دنت منهُ اجلسها الى جانبهِ واخذ يتلو عليها كتاب ورده فاحست كأنها كانت في غفلة وافاقت منها واطلعها على كتاب سلمى واحكى لها الحكاية من اولها الى آخرها

فبهتت وقد اخذ الاندهاش منها مأخذاً عظيماً وقالت نجنا يا رب من القوم المفسدين كيف استطاعت هذه المرأة ان تطلي عليَّ حيلتها كل هذه المدة اوّاه ماذا فعلت انا وكيف اني سببت لك ولتلك الفتاة الشقاء والبلاء

قال وليس ذلك ذنبك وانما هو ذنب هذه الفاجرة اللئيمة قبح الله اولاد الحرام اني والله لم اكن اصدق عن سلمى شيئاً قبيحاً لانها والله ملاك طاهر والآن ماذا افعل بهؤلاء الانذال انطلعهم على خيانتهم ونوبخهم ام كيف

قالت لا تجاز الشر باعماله يا ولدي وانما يجب علينا ان نتخلص من هذا البيت بالتي هي احسن بحيث لا يعلمون بانكشاف امرهم ومتى خلونا بأنفسنا نفعل ما نشاء والله يقتص من القوم الظالمين فالبدار الآن الى تدبير الحيلة لخروجنا من هذا البيت باقرب وقت

قال اني والله يا اماه منشغل البال على سلمى ولا ادري ماذا تم لها بعد كتابة هذا الكتاب لانها كتبتهُ بدموعها واحرقي عليها . وترقرقت الدموع في عينيه فانفطر قلب والدته لذلك وقالت لا تحزن يا ولدي

بل اشكر الله على نجاتك من هذه الورطة وعسى ان تلاقي خطيبتك في خير وتعيش معها في هناء وتنسى هذه المتاعب وتكون هذه الحكاية امثولة لك في مستقبل حياتك اما هؤلاء فطمهم بخيبة مسعاهم كافٍ لحسرتهم وشقائهم

قال سأتظاهر الآن بورود كتاب اليّ من القاهرة يستدعي سرعة الذهاب اليها وها اني بحمد الله قد شفيت من المرض فأستأذن بالذهاب ومتى نزلنا في بيتنا بالاسكندرية اكتب الى صديقي حبيب حفظهُ الله ان يذهب الى سلمى ويبلغها كلمتين عن لساني حتى تكف عن اليأس وتأمل بعودتي وبعد يوم او يومين اركب واياك ونسير الى القاهرة وهناك نلتقي بحبيبة القلب ونعزيها واذا ساعدتني التقادير فاعوض عليها تلك الاتعاب بسعادة دائمة فننسى هذه المشاكل

قالت حسناً تفعل وصمما على ذلك وقد هدأ بالاهما

الفصل الثامن والعشرون

﴿ حبيب وادما ﴾

فلنرجع الآن الى القاهرة ونرى ما ذا تم لسلمى بعد كتابة ذلك الكتاب فانها لم تكتبه الا بعد ان اقنعتها سعيدة بسوء نية سليم بذهابه الى الاسكندرية وكانت قد علمت بذهابهِ اليها من داود الذي ما انفك يراقب حركاتهِ حتى علم بذهابهِ من كتاب ورد اليهِ من

صديقته ورده فاخبر سعيدة وهذه تمايلت على سلمى حتى اغرتها على النفور من سليم ظناً منها ان هذه الفتاة متى علمت بخيانة حبيبها تقطع الامل منهُ وربما كتبت اليه ما يزيد نفوره منها فيتم لداود ما جاء من اجله فكتبت الكتاب وبعثته مع سعيدة الى البوسطة ووصل الى سليم كما قدمنا . وقد احست من تلك الساعة انها قطعت كل امل من حبيبها فازداد حزنها ولكن غلبت عليها الغيرة والحنق وهاجت فيها حاسة الانتقام وكان الضعف يقعدها عن كل حركة على انها افتقدت الورقة التي كانت طي كتابه فلم تجدها وكانت تحب ان تعيد نظرها عليها لعلها تعلم كيف كتبت ومن كتبها لعلمها انها لم تكتبها هي ففتشت عنها في كل مكان ظنتها فيه فلم تعثر عليها فازداد بلبالها ولكن ضعفها ويأسها غلبا عليها وشغلاها عن التفتيش عن الورقة

اما ادما فقد تركناها في غرفتها تندب سوء بختها وضياع امالها واخلاف حبيبها وقد هاجت فيها الغيرة حتى حرقت اسنانها ودموعها تتساقط على خديها وهي في غرفتها والغرفة مغلقة عليها وتلك الورقة في يدها تعيد النظر اليها وتعض على نواجذها ندماً لكتابتها وبعد قليل جاءت والدتها ووالدها فلما سمعت صوت صعودهما على السلالم اخفت الورقة وهمت الى الماء فغسلت عينيها اخفاء لبكائها وتظاهرت بانحراف في صحتها وجلست في السرير وقد اخذ اليأس منها مأخذاً عظيماً جداً وكم نقمت على الشبان وضعف طبيعتهم وودت لو بقيت كاتمة ما في قلبها حتى يميتها ولا يعلم بها احد

واخذت تفكر في وسيلة تتصل بها الى تحقق ظنونها صريحاً وكانت تود الالتقاء بحبيب حتى توبخه وتعاتبهُ ولكنهُ لم يأْت اليها ولا هي قادرة على الذهاب اليه حتى انها كانت عند الالتقاء به تشعر بنفور وارتجاف بسبب الغيرة واليأْس وخافت اذا خاطبتهُ ان تسمع منهُ ما يشينها او يحقرها فبقيت تتردد بين الامرين حتى المساء وقد اقنعت والديها انها تشعر بقشعريرة ولذلك فضلت البقاء في السرير فصدقاها وهما في غفلة عن امرها جملة

وفي اليوم التالي نحو الساعة الثالثة بعد الظهر بينما هي مستلقية على سريرها ووالدتها تدبر بعض مهام البيت ووالدها غائب سمعت طرق الباب فخفق قلبها لتذكرها انتظارها طرقه من حبيبها الاسبوع الماضي وكم كانت ترتجف لسماع صوت المركبات والصعود على السلم وكم كانت تطل على الشارع تراقب المارين واحست بمقدار ما ارتكبته بذلك من الخفة التي كانت تنفر منها فهاجت بها اشجانها حتى ترقرقت الدموع في عينيها

ثم سمعت الباب قد فتح وصوت شفيقة ووالدتها داخل الدار فازداد خفقان قلبها وتعاظم ارتعاشها وحسبت لقدومها الف حساب وبينما هي في ذلك سمعت قرع باب غرفتها ثم دخلت عليها شفيقة شقيقة حبيب فحالما رأتها ادما لم تتمالك عن البكاء وقد ثارت فيها عوامل الاشجان فحيتها شفيقة وهمت بها فقبلتها وسأَلتها عن سبب رقادها فقالت انها احست بالامس ببرد ففضلت الالتجاء الى الفراش خوفاً من المرض فاخذت تخفف عنها وتعزيها بعبارات تشف من اخلاص ومحبة يتجلى في وجهها

ملامح الطهارة والبساطة وهي لا تبرح مبتسمة مشرقة فتصورت ادما سذاجة شفيقه وبساطة قلبها وخلوهـا من لواعج الحب فهاجت اشجانها ولكنها امسكت نفسها عن البكاء خوفاً من الفضيحة واليأس وقالت لشفيقة

اهلاً بك يا عزيزتي ماذا جرى حتى خطرنا ببالك واتيت لزيارتنا قالت ذلك وتذكرت ما كتبته لحبيب فتناثرت دموع الندم من عينيها

فاجابت شفيقة بتبسم باسم قائلة لاغنى لنا عن زيارتك يا عزيزتي ادما ولكننا كنا في شاغل مهم جدًّا هذين اليومين بسبب مرض الخواجه سليم

قالت وماذا جرى له

قالت اصيب بحمى شديدة فدعوناه ليقيم عندنا في حلوان وكان اخي ملازماً له اكثر الاوقات لانه كما تعلمين صديقه العزيز وقد نزل الى الاسكندرية اول البارحة ليأتي له بوالدتهِ فجاءت بالامس وكان سليم قد غافلنا وخرج من حلوان ونزل الاسكندرية ونحن لا نعلم فلما جاءت والدته مع اخي بالامس لم نجده فانشغل بالنا عليه كثيرًا فاضطر في ان يطوف القاهرة للتفتيش عنه وبتنا البارحة على جمر الغضا حتى ورد علينا كتاب منهُ من الاسكندرية يخبرنا انهُ توجه اليها فسارعت والدتهُ اليه فارتاح بالنا نوعاً شفاه الله فاغتنمنا هذهِ الفرصة وجئنا لزيارتكم

فخف بلبال ادما نوعاً لاطلاعها على سبب تغيب حبيبها هذين

اليومين ولكنها تعجبت لعدم مجيئه معها لزيارتها في ذلك اليوم وارادت ان تسأل شفيقة عن ذلك فأمسكها الحياء ولكنها قالت لها بالحقيقة اني آسفة لمرض سليم وهل علم هو بمرض سلمى ام هي مريضة بسبب مرضهِ لاشتراكها معه بالاحساس

فضحكت شفيقة ضحكة البساطة وقالت وما الداعي لمرضها اذا مرض هو

قلت سامحك الله الا تعلمين انها مخطوبة لهُ وهي تحبهُ حباً شديدًا وخطبتها لا تزال سرية

قالت نعم اعلم ذلك ولكنني لا أري داعياً لمرضها بسبب مرضه

فغبطتها ادما لسذاجتها وخلو ذهنها من عوامل الحب وتنهدت

فتقدمت اليها شفيقة وقبلتها بلهفة واخذت في الضحك. فعجبت ادما لضحكها بغير سبب ظاهر. فقالت لها ما بالك تضحكين. فازدادت في الضحك وقبلتها ثانية فازداد تعجبها

فقالت شفيقة مالك لا تسألين عن حبيب وعدم مجيئه معنا

فحالما سمعت اسمه علا وجهها الاحمرار وخفق قلبها وخافت انكشاف امرها ولكنها تذكرت ان شفيقة لا تلحظ ذلك منها لعدم معاناتها الحب وجهلها ظواهرهُ ولكنها قالت لها لم اسأل عنهُ لاني ظننتهُ مشغولاً والرجال كثيرو الاشغال

فامسكتها شفيقة بيدها قائلة لا لا هو غير مشغول قط وقد تركناه في البيت وحده

قالت وما الداعي لمجيئه هل من الضروري ان يسير معكما حيثما تتوجهان

قولت ليس حيثما نتوجه ولكن خصوصاً الى هنا

فقلقت ادما ولم تفهم مرادها فقالت لها مالي أراك تخاطبينني بالالغاز والرموز يا شفيقة

فضحكت شفيقة حتى استلقت ثم قالت هل تعلمين لماذا أتت والدتي اليكم الآن

قالت أتت لزيارتنا

قالت ولماذا أيضاً

قالت لا اعلم ألعلي نية يا شفيقة ما بالك تكثرين من هذه الاسئلة

قالت قولي ان كنتِ ذكية

قالت لست ذكية بحمد الله

قالت ولكنهم يعيّرونني بحذقك ونباهتك فالآن ظهرت لي سذاجتك

قلت ومن أين لي ان افهم الغيب

قالت اتينا لامر يهمك

قلت (وقد استلمحت المراد وتجاهلت) اذاً قد أتيتما لتسألا عن صحتي لانكما علمتما بمرضي

قالت ومن أخبرنا بمرضك . لا لم نأت لهذا

فقالت نافرة اذاً أتيت لتعذبي يا عزيزتي شفيقة دعينا من هذه السؤالات الباردة

قالت ضاحكة صدقيني انها ليست باردة ابدًا ومتى اخبرتك عن سبب مجيئنا تعلمين انها سؤالات حارة كالنار

قالت قولي لقد بردتِها بحديثك يا شفيقة

فضحكت شفيقة وقهقهت ثم قالت قد جئتك ببشارة جيدة لك ولكنها تسرني اكثر مما تسرك

قالت قولي بحياة المحبة لقد نفد صبري

قالت اتينا حتى نخطبك لاخي فما قولك

فلما سمعت ادما ذلك غلب عليها الحياء مع ما خالج قلبها من السرور ولكنها انكرت ذلك قائلة دعينا من هذا المزاح يا شفيقة بالله عليك لانهُ مزاح مستهجن ولا سيما بين البنات

قالت أراكِ لا تصدقين مقالي

قالت حقيقة اني لا اصدقهُ . دعينا من هذا الحديث واخبريني عن هذا الفسطان من اين ابتعت قماشه

قالت لا تضيقي عليّ الحديث ان والدتي الآن في خلوة مع والدتك تحادثان بهذا الشأن ولهذا السبب لم يأت اخي معنا . وانا قد علمت ذلك من والدتي قبل مجيئنا ولو تعلمين كم كان سروري لأني أحبك مثل نفسي واعد هذا الامر من اول اسباب السعادة لي واحفظي هذا الكلام في سرك حتى تعلميه من والديك ولكنك صرت من هذه الساعة قريبة لي . قالت ذلك وهمت اليها فقبلتها فقبلتها ادما وقد ابرقت اسرتها ولمعت عيناها وزالت عنها اشجانها واطمأن بالها ونسيت ما مر بها

من الشقاء ولامت نفسها لاتهامها حبيباً بالفتور وهو براء منه . وزادت اعجاباً بشهامته لما اظهره من الغيرة على مصلحة صديقه ولكنها ما برحت متعجبة لسبب وصول ورقتها الى بيت سلمى فتركت ذلك لتسأل حبيباً عنهُ متى تم امر الخطبة

اما والدة حبيب فكانت حقيقة منفردة بوالدة ادما تخبرها عن رغبتها في خطبة ادما لحبيب فقالت هذه انت تعلمين يا عزيزتي قبل الآن اني احب حبيباً واعتبره ولداً لي بعزة ادما وسواء تم امر الخطبة اولم يتم فهو ولدنا واعز

فقالت والدة حبيب بورك فيك يا عزيزتي وهذا نعلمهُ علم اليقين ولا يخفى عليك اننا لولا سابق الائتلاف بيننا وما تعلمينهُ من حبي لك وحب شقيقة للست ادما وارتياح حبيب لها واعجابه بلطفها وتهذيبها مع علمه بمحبة الخواجه سعيد لهُ ما تجرأنا على هذا الطلب فهل تظنين الخواجه سعيداً يمانع في ذلك

قالت لا اظنهُ يمانع قط ولا سيما لما ذكرتِ من حبه للخواجه حبيب لان الخواجه حبيباً من الشبان الادباء الساهرين على اشغالهم المكبين على القراءة والاستفادة فانا متحققة تقريباً بموافقته اياتا بذلك في الامر ولكن يجب علينا ان نتبع الاصول مراعاة لمقامه فانا افاتحه هذه الليلة بهذا الحديث واخبرك بماذا يتم

قالت حسنا ولا يبرح من بالك ان تسألي الست ادما ايضاً اذ ربما ترى مانعاً

قالت العفو يا سيدتي انها تتشرف بكم ونحن نتشرف بذلك ايضاً

ثم نهضت والدة حبيب ودخلت غرفة ادما وهمت اليها معجبة وقبلتها قبلة قوية وسألتها عن صحتها فقالت ليس هناك ما يوجب القلق وبعد قليل انهض من الفراش باذن الله

قالت سلامتك يا عزيزتي سلامتك ربنا يشفيك ويبقيك وجلست الى جانبها تلاطفها وتحادثها وبعد شرب القهوة والجلوس مدة نهضت شفيقة ووالدتها واستأذنتا وقبلتا ادما وودعتا والدتها وخرجتا

الفصل التاسع والعشرون

﴿ عوامل الغيرة ﴾

ولنعد الآن الى حبيب الذي تركناه يفتش عن صديقه سليم وقد علمنا انه علم بوجوده بالاسكندرية من كتاب فؤاد وبعث اليه بوالدته ولما ارتاح باله عليه عاد الى امره مع ادما وفي مساء ذلك اليوم جلست والدته اليه وذكرته بما دار بينهما بشأنها فرأت منه البقاء على عزمه بخطبتها فاقرّا على ان تذهب والدته لاستطلاع افكار والدتها سرًّا فاذا آنست منها الرضاء تأتي بحبيب ويعقدوا الخطبة رسمياً بحضور والدها

فذهبت والدته وشقيقته كما قدمنا ودار بينها وبين والدتها ما دار فعادت اليه وهو في انتظارها بفروغ صبر فاخبرته بما كان فسر ولكن شعر بحمل ثقيل ركب كتفيه وظهرت على وجهه امارات الانقباض

وهو لا يعلم لذلك سبباً

فلحظت والدته منهُ ذلك فسألته عن سبب انقباضه فانكرهُ عليها فقالت ولكن أراك منقبض الوجه وأظنك شعرت بثقل مستقبلك وما تقتضيه الزيجة من المهام

قال لا اعلم ربما كان ذلك السبب

قالت ولكن متى تريد عقد الخطبة

قال متى أردت أنت وخير البر عاجله

قالت صدقت ولكنني فارقت ادما في الفراش فربما كانت متوعكة المزاج فالاولى بنا التربص ريثما تمتلك صحتها

فانشغل بالهُ عليها وسألها عن سبب مرضها فقالت لم أسألها عن ذلك تأدباً ولكن اظنها منحرفة انحرافاً بسيطاً والصبر أولى

فقال اني موافق لك في ذلك لا سيما وان صديقي سليماً يكون قد جاء فنعقد الخطبة بحضوره ولكن سليما مسكين كم قاسى من الاهوال في خطبتهِ وما ظنك بوالدته بعد ما جرى

قالت اظنها توافقه لان قلب الوالدة حنون يا حبيب فاذا تحققَتْ سبب متاعبه تجتهد ان تزيلها باية وسيلة كانت ولكن سلمى مسكينة ايضاً لانها قاست مصاعب جمة من جراء ذلك حتى اثر ذلك في صحتها

فقال ولكن متى علمت بانقضاء الازمة تتوجه نحو الصحة على ما اظن

قالت هذا هو الارجح

وسكتا برهة لا يتكلمان ثم قال حبيب وهل تظنين اني استطيع زيارة ادما هذين اليومين يا اماه

قالت أرى الانسب أن لا تزورها اذ ان العادة أن يمسك الشاب عن زيارة الابنة في الفترة بين التكلم بالخطبة وعقدها وهي مدة قصيرة ومتى عقدت عليها تزورها كل يوم اذا شئت ولو لم يكن هناك كلام بشأنها لما كان ثم مانع من زيارتها

فتكدر لذلك ولكنه انصاع لمشورة والدته وقبل بالانقطاع عن الزيارة موقتاً رغماً عن شدة ميله لزيارتها

وباتوا تلك الليلة واصبح في اليوم التالي وسار الى شغله كالعادة وهو يفكر في أمره وامر ادما وسليم وسلمى وفي اليوم التالي ورد اليه كتاب سليم يقول لهُ فيه :

اخي الحبيب وصديقي الحميم حبيب

لي كلام طويل اقولهُ لك عند الاجتماع قريباً باذن الله وانما اكتب اليك هذا راجياً ان تذهب الى سلمى وتقول لها هاتين الكلمتين سرًّا لا يسمعكما احد وهما

« ان سليماً في خير ورضاه وخجل يسلم عليك سلاماً زكياً ويطلب اليك ان تكوني في راحة واطمئنان وان تعدي نفسك للعفو عما ارتكبهُ في حقك »

وبعد ان تقول لها هذا تجتهد في تسليتها واقناعها بانتهاء المصاعب واني ساكون عندكم قريباً واقص عليكم قصة من أعجب القصص التي

طرقت آذانكم ولي من كل منكما عفو التمسه مقدماً وعند المشاهدة تتجلى لكم الحقيقة

اختم هذا بالتحية والاكرام ودم سالماً لصديقك الودود

سليم

فلما تلا الكتاب عجب لما جاء فيهِ من العبارات المبهمة ولكنهُ حملهُ على ما علمهُ مما كان من تغير والدتهِ عليهِ وان تلك العقبة قد زالت فاحسَّ بارتياح كلي الى تلاوة ذلك الخبر وسرَّ لزوال الازمة عن صديقهِ وسار توًّا الى والدته وبشرها بذلك فشاركته في السرور

ولكنهُ أَخذ يفكر في تبليغ تلك الرسالة وكيف يبلغها سرًّا بينهُ وبين سلمى وربما لا يتأَتى لهُ ذلك ولكنهُ اسرَّ عزمهُ الى والدتهِ وقال لها لا بد لك من ان تساعديني في هذا الامر لان الاذعان الى اشارة صديقي سليم امر واجب وقد خدمته جهد طاقتي حتى الآن فيجب ان اتم الخدمة وهذا اهم ما اقوم به نحوه فما رأيك

قالت ذلك أمر هيّن وفي صباح الغد نسير مع شقيقتك شفيقة لزيارة بيت الخواجه سليمان وفيما نحن في قاعة الاستقبال تدخل أنت وشفيقة لزيارة سلمى اذا كانت لا تزال مريضة حتى اذا جلستما قليلاً ادعو انا شفيقة فاشغلها في شيء فتخلو بسلمى وتقص عليها ما تريده

فاستحسن الرأي وفي الصباح التالي احتال للغياب عن شغله فتأَهبوا جميعاً للذهاب فركبوا القطار من حلوان الى القاهرة وساروا الى بيت الخواجه سليمان ولم يكن الخواجه في البيت فاستقبلتهم الوالدة

وهي لا تزال منقبضة الوجه لازدياد مرض ابنتها فدخلوا قاعة الاستقبال وهم يسألونها عنها وهي تشكو لهم حالها وضعفها وبعد ان جلسوا هنيهة قالت والدة حبيب لابنتها قومي عودي سلمى يا حبيبتي فقال حبيب وهل أقدر ان أراها انا يا سيدتي (ووجه الخطاب لوالدة سلمى) فقالت نعم يا ولدي وما المانع من رؤيتها وانتَ أعز من أخيها واشد غيرة عليها من الاخ

فنهض حبيب وشفيقة ودخلا غرفة سلمى بعد الاستئذان فاذا هي في الفراش وقد هزل جسمها وامتقع لونها وغارت عيناها فلما رآها حبيب أشفق عليها واشتدت فيهِ الشفقة حتى ترقرقت الدموع في عينيهِ

أما هي فحالما رأتهُ لم تتمالك عن البكاء لتذكرها حبيبها سليماً وما دار بينها وبينهُ ولكنها أرادت التجلد فلم تستطع لضعفها فغلب عليها البكاء فمسحت دموعها بمنديلها وحينئذٍ فتقدمت اليها شفيقة والدموع ملء عينيها وقبلتها وسألتها عن حالها فاجابتها انها في حال شديدة من الضعف لا ترجو معها النهوض من الفراش فبكت شفيقة وحزن حبيب ولكنه تذكر انه جاءها بخبر مفرح فاشتد ميله الى الاختلاء بها حتى يخبرها بهِ وجلس ينتظر ان تخرج شفيقة كما وعدته والدته بالامس فسمع والدته تناديها .فخرجت شفيقة الى والدتها تسألها عما تريد فقالت لها اعطني شربة ماء فذهبت لتأتيها بها فتذكرت ادما فمالت الى استدعائها من شباك الجيران لتأتي وأرادت بذلك ان تداعبها بمشاهدة حبيب هناك

ولما سمعت والدة سلمى احتياج زائرتها للماء خرجت هي بنفسها وجاءتها بقدح منه اما شفيقة فذهبت الى بيت الجيران ونادت ادما وهي تظن انها تصنع حسناً معها ومع اخيها

فلما سمعت ادما نداءها جاءت مسرعة وهي ترجو ملاقاة حبيبها هناك وقلبها يرقص فرحاً فدخلت البيت محيية وقبلت شفيقة وسلمت عليها فامسكتها هذه بيدها وهي تضحك كعادتها وقادتها الى غرفة سلمى ودخلت بغير استئذان قائلة لها سرًا «تعالي حتى اريك شخصاً تحبينه» فدخلت ادما واذا بحبيب جالس على الكرسي الى جانب سرير سلمى ممسكاً بيدها وهما يبكيان وفي يد حبيب ورقة

فحالما رآها حبيب بهت وعلا وجهه الاحمرار وظهرت عليه امارات البغتة وهمَّ الى منديلهِ يمسح بهِ عينيهِ وقد ارتبك في أمرهِ لا يدري كيف يخفي حالهُ ولا كيف يتعلل عن سبب وجوده منفردًا مع سلمى في تلك الحالة واسرع الى الورقة وجعلها في جيبه بسرعة

فحالما رأتهُ ادما في تلك الحال غلبت عليها الغيرة وانقلب سرورها الى كدر وودت العود حالاً والاختفاء وندمت على مجيئها ولكنها تجلدت ودخلت محيية وسألت عن صحة سلمى فوقف لها حبيب مسلماً وهو يرتجف وقد امتقع لونهُ وظهرت عليهِ مظاهر البغتة والارتباك فلما لمس يدها احس بها باردة كالثلج وهي ترتعش وآنس في كلامها نشوفة واعراضاً فانقبضت نفسهُ واعرض عنها فازداد انقباضها فتحولت من الغرفة وخرجت فتبعتها شفيقة وهي لا تزال تمازحها ولم تنتبه لما تخاطب

به قلبا حبيب وادما . فقالت لادما مالي اراك خارجة الملك لم تسري بمشاهدة حبيب . فازدادت انقباضاً وسارت الى باب الدار تريد الخروج فحاولت استبقاءها فلم تقبل وحاولت الاعتذار فالحت عليها بالبقاء فنفرت منها وخرجت رغماً عنها وقد اخذت الغيرة منها مأخذاً عظيماً جداً فتركتها وعادت وهي لا تفهم ما سبب انقباضها وغضبها ودخلت غرفة سلمى فلما رآها اخوها وبخها لدخولها بادما بغير استئذان وسألها عنها فقالت انها خرجت مغضبة ولم ترد البقاء فقال لها وما سبب غضبها قالت لا اعلم وربما غضبت من سلامك البارد عليها

فازداد غضبهُ وقال لها وماذا تنتظر مني العلها تنتظر ان اعبدها. وقد اراد بذلك التظاهر امام سلمى بان ليس بينهُ وبين ادما ما يوجب كثرة الامل . وعاد فقال لشقيقة كم قلت لك ان تتركي هذه البلاهة وتنعقلي اخرجي من هنا فخرجت شفيقة وقد تكدرت من كلام اخيها فحدثتها نفسها ان تسير الى ادما وتعنفها لأنها كانت السبب في غضب اخيها عليها فخرجت وهي تبكي وسارت الى بيت ادما فاذا هي في غرفتها منقبضة الوجه يئسة ووالدتها في شاغل بالمطبخ

فقالت لها كثر الله خيرك يا ست ادما ها ان اخي قد اهانني من اجلك ووبخني لأني دخلت بك عليه بغير استئذان

وكانت ادما في معظم الحنق وقد اشتدت فيها الغيرة وتحققت ظنها بحبيب وان والدتهُ وشقيقته انما جاءتا للتكلم بشأنها بغير ارادته فلم يأت لزيارتها بعد ذلك ثم رأتهُ في تلك الحال مع سلمى باكيين

فلم يكن عندها شك بحبه لسلمى واشتد بها الغيظ واليأس والندم على ابتذالها نفسها حتى لم تعد تعلم ما ذا تقول

فلما سمعت تعنيف شفيقة لها انتهرتها قائلة وما ذنبي بدخولي فاني لم اكن عالمة باختلائه بسلمى ولم يخطر ببالي ان شاباً في حاله يجالس ابنة وهي في سريرها وليس احد غيرهما في الغرفة واذا كنتِ انتِ عالمة بذلك فلماذا ادخلتِني يا عزيزتي

فتكدرت شفيقة لذلك الانتهار الذي لم تكن تنتظره من ادما لشدة املها بها ولما علمتهُ من انها ستكون قرينة لاخيها فغلب عليها حب الانتقام فقالت مغضبة وكيف يكون الحق عليَّ يا ادما وما المانع من وجود اخي مع سلمى في الغرفة وهي مريضة فما هذا الا من سوء ظنك باخي ويا خسارة الامل والمحبة

فأغضبها ذلك وقالت لها لا أدري ما المانع من وجوده معها في خلوة وعيناها تدمعان ولما رأياني بهتا واخفيا الورقة التي لا أدري ما فيها و . . . .

فقطعت شفيقة الكلام عليها قائلة فاذاً تقولين ان اخي يحب سلمى ام كيف . . . وأسفاه على الفرح الذي فرحته من اجلك

فصاحت ادما وقد غلب عليها البكاء ما هو هذا الفرح بل يجب أن تحزني عليَّ أنا المسكينة التعيسة الشقية . وأخذت تشهق من شدة البكاء

فازداد غضب شفيقة غيرة على اخيها وقالت كثر الله خيرك يا ادما

هذا جزاء المحبة أتحسبين اقترانك بأخي تعاسة وشقاء بل هو التعيس اذا اقترن بك وهل تظنين انهُ يشتقك او يموت من اجلك فانهُ في غنى عن هذه السعادة وهو اذا طلب ابنة اكبر الاغنياء ينالها فعلى اي شيء تفتخرين عليه بجمالك ام بشرفك ام ...

فاجابتها ادما وقد اشتعلت بها عواطفها غيرة وحنقاً و يأساً وقالت كفي عن هذا الكلام ولا حاجة الى هذا التعيير فها اننا لا نزال كما كنا ولم يحصل شيء وكل منا في بيته ولا حاجة لاستماع هذا التعيير منك ولا تنسي ان اخاك ليس من اصحاب الثروة فهو لا يملك الا ماهيته ولا يأتي آخر الشهر حتى ينفقها والرفت يتهدده كل ساعة ...

فارادت شفيقة ان تجيبها فاذا بوالدة ادما داخلة وقد سمعت صراخهما فقالت ما بالكما تصوتان

فصاحت ادما بصوت مرتفع وقد غابت عن الصواب اتركيني يا اماه اني لا اريد هذا الرجل قط والموت افضل لي من ....

فاجابتها شفيقة بحنق وهو لا يريدك ومن انت حتى تكوني خادمة عنده ابقي في بيت ابيك . وتركتها وخرجت وهي تنقم عليها وقد احمرت عيناها من البكاء وبح صوتها من الصراخ

فوصلت بيت الخواجة سليمان واذا باخيها ووالدتها خارجان فخرجت هي معهما وعيناها تتقدان غيظاً فسألاها عن سبب ذلك فاخبرتهما بالقصة وبالغت في قحة ادما وسوء ظنها الى ان قالت وقد عيرتنا بالفقر وقالت ان اخي لا يملك شيئاً وانها لا تريده

فحمي غضب حبيب وتذكر انها هي التي احبته اولاً وكتبت اليه ذلك الكتاب فاشتد به حب الانتقام ولم يعد يتمالك من الغيظ لا سيما وانه لم يكن شديد التعلق بها كثيرًا فاحتقرها وكرهتها نفسه وقال لوالدته قبح الله النساء ما اقدرهن على التظاهر بالكمال ومن افاع سامة كيف تجرأ هذه الدنيئة على مثل هذا القول وهي التي عرضت نفسها عليّ وتذللت حتى حنّ قلبي عليها ولم اقبل بها الا شفقة عليها قبح الله الساعة التي عرفتها بهـا ما اشد مكرها واردأ ظنها كم كنت اقول لك يا اماه اني لا اريد التزوج ولم يكن خوفي الا من مثل هذا الامر فها اني قد وقعت فيه

فابتدرته والدته بالكلام قائلة وبما ذا وقعت ها انها في بيت ابيها وانت في بيتك والحمد لله اننا لم نعقد خطبة ولا زيجة فلنتركها وشأنها ونرى من يقبل عليها فان البنات في هذه الايام لا يتزوجن الا يبذل اموال والديهنّ بعد شق الانفس فانزعها من بالك ولا تهتم بها وانظر الى الفرق بينها وبين هذه المسكينة سلمى كم قاست من سليم ولا تزال تحنّ اليه وتشتاقه

فقالت شفيقة وقد سرّت من نفوذ غايتها دعونا من هذه الابنة. ولك عليّ يا اخي ان اختر لك ابنة ليس اجمل منها ولا اكثر من مالها

فقال حبيب لا. لست بمتزوج قط لاني لا ارى بين النساء تفاضلاً وكل واحدة اشد مكرًا من الثانية. وساروا وهم في ذلك الحديث وامثاله حتى وصلوا محطة حلوان فركبوا القطار الى حلوان

اما ادما فقد تركناها ووالدتها قد دخلت عليها وسمعت منها انها لا تريد حبيباً فلما خرجت شفيقة اخذت تستفهم عن سبب غيظها فلم تسمع منها الا البكاء والنحيب وهي تقول لا لا اريده ولا اريد احداً سواه قبح الله الرجال ولعن الله ساعة ولدت فيها ابنةً دعيني يا اماه فقد زهقت روحي ونفذ صبري

فانكسر قلب الوالدة وجعلت تخفف عن ابنتها وتعيد عليها السؤال قائلة ما بالك يا ادما لماذا لا تخبرينني بجلية الخبر ألست والدتك ومن لك في العالم ممن تطلعينهم على سرك اصدق مني اخبريني بحياة التربية

فهمت اليها ادما والدموع تتساقط من عينيها وقبلتها قائلة نعم يا اماه انت تعزيتي الوحيدة في هذه الدنيا وليس لي سواك ولكني اقول لك اني لم اعد اريد حبيباً ولا سواه

فقالت ولماذا لا تريدينه وهو يحبك كثيرًا وقد بعث يخطبك منا

قالت لا. لا يحبني يا اماه بل يحب سواي آه منهُ ما اقسى قلبه وما اجمد دمهُ

فاندهشت الوالدة عند سماع ذلك منها وقالت كيف تقولين ذلك ومن يحب سواك

قالت انا اعلم من يحب . انا اعلم . ولكن لا بأس ....

فعاودتها السؤال والحت عليها في الايضاح وحلفتها فقالت انهُ يحب .... وتوقفت عن الكلام

قالت قولي ولا تترددي قولي يا عزيزتي لا تخفي عني شيئاً اذ

لعلك تكونين مخطئة في ظنك

قالت لا لست مخطئة انهُ يحب سلمى ويحب سلمى وقد تأكدتُ ذلك حتى لم يعد لدي اقل ريب فيه

قالت وكيف عرفتِ ذلك واذا كان يحبها لماذا لم يخطبها منذ زمن مديد وهو يتردد على بيت والدها وسلمى فوق ذلك مخطوبة يا ادما فارفعي هذا الفكر من بالك

قالت وقد ازدادت غيرتها لا اعلم لماذا ولكنني اعلم انهُ يحبها حباً شديداً ولا يكترث بي وقد لحظت منه ذلك قبل الآن وكنت اغالط نفسي اما الآن فقد تحققت الامر حتى لم يعد لدي شك فيه قط. هو يحبها وهي تحبه والسلام

فامسكتها والدتها بيدها واجلستها على السرير وجلست الى جانبها وجعلت تمسح لها عينيها بيدها قائلة خففي عنك واخبريني القصة كما توهمت

قالت لا اقدر احكيها لك لان فرائصي ترتعد عند ما افتكر بها دعيني وشأني

قالت لست تاركة اياك حتى تخبريني والا فاني اتكدر منك

فعند ذلك سكنت ادما روعها وقصت على والدتها القصة من اولها الى آخرها ولكنها لم تذكر امر الورقة التي بعثت بها اليه ولا ما يتعلق بها

فعند سماع ذلك قالت لها والدتها لا اراك الا متوهمة يا ادما لأني

لم افهم من هذه القصة انهُ يحبها وانما افهم انه يتردد على بيت الخواجه سليمان. وهو يتردد عليه من زمان وهم يحبونهُ كثيرًا وهو يحب سلمى محبة الاخ لأخته والاّ لما كان ثم ما يحملهُ على ارسال والدته للتكلم معي بشأنك

فارادت ادما ان تخبرها عن الورقة التي بعثت بها اليه وانها هي التي حملتهُ على ذلك فمنعها الحياء فسكتت برهة ثم قالت لا ادري ما الذي حملهُ وانما اعلم انهُ يحب سلمى ولا يحبني ومهما كان من الامر فيجب عليَّ ان اقطع كل امل منهُ واعود الى حالي الاولى

فوقعت والدتها في حيرة من ذلك ولو كانت نبيهة لادركت ان وراء سكوت ادما شيئاً تخفيه ولكنها كانت سليمة النية على جانب من السذاجة فقالت تمهلي يا ابنتي بحكمك ولا تستعجلي في غضبك فان مثل حبيب لا يعامل هذه المعاملة لأنهُ شاب مهذب مجتهد يقل امثالهُ. ولا يخفى عليك يا ولداه حال البنات الآن وقلة الطلاب فاذا فتح لك باب مثل هذا يجب عليك التأني والصبر واخذ الاشياء بالتؤدة حتى تنجلي لك الحقيقة لان غضبك على هذه الصورة فضلاً عن انهُ يخسرك هذا النصيب فانهُ ربما جلب عليك العار وتحدث الناس فيهِ فالصبر اولى يا ولداه اذ يغلب على ظني ان حبيباً بريءٌ من هذه التهم ولم يسبق ان تحدث عنهُ احد مثل هذهِ الاحدوثة

وعلى فرض انهُ يحب سلمى فانهُ متى تم النصيب وصار قريناً لك لا يعود ثم ما يكدرك ولا يعود لهُ فرصة للافتكار بسواك

فخجلت ادما عند سماع كلمة الاقتران وعلا وجهها الاحمرار وبعد

السكوت برهة قالت كيف آمل فيه وهو يحب غيري هذا شيء لا استطيعه ولو كنت انت في مركزي ما فعلت اقل من فعلي

فاجابتها والدتها انا لا الومك على غيرتك وحبوط امالك ولكن كما قلت لك يا ولداه ان البنات الآن يتخذن كل وسيلة حتى يستطعن استمالة الشبان اليهن واذا احست الفتاة منهن ان شاباً يحبها او يميل اليها تبذل قصارى جهدها في ارضائهِ وتغضي عن كل ما تراه فيه من مثل هذهِ الامور علماً منها انها متى ملكت غايتها وتزوج بها يصير مضطرًا لارضائها ويصبح كل احد سواها غريباً . وانا اجلك عن كل دنيئة ولا ارضى منك بالتزلف الى احد قط ولم اذكر لك ذلك الا على سبيل المثال لكي لا تستعظمي مصيبتك وتسببي كدرًا لهذا الشاب وهو يحبك ونحن لم نتحقق شيئاً مما ظننته بهِ افيليق بنا ان نزيد الطنبور نغمة ونهيج غضبه حتى ينفر منك

اما اذا تحققنا انهُ لا يريدك فليفعل كيف يشاء وانت عند ذلك تكونين معذورة في النفور منهُ ولكنهُ الآن قد بعث الينا مع والدته وطلبك فلنصبر حتى تتم الخطبة وعند ذلك اذا شاهدنا منهُ ما يحقق ظنك نعنفهُ اولاً وثانياً وثالثاً وهو عند ذلك يضطر اما الى تركك او الى ترك تلك . وتركك اذ ذاك لا يكون سهلاً لارتباطهِ بعقود وعهود رسمية واذا بقيت الاشياء هادئة حتى يتم الاقتران لا يعود هناك ما يوجب الخوف

فسكتت ادما ولم تجب شيئاً وكانت تائهة في بحار الهواجس وقد

احست بتسارعها في الحكم وخافت عواقب ذلك لأنها ارتكبت بكتابة تلك الورقة اليه عملاً يفتح باباً للكلام فيما يشينها فكتمت وفضلت موافقة والدتها في اخذ الأمر بالتأني حتى تتم الخطبة

اما والدتها فتركتها تريد الذهاب الى بعض المهام في بيتها فنادتها ادما وسألتها ان تكتم الامر عن والدها فوعدتها في ذلك وذهبت وهي تفكر فيه وتتذكر ما قيل عن حب حبيب لسلمى فيخطر لها ان سلمى مخطوبة لسليم وهذا اذا علم بحبها لغيره يتركها فطرق ذهنها بغتة ان سليماً اذا ترك سلمى ربما يميل للاقتران بادما وهو عندها افضل من حبيب لانهُ صاحب صنعة شريفة كثيرة الربح حسنة المستقبل واما حبيب فلا صنعة في يده واذا ترك الاستخدام يصبح صفر اليدين ولا سيما ان خدمة الحكومة في خطر الرفت كل ساعة وارادت ان تعود الى ادما وتخبرها بما خطر لها فخافت ان تجعل سبيلاً لزيادة نفورها من حبيب وتعلقها بسليم فابقت الامر في سرها

الفصل الثلاثون

﴿ التخلص من الشرك ﴾

اما سليم فقد تركناه في الاسكندرية يدبر وسيلة للخروج من بيت الست وردة وكانت هذه قد وطنت نفسها على اتمام الحيلة على سليم لان ابنتها اعلمتها بما ظهر لهُ منها وما دار بينهما فاوصتها ان تلازم

مداعبته حتى يقنع بلسانه ويربط معها عهدًا وتوطأت معها على ان تخرج ووالدة سليم للنزهة خارج المنزل فيخلو لها الجو بسليم فتستنزله وتجعله يعطيها قولاً انه يقترن بها

فلما كان الظهر تناولوا الغداء وكل منهم يفكر في حيلته . هذا يدبر طريقة للخروج من البيت والتخلص من الشراك والآخر يدبر الشراك ويعد الحبائل للقبض على الفريسة

وفي اثناء الطعام قال سليم اشعر اليوم بارتياح كلي في صحتي لان الحمى قد فارقتني من الامس وارى الانسب ان ابادر الى اجابة طلب كاتبي في القاهرة واسرع في الذهاب اليه

فقالت ورده الحمد لله على سلامتك يا عزيزي وهذا ما نتمناه يا ولدي ولكن ما الداعي لسرعة ذهابك افلا ترى الانسب ان تبقى هنا ريثما تملك صحتك وتخلص من خطر النكس

قال يا حبذا يا سيدتي فان ذلك غاية مناي ولكني مرتبط بشواغل كثيرة في القاهرة وقد تركت بعض الدعاوي معلقة وتغيبي عن المرافعة بها يسبب لي ولاصحابها خسارة عظيمة وهذا امر مطلوب من ذمتي اما بقائي هنا فكنت اوده من كل قلبي لولا ذلك واما صحتي فاني اشعر بتحسن بين فيها بحسن التفاتك

فلما سمعت ميليا ذلك منه لم تتمالك عن الانقباض وغلب عليها اليأس فترقرقت الدموع في عينيها وكانت تظن ان تلك الدموع تحمل سليماً على الشعور معها والعدول عن السفر وما علمت بما كشفه عنها

وعن دعاء والدتها وعللت نفسها ان وجودها معهُ على انفراد بعد ظهر ذلك اليوم يمكنها من اقناعهِ

اما والدتها فقالت ولكن لا تستعجل يا عزيزي في السفر خوفاً على صحتك من الانتكاس وبين اليوم والغد وقت قصير

فقالت ميليا (وهي تقطع الخبز وتتناول منهُ شيئاً وعيناها تغزلان وحاجباها يشيران) لا تلحي عليهِ يا والدتي لأنهُ قد مل من الاقامة بيننا على ما يظهر فلا يجب ان نضغط على عواطفهِ. قالت ذلك وهي تنظر الى ما بين يديها من الطعام كانها تستحيي ان ترفع نظرها الى ذلك الشاب

فابتدرتها والدة سليم بالكلام قائلة ان سكني معكم يا ابنتي لا يمل منها ويا حبذا لو سكنا معكم الدهر كلهُ ولكن ....

فقطعت وردة الكلام عليها قائلة لو كان الامر كما تدعين لما تركت العزيز سليماً يسرع في سفرهِ الى هذا الحد ولكن لا بأس فالمحبة لا تكون (بالنبوت)

فتلطف سليم بالخطاب وقال العفو يا مولاتي انك قد ظلمتِنا بهذا التلميح واذا لم يكن ثم موجب للمحبة الاَّ ما تفضلتِ بهِ عليَّ من الافضال وما اظهرت في مرضي هذا من الغيرة لكفى بهِ موجباً ولكن الضرورات تبيح المحظورات

ثم نهضوا عن الطعام الى غرفة سليم لأنهُ كان يشعر بضعف على اثر ما قاساه ففضل الجلوس على السرير

ودخل الجميع الى غرفتهِ وجلسوا يتجاذبون اطراف الحديث وكلٌّ

يحاول نفوذ حيلته وفي الساعة الثالثة نهضت وردة الى نافذة الغرفة واطلت على البحر وقالت ما اجمل هذا النهار كم هو صاف مشرق وما اجمل التمشي على شاطئ هذا البحر ويا حبذا لو نزلنا للتمشي هناك ولكن سليماً اظنهُ لا يستطيع ذلك

فقال سليم ارى الانسب ان استبقي قواي لتحملني الى الاسكندرية ثم الى القاهرة

فاعجبها جوابهُ لظنها ببلوغ مرامها فقالت ولكن الا تذهبين معي يا ست ام فؤاد في هذه النزهة برهة

قالت يا حبذا يا اختي ولكنني افضل البقاء بجانب سليم اذ ربما يحتاج الى شيء

فقالت نترك ميليا عندهُ وهي تقوم بخدمته في كل ما يريد . وقد ظنت ان ذلك مما يوجب امتنان سليم ووالدته وما درت انهُ زاد والدة سليم شكاً فيها واعتقاداً في سوء قصدها

فقالت والدة سليم وليس بقائي لخدمة سليم فقط ولكنني اريد الاستعداد للسفر بعد ساعة قبل ان تميل الشمس نحو الغروب ويبرد الهواء

فلما تحققت وردة عزمها على السفر لا محالة قالت لما ونحن نسافر معكم ايضاً اذ لا غرض لنا ببقائنا هنا بعد سفركم

قالت ذلك واخذت تتأهب للسفر

ولم يكن هناك ما يستدعي تأخرهم فتأهبوا وركبوا القطار قبل الغروب فوصلوا الاسكندرية في العشاء ونزلوا في بيت الخواجه فؤاد

مع ان الست وردة الحت عليهم بالذهاب الى بيتها في محرم بك فلم يقبلوا فتركتهم في بيت الخواجه فؤاد وذهبت وابنتها الى البيت وهي في هاجس من قبيل ذلك ولكنها جعلت تعمل الفكرة حتى تنتفع من وجودها هناك فكتبت الى داود تخبره بالامر وتحثه على اتمام المرغوب

وفي الصباح التالي بكرت الى بيت الخواجه فؤاد فاذا بهما يتأهبان للسفر فودعتهما واظهرت كل ما استطاعته من التأسف على فراقهما

الفصل الحادي والثلاثون

﴿ اجتماع الشمل ﴾

اما سليم ووالدته فلم يباليا بشيء وفي الساعة التاسعة غادرا الاسكندرية وبعثا تلغرافاً الى حبيب ينبأنه بمجيئهما فجاء لاستقبالهما في المحطة فاذا بسليم قد نقه من المرض ولكن لا يزال عليه اثر الضعف فقبله وسار الجميع الى منزل سليم في الفندق ولم يتمالك سليم عند مقابلة صديقهِ عن ذرف الدموع خجلاً وندماً على ما فرط منه بحقهِ وعند وصولهم الغرفة قال له والله اني لا استطيع مكافأتك على جميلك ايها الصديق ولا احد يعلم مقدار شكري لك الا هذه الوالدة. ولكن اخبرني بالله كيف عرفت ما كان دائراً بيني وبين والدتي من المخابرات بشأن سلمى مع اني كنت اكتمهُ عن كل انسان

فتبسم حبيب وقال قد عرفت ذلك بطريق الاتفاق وقص عليهِ

حكاية الجزيرة فخجل سليم لانكشاف امرهِ وكان يظن انهُ فعل ذلك ولا يعلم بهِ احد فاخذ حبيب يهون عليه وقال لا بأس يا صديقي لأني لو لم اعلم ذلك ما استطعت القيام بخدمتك والحمد لله على نهاية الامر بالسلامة

فقال سليم ولا يزال لدي امر واحد اسأَلك عنهُ وهو يهمني كثيرًا فهل تصدقني الخبر عنهُ

قال نعم تفضل

قال عثرت على ورقة مكتوبة بخط يشبه خط سلمى في كتاب اعطتني اياه شقيقتك للمطالعة يوم كنت عندكم في البيت فمن اين اتى اليك

فتذكر حبيب حكاية ادما وغلب عليه الحياء فتذكر ما دار بينهُ وبينها بالامس فعلا وجههُ الاحمرار وظهر عليه الارتباك

فابتدره سليم قائلاً اصدقني الخبر فاني قلق لذلك ولا تخف غضبي لأني اعتقدت صدق نيتك اعتقادًا متيناً

فقال ليس هناك ما يوجب الخوف لان الورقة ليست بخط سلمى يا عزيزي وانما هي بخط فتاة غيرها ولا علاقة لها بسلمى قط وساقص عليكَ قصتها في فرصة اخرى على انفراد ولكن اخبرني الآن عن سبب رجوعك من الاسكندرية بغتة

فتنهد سليم وقال آه ياحبيب ان حكايتي غريبة كل الغرابة ولو لم تسعدني التقادير ويقع بيدي كتاب مرسل الى سواي ودُفع اليَّ غلطاً لوقعت في هوّة لا نجاة لي منها ولكن الله انقذني رفقاً بهذه الوالدة

ودفعاً للشبهة عنك

فانشغل بال حبيب لذلك والح عليهِ ان يخبرهُ جلية الخبر فقص عليهِ القصة من اولها الى آخرها وكشف لهُ سرّهُ وما كان يضمره عليهِ وما نواهُ له

فلما سمع حبيب ذلك اشتعل غيظاً من ذلك الرجل المفسد وقال . تبًا لهذا الشقي القبيح الخلق والخلق والله انه يستوجب القتل ولا اتركنهُ حتى اوقعه في شر اعظم مما اراد ايقاعك بهِ

فقال سليم . وهل كنت تعرفهُ يا حبيب

قال كنت اعرفهُ معرفة بسيطة ولكني كنت اكره منظره وكنت اقرأ اخلاقه على وجههِ ولذلك لم اكن اعره اعتبارًا ولا اخاطبهُ وكان يتردد احياناً الى بيت الخواجه سليمان وسلمى لا تستطيع مشاهدته واما حكاية خطبتهِ والدراهم فلا اصل لها البته وهي دسيسة كما قد علمت قبحه الله كم سبب لك ولذلك الملاك الطاهر من المتاعب . انك والله قد اسأتها يا سليم ولم اكن اعلم ان في قلبك عليها غلاً غير ما كنت علمته عن عدم رضاء سيدتي والدتك عنها . فقال سليم دعني ولا توبخني فان لي من ضميري ما يكفي لتوبيخي وتراني لا اقدر على مخاطبتها من شدة الخجل . وبالله تخبرني كيف هي الآن بعد ان بلغتها الرسالة

قال كانت في حالة يرثى لها واما الآن فهي في خير . قال ذلك وتنهد فأحب سليم معرفة سبب ذلك التنهد فأشار اليهِ وخاطبهُ بالفرنساوية انه سيخبرهُ بهِ في فرصة اخرى لان الامر ذو شأن ولا يجب

اذاعته فوافقه

ثم نهضت والدة سليم وقبلت حبيباً وشكرته على تلك الغيرة التي ليس فوقها ولا اشد منها وقالت عسى ان نكافئك يا عزيزي على هذه الفضيلة

فقال حبيب والله لم اعمل شيئاً بعد اذا كنت لا اقتص من ذلك الخائن الذي القى المفاسد فيما بيننا وفرق بين حبيبين ليس اطهر من قلبيهما لعن الله اولاد الحرام

فقال سليم ما لنا وله يا عزيزي . نشكر الله على نجاتنا من حبائله فان حبوط مسعاه يكفي وحده للانتقام منه اذ ليس على الخائن اشد وطأة من خيبة مسعاه فهو

كالنار تأكل بعضها ان لم تجد ما تأكله

والآن كيف العمل اريد ان اذهب الى سلمى واشاهدها ولا ادري كيف اقابلها وقد ارتكبت ما ارتكبته في حقها ولكن هل علم والداها بشيء مما دار بيننا . قال كلا ولكنهما علما انها مريضة وهما يظنان انك مريض وآخر مرة عرفا مني انك سافرت الى الاسكندرية لتغيير الهواء ولا بد من ان يكون قد خامر بالهما شيء ولكن انشغال بالهما بمرض سلمى لم يترك لهما فرصة للافتكار . ولا ادري اذا كانت تلك الخادمة العجوز قد دست اليهما شيئاً اتماماً لمكيدتها

فقال سليم فلنذهب بعد ظهر هذا اليوم الى سلمى مع والدتي ونعرّف احداهما بالاخرى وننسى ما مضى

قال حسناً فاسترح الآن ونم قليلاً تخلصاً من وعكة السفر وبعد الغذاء نذهب معاً وها اني ذاهب الى حلوان لاخبر والدتي بقدومك لانها تحب مشاهدتك وهي قلقة عليك ولا تزال منذ تركت حلوان وهي لم تعرف مقرك ولولا عزمك على زيارة سلمى الليلة ما ذهبت الى حلوان بدونك وعلى كلٍّ فاني ساعود في العصر اما وحدي واما مع والدتي ونذهب معاً الى سلمى · قال حسناً فودعها وخرج تاركاً سليماً ووالدته يثنون على غيرته ولكن سليماً كان مشتاقاً لاستطلاع سبب اضطرابه كما وعده

فتناولا الغذاء مما تيسر الحصول عليه في المنزل وناما يسيراً ونهض سليم احسن حالاً كثيراً وفي الساعة الثالثة بعد الظهر جاء حبيب ووالدته · فلما اجتمعت الوالدتان اخذتا تتشاكيان سرًّا وكل منهما تقص مصائبها على الاخرى فباحت والدة حبيب بكل ما دار بين ابنها وادما وما انتهت اليه الحكاية وفي اثناء حديثهما كان حبيب يقص على صديقه حكاية ادما وتلك الورقة وكيف بعد ان ذهبت والدته لخطبتها غارت عليه من وجوده مع سلمى وكيف وقع النفور بينهما

فقال سليم · والله يا اخي اني لا الومها اذا غارت عليك من وجودك مع سلمى فاني رجل والرجال عادةً أقلُّ غيرةً من النساء ولما شاهدتك مرة في قاعة الاستقبال مع سلمى اشتعلت غيظاً ولم اتمالك عن النفور منك وقد احكيت لك الحكاية فلا تلم ادما ولا تظلمها انها والله حرية بمحبتك واعتبارك واذا احببت فلا تتردد اذ قد

فهمت من سياق حديثك عنها انك احببتها بعد ان احبتك وهي التي قادتك الى الحب بكتابتها فلا تتخذ ذلك ذريعة للاستخفاف بها بل يجب ان تعتقد اعتقاداً متيناً انها مع ما اعرفهُ فيها من الرزانة والتهذيب والتعقل لم تكتب اليك تلك الورقة الا لانها احبتك محبة شديدة جداً حتى خاطرت بكرامتها ونزلت نفسها منزلة لا تليق بها من اجلك. فلا تكن متردداً في محبتها ولا تغضب لاقل سبب لان ذلك ليس شأن امثالك. فأنت شاب اديب النفس قويم السيرة فلا يليق بك ان تكون سبباً لشقاء فتاة استهلكت في حبك وانت تقول انك احببتها أفمن اجل غيرتها عليك تتركها بدلاً من ان تزداد حباً لها وشغفاً بها لان الغيرة تزداد بازدياد المحبة ولك فيَّ وفي سلمى اقوى دليل وعندي انها لو لم تغر عليك لاستوجبت نفورك منها وفتورك في محبتها

ولكن يظهر انها قد علقت كل آمالها فيك وصارت لا يهنأ لها عيش الا برضاك وهي من اجل ذلك تغار عليك من كل انسان وهذه فضيلة تمدح من اجلها فانا لو اتفق لي ان اكون في مثل ما كنت انت مع سلمى يوم دخلت عليكما ادما ودخلت سلمى ولم تغر عليَّ لاستبردت محبتها. ولا اخفي عليك اني اخاطبك بكل اخلاص واعتقد سلامة نيتك في جلوسك مع سلمى لاني انا الذي كلفتك بالذهاب اليها ولكنني لما اتصور وجودك معها تخاطبها على انفراد اشعر بغيرة داخلية سرية ادفعها بحسن اعتقادي فيك. فبناء عليه اعذرني اذا قلت لك انك لم تختبر الحب ولا عرفت عواطف المحبين ولذلك فانت كمن يعرف

بما لا يعرف فارجع الى عزمك في خطبة ادما وانا في هذه الحال يجب عليَّ ان اكون واسطة في اعادة روابط المحبة بينكما لانك كنت انت واسطة لاعادة الروابط بيني وبين سلمى الأَّ اذا كنت تغار عليها مني . وضحك

وكان حبيب اثناء ذلك الخطاب مصغياً وكلهُ اذان يسمع وتحركت فيه عواطف الشهامة والحب معاً ولا سيما عند ما سمع قولهُ انه سيكون سبباً لشقائها بدلاً من سعادتها لانها احبته وعرضت اسمها للخطر من اجله . فلما اتم سليم خطابهُ هم حبيب به وقبلهُ قائلاً بارك الله بك وبغيرتك ايها الصديق الصدوق ان كلامك هذا قد وقع من عواطفي موقعاً ليس احسن منهُ وقد شعرت بشفقة وحنوّ نحو تلك الفتاة ولم اتمالك عن الملل من البقاء الى الغد قبل مشاهدتها والتخفيف عنها انها بالحقيقة ملاك طاهر قبح الله الحدة ما اضرَّها

فقال سليم وما الذي قادني الى هذه الحال واوقعني في هذه الشرور غير الحدة والتسارع . والقضية كلها من اولها الى آخرها سوء تفاهم وقع بيننا فلم نتمهل في الحكم واسرعت في الغضب فحصل ما حصل ولقد صدق من قال « ان سوء التفاهم اصل التخاصم »

فقال حبيب قد وطنت نفسي الآن على ادما وبذل النفس في مرضاتها ولكن لا يهنا لي عيش قبل ان اقتص من ذينك الخائنين داود وسعيدة لعنهما الله واذا انت لم توافقني حباً بالفضيلة وكرم الاخلاق فانا لا استطيع الا الاقتصاص منهما بحيلة من نوع حيلتهما ولا تجادلني في الامر فما انا

بمقتنع منك ولو مهما اتيتني بهِ من البراهين وقد آن وقت الذهاب الى سلمى هلمَّ بنا

وكانت الوالدتان في مثل ذلك الحديث في غرفة اخرى فناداهما وساروا جميعاً قاصدين بيت سلمى

اما سليم فكان مختلج القلب خجلاً وشوقاً يفكر في كيفية مقابلتهِ لسلمى بعد ان كتب اليها ما كتب واخذ يعدُّ عبارات يقولها لها معتذراً عن ذنبهِ وكان كلما اقترب من بيتها يزداد خفقان قلبه حتى دخلوا شارع شبرا واشرفوا على البيت فازداد اضطرابهُ وهاجت اشجانهُ وترقرقت الدموع في عينيه

اما حبيب فكانت افكاره تائهة في ادما وما صدق ساعة دخل ذلك الشارع واشرف على بيتها فشاعت عيناه وهو ينظر اليه لعله يشاهدها على الشرفة فيشير اليها مسلماً تخفيفاً لما بها وتطميناً لقلبها

وكانت ادما قد قضت الليل الغابر لم تذق رقاداً وقد وقعت في وهدة اليأس لا تعرف كيف تعزي نفسها وكانت قد خرجت في عصر ذلك اليوم الى الشرفة لتفريج كربتها بمشاهدة المارين وهي لا ترى احداً لفرط اضطرابها

فلما رأت حبيباً بغتت وازداد خفقان قلبها واخذت ركبتاها ترتجفان وقد تذكرت مصيبتها فيه فارادت الانزواء في الغرفة فاذا بهِ قد اشار اليها برأسه مسلماً واومأ بيده ان تأتي بيت الخواجه سليمان. وشاهدت سليماً معهُ فعجبت لذلك غير ان تلك الاشارة من حبيبها

كانت كافية لتخفيف كربها وزوال اضطرابها فاحست بانفراج كربتها ونست كل ما قاسته في ذلك الليل ولكنها ما انفكت في ريب من تلك الدعوة الى بيت سلمى فلما عرج الجماعة للدخول الى بيت الخواجه سليمان دخلت ادما وعلى وجهها امارات الانبساط واخبرت والدتها بما جرى

فقالت لعله رجع الى عقله وعاد الى صوابه فندم على ما فرط منه وهذا ما كنت اومله

فقالت وهل اذهب الى بيت سلمى يا اماه قالت ذلك وهي تخاف ان لا تؤذن لها لانها كانت شديدة الميل الى الذهاب

فقالت الافضل ان تذهبي ولكن ارى ان اذهب انا برفقتك خوفاً من كلام الناس واخذتا تتأهبان للذهاب

اما سليم فلما وصل باب البيت لم يعد يستطيع الوقوف من الارتجاف بسبب ما هو فيه من الضعف والخفقان فوقف برهة عند اسفل السلم وهو يفكر في سلمى ويقول في نفسه اذا كنت انا في هذه الحال فكيف تكون هي عند مشاهدتي فنادى والدته وحبيباً وقال ارى الانسب انا لا ادخل اليها بغتة ولكن تذهب اولاً الست ام حبيب مع والدتي وتعرفها بها ثم ادخل انا . فوافقوه

اما سلمى فقد تركناها في الغرفة مع حبيب وقد قصّ عليها ما جاء اليها من اجله وهي تسمع ولا تصدق حتى اكد لها الامر ووعدها بقرب مجيئه فبكت لشدة الفرح وبكى هو لبكائها وامسك بيدها

ليخفف عنها ودخلت اذ ذاك ادما وكان من امرها ما كان

فلما ذهب حبيب من عندها عادت تفكر في حالها وتتذكر ماجرياتها مع سليم وتعجب لما حمله على هذا التغيير السريع وباتت تلك الليلة وقد عادت اليها آمالها غير انها ما برحت تخاف معاندة الدهر لها واصبحت لفرط ما قاسته لا تركن الى شيء فما صدقت ان طلع الفجر ثم اشرقت الشمس فاخذت تعلل نفسها وتعد الساعات وتشغل عواطفها تارة بالقراءة وطورًا بالاحاديث ونادت سعيدة فوقفت بازاء السرير تعزيها وتسليها وقد ارتابت مما رأته بالامس من اختلاء حبيب بها وما رأت من تحسن حال سلمى على اثر ذلك وارادت استطلاع سبب ذلك منها فقالت لها اراك احسن حالاً من ذي قبل يا سيدتي

قالت اني اشعر بتحسن في صحتي والحمد لله

قالت وانا اوكد لك متى تركت تلك الحكاية من ذهنك لا يعود ثم ما يكدرك لان الشبان لا يشفقون على البنات ولا يرثون لعواطفهنَّ ولا اظن الخواجه سليماً الآن الا في رغدٍ وانبساط مع الفتاة الاسكندرانية التي اخبرتك عنها بالامس

فلما سمعت منها ذلك اختلج قلبها في صدرها ولكنها تبسمت وعلت وجهها امارات الانبساط وقالت ولكن يا سعيدة يظهر اننا قد تخلصنا من تلك الفتاة

قالت وكيف ذلك يا سيدتي

قالت الم تري حبيباً جاءني البارحة

قالت نعم رأيته وهو صديق حميم للخواجه سليم

قالت نعم وقد جاءني واخبرني بقرب مجيء سليم

فبغتت العجوز لذلك الكلام وخافت حبوط مسعاها فقالت وكيف يأتي ولعله فعل بتلك مثل ما فعل بك

فاحست سلمى بانقباض عند سماعها ذلك وقالت لا . لا اظنه فعل شيئاً من مثل ذلك ولكني لا اعلم الحقيقة

قالت وكيف إذاً فلا بد من ان يكون قد هزأ بها وتركها وعسى ان يبقى هذه المرة على النصيب الاول ويعلم انك اهل لمحبته ولا يقدر ان يجد مثلك اينما سار

قالت متى حضر نعرف الحقيقة وساطلعك على حقيقة الخبر بعد ذلك

الفصل الثاني والثلاثون

﴿ والبغي مصرعه وخيم ﴾

فسكتت سعيدة وخرجت من الغرفة وسارت توًّا الى بيت داود واخبرته بما دار بينها وبين سلمى

فلما سمع ذلك تحير كيف يعلل حدوثه على انه عاد فتذكر امر الكتاب الذي جاءه معنوناً باسمه وهو من الداخل باسم سليم فهب من مقعده وقال لسعيدة ها قد وقع ما كنت اتخوفه وأخبرتك عنه . لعن الله سيدتك ما احمقها

فتعجبت سعيدة لذلك الكلام وقالت ما بالك تلعن سيدتي بغير سبب

قال. اخرسي قبح الله وجهك ووجهها انما هي السبب بحبوط مسعانا وقد جنت على نفسها اذ لا يهمني تزوجت ابنتها أم لم تتزوج . قال ذلك وقد اخذ منه الغيظ مأخذاً عظيماً حتى لم يعد يعرف ماذا يقول

فأرادت العجوز ان تعترضه فصفعها على وجهها وامنها وأخذ يشتم ويلعن وينقم على وردة ويقول تبأ لها من حمقاء جاهلة فانها قد فضحت نفسها وفضحتنا

فتكدرت سعيدة من سماع ذلك وقالت له لماذا تضربني العلك انت سيدي الا تعلم من هي سيدتي التي تلعنها وكيف تنكر نعمتها العلك نسيت فضلها ولكن رحم الله تعويضات الاسكندرية ....

فلما سمع ذلك منها اشتد غيظه عليها فصفعها صفعة قوية فسقطت على الارض وجعل يدوس فوقها برجليه ويرفصها وهي تصيح وتولول حتى اجتمع عليها الجيران وهو لا يكف عن رفسها وهي تصيح قائلة تباً لك يا خائن يا نذل الرجال

فاشتد حمقه حتى رفسها رفسة قوية فغارت رجله في احشائها فصاحت صيحة قوية وصارت تختلج وتنتفض فخاف الحاضرون موتها فصاحوا بالبوليس فجاء اثنان منهم واذا بالعجوز في حال النزاع والرجل واقف يرغي ويزيد فقبضوا عليه وقادوه مهاناً الى القراقول والرعاع حوله يهزأون به وحملوا العجوز ايضاً على اخشاب الى طبيب القراقول فاودعوا

داود السجن وجاؤا بالطبيب الى العجوز فاعطاها بعض المنعشات حتى استرجعت قواها وعادت الى الندب والصياح قائلة امسكوه قد قتلني لاني قلت انهُ سرق الحكومة في تعويضات الاسكندرية انه سارق لص امسكوه قد قتلني قتلهُ الله

فامر المعاون بكتابة كلامها وتدوينهِ تقريرًا يقدمونهُ عند المحاكمة وامر باخذ تقرير داود

فلنتركهم في لغطهم وجلبتهم وتقاريرهم ولنعد الى لقاء المحبين

الفصل الثالث والثلاثون

﴿ لقاء المحبين ﴾

تركنا سليماً خافق القلب صاعدًا الى منزل حبيبتهِ وهو يفكر في حاله وحالها عند الالتقاء وقد غلب عليه الخجل مما أتاه في حقها من التهم فصعدوا السلالم حتى اتوا باب الدار وقرعوه ففتح لهم واستقبلتهم والدة سلمى وقد دهشت عند مشاهدة سليم بغتة فهمت اليه مسلمة فحياها وجاءت والدتهُ وسلمت عليها فتقدمت والدة حبيب وعرفتهما احداهما بالاخرى فترحبت والدة سلمى وقادتها بيدها امام الجميع الى غرفة الاستقبال يتبعها الجمهور وآخر الكل سليم وعيناه شائعتان نحو غرفة سلمى لعله يلمح جانب السرير فيستأنس به ولكن الباب كان مغلقاً فسار مع الجميع الى القاعة وحبيب الى جانبهِ يحادثهُ اشغالاً لعواطفهِ لانهُ

كان يقرأ آيات الوجل على وجهه

فدخل الجميع غرفة الاستقبال ووالدة سلمى تترحب بهم ولم تكن الخادمة هناك لخروجها بعد الظهر بغير علمها ولم ترجع للسبب الذي قدمناه فاضطرت ان تقوم بخدمتهم هي وحدها فتناولت حبرتي الوالدتين وطوتهما ووضعتهما في مكان معد لذلك وقدمت السكاير لسليم وحبيب وهي تارة تخاطب والدة سليم وتترحب بها وطورًا تسأل سليماً عن صحته واخرى تخاطب حبيباً او والدته والكل مستأنس بها الا سليماً فانه كان يزداد اضطراباً خوفاً من هول موقفه مع سلمى ولكنهُ مع ذلك كان ينتظر الميقات بفروغ صبر

اما سلمى فكانت عند ما علمت بقدومهم في سريرها واذناها مصغيتان لكل طرقة على الباب فلما سمعت طرقتهم اصغت لصوت القادمين فاذا بوالدتها تخاطب سليماً وتترحب بهِ فحالما سمعت اسمهُ اخذ قلبها بالخفقان ثم سمعت صوتهُ يكلم والدتها فرنَّ ذلك الصوت في اذنها رنَّةً اذابت حشاشتها ولكنها انعشتها وذكرتها بايام الصفاء التي قضتها بقربهِ يوم لم يوسوس الشيطان بينهما فكادت تطير من الفرح وازداد خفقان قلبها وبردت اطرافها وكان على الطاولة الى جنبها زجاجة عطرية وصفها الطبيب لها اثناء اشتداد الحال عليها فتناولت الزجاجة واستنشقت رائحتها خوفاً من تسلط الانفعالات على قلبها ولما مشت والدتها بسليم ووالدتهِ كانت تراقب حركة اقدامه وتميزها من سائر الخطوات بمجرد السمع وتتوقع أن تراهُ يقترب من غرفتها ولكنها عرفت انهُ سار مع الجماعة

الى غرفة الاستقبال وودت لو ان الباب مفتوح لكي تلمح طرف ثوبه اذا لم تستطع مشاهدته ولكنها تعللت بقرب اللقاء بهِ بناءً على وعده

فلبثت في سريرها وهي على مثل الجمر كلما سمعت صوتاً تظن سليماً قادماً فيخفق قلبها وترتعد فرائصها حتى كادت تخور قواها وبعد برهة سمعت لغطاً ووقع اقدام كثيرة فاصاخت بسمعها فاذا بصوت والدتها وصوت والدة حبيب وصوت امرأة غريبة وكانت قد علمت بقدوم والدتهِ منذ سلمت والدتها عليها عند دخولها الدار فاخذت تثبت نفسها وتتجلد لتستطيع التكلم عند مقابلتها ثم سمعت صوت طرق باب غرفتها وفتح واذا بوالدتها والى جانبها امرأة تلوح على وجهها ملامح البساطة وسلامة النية متوسطة العمر بسيطة اللباس ووراء الاثنين والدة حبيب وحالما دخلنَ اضطربت سلمى وعلا وجهها الاحمرار مع ضعف دمها على اثر المرض والقهر فاسرعت والدتها وقالت لها هذه هي يا ولدي السيدة ام فؤاد والدة الخواجة سليم وتقدمت تلك السيدة وضمت سلمى الى صدرها وقبلتها ودموعها تتساقط اما سلمى فقبلت يدها وعيناها تذرفان الدموع وهي تريد اخفاء ما بها ولا تستطيع

فقالت والدة سليم سلامتك يا حبيبتي سلامة هذا الوجه اللطيف من الضعف سلامتك · وعادت فقبلتها · فشكرتها سلمى على تلك العواطف بملامح وجهها لانها لم تكن تستطيع التكلم لاختناقها بالعبرات فعادت والدة سليم وضمتها وهي تكاد تاكلها باسنانها لفرط ما احبتها واخذت تطلب لها الشفاء وتقول جازى الله اولاد الحرام سلامتك يا حبيتي سلامة هذا

الجسم اللطيف من المرض

ثم جلست الى الكرسي وتقدمت والدة حبيب وقبلتها وقد تأثرت من كلام ام فؤاد اما والدة سلمى فلم تعد تتمالك عن البكاء ولكنها لم تفهم المراد من قول ام فؤاد الله يجازي اولاد الحرام

ثم جلسن جميعاً يتحادثن وكل تمسح دموعها بمنديلها

وبعد قليل نهضت والدة حبيب قائلة هل تأذني يا حبيبتي للخواجه سليم بمشاهدتك . وضحكت . فخجلت سلمى ولم تجب . فخرجت وسلمى تتبعها بسمعها وتنتظر سماع وقع اقدام سليم قادماً من القاعة

ولما سمعت وقع اقدامه اخذ قلبها بالخفقان وارتعدت فرائصها وامتقع لون وجهها وبردت اطرافها وصارت تنتفض في سريرها ولا تسل عما جرى لسليم ايضاً فانه مشى نحو الغرفة وقلبه يخفق وهو خائف من هول ذلك الاجتماع لا يدري كيف يخاطبها اذا رآها . فلما دخل الغرفة هاجت اشجانهُ عند مشاهدة حبيبته في تلك الحال من النحول وقد تحول بهاء ذلك الوجه الى الامتقاع وورد خديها الى الذبول وتعكرت عيناها وتكسرت أهدابها من البكاء فود لو أنهُ منفرد بها حتى يطلق لنفسه عنان البكاء وينادي حبيبتهُ ولكن وجود السيدات امسكهُ عن ذلك على انهُ تقدم الى السرير ومد يدهُ اليها وامسك يدها مسلماً فأحس ببرودتها وارتجافها واراد السؤال عنها فلم يستطع التكلم لاختناقه بالعبرات فظل ممسكاً يدها ضاغطاً عليها وهي مطرقة تشغل نفسها بتثنية الملاءة بين انملها باليد الاخرى وهي لا تستطيع ذلك لشدة الارتعاش

وبقي الاثنان لحظة صامتين ودموعها تتساقط ثم غلبت على سليم اشجانه ونسي موقفه فصاح قائلاً . حبيبتي سلمى حبيبتي ما ذا جرى لك . كل ذلك من جهلي وحماقتي العلي سبب هذا التحول . آه نعم انا هو الجاني عليك اني المقترف لهذا الذنب انا هو الظالم . آه يا سلمى اصفحي عن ذلتي ان كان هناك محل للصفح . اما انا فلا استحق الصفح لاني سببت لك الشقاء بجهالتي وقد رميتك بالعظائم زوراً وبهتاناً . واراد اتمام الكلام فمنعه البكاء وازداد فيه حتى صار يشهق وهو لا يستطيع التسلط على عواطفه لشدة شعوره بالخطاء نحوها

اما هي فلم تجبه الا بالدموع واحست لفرط ما بها بضيق صدرها واشتد بها ذلك حتى اغمي عليها فرشوها بالماء والعطريات حتى افاقت فعادت الى البكاء والنحيب وهي تقول لا بأس عليك يا سليم مهما جاء منك مذنب هين والله الصافح الذي يغتفر الذنوب فلتبق سعيداً وما انت ممن يستحقون العقاب لانك محب صادق

فعاد هو وجثا امامها والجميع مبهوتون مندهلون وقال لها ها اني يا منية فؤادي بين يديك فافعلي بي ما تشائين . . . اقتليني فاني والله مستحق للقتل وبخيني اني مستوجب التوبيخ انبذيني اني مستحق النبذ ظهرياً لاني انكرت طهرك وظننت بك السوء مراراً وانت ملاك طاهر

ثم نهضت والدته وهمت اليها وقبلتها وهي تبكي وتقول الذنب يا حبيبتي ذنبي انا وليس ذنبكما انا التي انقدت بكلام المرجفين وسمعت عنك كلام المفسدين . . . . .

فتقدمت عند ذلك والدة حبيب فانهضت سليماً واخذت تخفف عنهُ وجاءت والدة سلمى وامسكتها وجعلت تمسح دموعها وتطيب قلبها وتهنئها على مجيء حبيبها وكانت قد سمعت الحكاية في غرفة الاستقبال وعلمت بسبب مرض ابنتها وصارت تجتهد في التخفيف عن الاثنين فتقدمت الى سليم وقبلته وقالت لهُ انت ولدنا ولا يصدر منك الا الخير جازى الله المفسدين ولا بد من ان يقتص الله منهم فاهنأ بسلمى ولتهنأ هي بك ولا فرّق الله بينكما ثم جلس الجميع يتحادثون بما ينسيهم تلك العواطف ويخفف كربهم

اما حبيب فقد تركناه في غرفة الاستقبال ولم يرد المجيء مع سليم لئلا يكون وجوده سبباً لخجل سلمى فلا تستطيع شكوى ما في قلبها لحبيبها فبقي في غرفة الاستقبال وفيما هو هنالك سمع صوت سليم ينادي سلمى ويستغفرها فانفطر قلبهُ حتى ترقرقت الدموع في عينيهِ وبقي منفردًا صامتاً يفكر تارة بصديقهِ وطورًا بحبيبتهِ فسمع وقع اقدام قريبة من الباب واذا بادما داخله ووالدتها وراءها فحالما وقعت عينهُ عليها نسي سليماً وحالهُ وهاجت فيه اشجانه ووقف لاستقبال حبيبتهِ مطرقاً وهي ايضاً صارت ترتجف من عظم التأثر ولكنها لبثت صامتة تنتظر ما يبدو منهُ

فاذا به تقدم اليها وامسك بيدها وقال الملك لا تزالين غضبة علي غائرة مني . فغلب عليها الحياء ولم تجبهُ فسلم على والدتها وامسك الفتاة بيدها واجلسها الى جانبه ونظر الى وجهها فاذا بهِ يتقد احمرارًا وقد

لمعت عيناها وابرقت اسرتها ولكن الخجل لا يزال يتجلى في محياها فقال لها لا تغاري علي ولا تسرعي في حكمك فان المحبة الطاهرة لا يجب ان يخامرها شكوك فافصحي لي عن سبب كدرك .... غائرة من سلمى المسكينة التي يرثي لحالها الصخر الاصم. فلما سمعت منهُ ذلك تذكرت ما شاهدته فيه ولكنها لم تجب فاجاب هو عنها قائلاً . نعم اعلم انك غائرة منها ولكن هل تغارين لمجرد وجودي مرة بجانبها اعزيها في مصائبها . فلم تجبهُ على انها حاولت الجواب فمنعها الحياء فاعاد السؤَال واستحلفها بوالدتها ان تجيبهُ فقالت وهي تشرق بكلامها الحق كله عليَّ يا حبيب وانا الجانية على نفسي

فاجابها وقد تأثر من كلامها وثارت فيه اشجانهُ وقال دعينا بالله من هذا العتاب اني اسأَلك عن سبب غيرتك

فقالت قلت لك ان الحق عليَّ لاني عملت عمل الطيش وما قد جوزيت به انما هو اقل مما استوجبهُ هذا جزاء التي تعرض نفسها على.... وشرقت بالدموع

فانفطر قلب حبيب عند سماعهِ ذلك منها وتذكر امر الورقة وعلم انها نادمة على كتابتها فقال لها لا تقولي هذا وما هذا مما اعيرك به لانك انما فعلتهِ لعظم محبتك لي والمحبة الطاهرة فضيلة من اكبر الفضائل ولكني انا الجاني لاني لم اعرف قيمة تلك المحبة ولا اقول اني بخستها حقها او احتقرتها لا سمح الله ولكني لم اعرف حق قدرها

والآن يا ادما لم اباداك بشرٍ ولا جئتك بملام ولا اهمال واعجب

لما ظهر منك لشقيقتي من الغيرة

فقالت اما الغيرة فهذه لا استطيع كبحها لاني اغار عليك من نظري ومني ومنك ومن خيالك والزمانِ . اما سبب تلك الغيرة فانت تعلم بعضهُ ولا تعلم البعض الآخر او انك تعلمهُ وتتغافل عنهُ

فقال وقد اعجب بعظم حبها لهُ وندم على سوء ظنهِ بها . اما البعض الذي اعرفهُ فوجودي الى جانب سلمى يوم دخلتِ علينا وهذا اقدران ابرىء نفسي منهُ بشهادة اهل هذا البيت كافة حتى خطيب سلمى نفسه ومتى اطلعت على جلية الخبر لا يبقى عندك باب للشك واما الذي لا اعلمهُ فما هو

فمدت يدها الى جيبها واستخرجت ورقة ودفعتها اليهِ فاذا هي الورقة التي كانت قد كتبتها اليه . فتناولها منها ونظر اليها وتبسمَ قائلاً من اين وصلت اليك هذه قالت وجدتها عند سرير سلمى

فازداد في الضحك وقال وهذهِ ستعرفين قصتها من سياق حكاية صديقي سليم لان الاثنين من باب واحد وعما قريب أقص عليك القصة بجملتها فتتحققين صدق نيتي واخلاصي واعلمي يا ادما اني لم احب احداً قبلك ولن احب احداً بعدك وقد ملكتك هذا القلب ..

فتنهدت هي تنهداً عميقاً وقالت وانا يعلم الله بحالي . ولكن احكي لي حكاية صديقك سليم ليطمئن بالي فقص عليها القصة مختصراً فانكشفت لديها كل الاسباب وعلمت براءة ساحة خطيبها فاطمان بالها وسكن روعها ووطنت نفسها وللحال اشرق وجهها

وفيما هما في ذلك سمعا منادياً ينادي حبيباً فهم الى جهة الصوت

فاذا بسليم يناديه فدخل واذا بالجميع في غرفة سلمى وأثر البكاء في عيونهم مع ما يتجلى على وجوههم من علامات السرور فلما دخل همَّ سليم اليه وقبلهُ وقال وانك ايها الصديق هل صفحت عن ذنوبي نحوك امام هؤلاء الجماعة. فقبلهُ حبيب قائلاً لا أعلم انك اقترفت ذنباً نحوي أو نحو أحد سواي واما المقترف الذي يستوجب الشنق فهو ذلك الرجل القبيح الوجه الذي لا اقدر على الرقاد قبل ان انتقم منهُ ولولاهُ لكنا في رغد ونعيم ولكن نحمد الله على انكشاف الدسيسة ووقوف مساعيه عند هذا الحد

فنادت السيدات بصوت واحد جازى الله اهل البغي والفساد

ثم قال سليم لصديقهِ على انفراد سرًّا ها اني قد انهيت مصلحتي فهل أنهيتَ مصلحتك. قال نعم وها هي ادما في غرفة الاستقبال مع والدتها . فناداها سليم فجاءتا وسلمت ادما على سلمى سلاماً مملوءًا من اللهفة والاخلاص وقبلتها مرارًا وجلس الجميع وقد خلا لهم الجو وتصافت قلوبهم وعرف كل منهم صديقه حق المعرفة واطلع كل منهم على سرائر الآخر . فقالت والدة سليم لوالدة حبيب تتوق نفسي ان نعقد عقد الخطبة لسليم على سلمى وحبيب على ادما في ليلة واحدة نقيم فيها احتفالاً شائقاً ننسى بهِ ما قاسيناه

فقال الجميع سمعاً وطاعة اما سلمى وادما فاطرقتا خجلاً وخرجت ادما من الغرفة اخفاءً لخجلها اما سلمى فلم تستطع الخروج من السرير فحولت وجهها الى جهة الحائط

فقال حبيب لا أعقد خطبة قبل أن أنتقم من ذلك الخائن

وتلك الخائنة فاخذوا يحولونهُ عن قصده فقال كلا لا يمكنني السكوت عن هذا اللئيم وأنا أعرف بيته . وأين خادمتكم فقالوا لهُ انها خرجت من الظهر ولم تعد فقالت سلمى يظهر انها استطلعت الخبر وسارت اليهِ لانها كانت تستنطقني الأمر وانا في غفلة عن قصدها

قال حبيب اذًا لا بد من ان تكون عنده واقل شيء انتقم منهُ بهِ أن أبعث اليه زمرة من الاشقياء يضربونهُ ضرباً مبرحاً حتى يشتفي قلبي منه. وها اني ذاهب الآن لاتحقق اذا كان لا يزال مقيماً في البيت الذي كان فيه قبلاً وهو قريب واعود اليكم حالاً قال ذلك وخرج مسرعاً ولبثوا هم في انتظارهِ فمضى ربع ساعة ثم نصف ولم يعد فانشغل بالهم وقلقت خصوصاً والدته وادما لغيابهِ لئلا يكون قد تخاصم وذلك الرجل فاضرَّ بهِ فهم سليم للذهاب ليفتش عنهُ فاذا بداخل قد دخل البيت فظنوهُ هو واذا بهِ الخواجه سليمان فهمت اليه امرأته واستقبلتهُ وادخلتهُ الى غرفة سلمى وعرفته بوالدة سليم ولما رأى سليماً سألهُ عن صحتهِ وسبب غيابهِ فاخذت امرأته تقص عليه الخبر باختصار

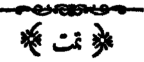
وفيما هما في ذلك عاد حبيب ووجههُ يتهلل فرحاً فسألوه عن سبب غيابه فقال ذهبت الى بيت ذلك اللئيم فاذا بالناس يتجولون عنهُ جماعات فسألت عن السبب فقيل لي انه ضرب خادمة عجوزًا حتى كاد يقتلها فقاده البوليس الى المخفر فذهبت اليه هناك فاذا بالمرأة عجوزنا وهي شديدة التألم ولكنها قررت انه ضربها لانها ارادت كشف خيانتهِ لدى الحكومة في ما نالهُ من تعويضات الاسكندرية زورًا وبهتاناً ولا

اظنه يخلص من هذه المحاكمة الا بالقتل او بالاشغال الشاقة في طرا واما سعيدة فلا اظنها تبقى حية لما فيها من الجراح والرضوض

فصاح الجميع بصوت واحد على الباغي تدور الدوائر وحمدوا الله انهم نالوا بغيتهم عفواً ولم يتكلفوا لاقل تعب وقضوا بقية ذلك اليوم باحاديث متنوعة وفي العشاء بقوا في بيت الخواجه سليمان حيث تناولوا العشاء معاً بحضور الخواجه سعيد وكانت امرأته لم تخبره عن طلب حبيب لادما فاخبرته تلك الليلة فسر لذلك وطرب الجميع لما اتاهم الله من حسن العاقبة وتعاهدوا على يوم يعقدون فيه الخطبة رسمياً في وقت واحد. ثم عقدوا الخطبة باحتفال شائق حضره كل الاصحاب والاقارب وكانت والدة سليم لا يزال في قلبها حزازات لمن الست وردة لما خدعتها واحتالت عليها واغرتها فلما كان وقت الزفاف على موعد ان يكون زفاف الاثنين معاً قالت لسليم ان يبعث ورقة من اوراق الدعوة باسم الست وردة اغاظة لها واكتفت بهذا تشفياً منها وبالحقيقة ان ذلك اشد وقعاً من ضرب السيف

وقد تم الزفاف باحتفال عظيم تحدث به اهل العاصمة زمناً لما كان من حسن معداته واتقانها وخصوصاً لما سمعوا بما قاساه العريسان من الجهاد في حب عروسيهما وكيف انتهى جهادهما بنيل المنى

﴿ تمت ﴾



(١) تاريخ مصر الحديث

يقسم هذا الكتاب الى جزئين كبيرين جيد الورق نظيف الطبع عدد صفحات الاثنين معاً زهاء ثمانمئة صفحة . ويشتمل الجزء الاول على ملخص جغرافية مصر القديمة وتاريخها مبوّباً ومقسماً حسب التقسيم الاخير ثم فتوح مصر على يد الفاتح العربي عمرو بن العاص وما كان من امره مع الاقباط الى ان فتح الاسكندرية ويحتوي هذا القسم بنوع خاص على ما دار بين عمرو والخليفة من المخاطبات البليغة التي يصح ان تكون مثال البلاغة وحسن البيان . ثم خلافة الدولة الاموية وما كان من انتقال الخلافة من الراشدين اليهم ثم الدولة العباسية فالفاطمية الى آخر زمن الدولة الايوبية معما تخلل ذلك من الحروب الصليبية وقد الجأتنا سهولة الايضاح ان نأتي على حوادث الدول الاسلامية وعلاقتها بعضها ببعض . وان كان ذلك خارجاً عن مصر ولكنهُ لا بدَّ منهُ لفهم حقائق التاريخ المصري فلذلك يصح ان يقال ان تاريخ مصر الحديث يشتمل على ملخص تاريخ دول الاسلام الشرقية ايضاً

والجزء الثاني يبدأ بسلطنة المماليك البحرية ثم الشراكسة مع تمهيد

في اصل هؤلاء المماليك وكيفية وصول الحكم اليهم الى فتح مصر على يد القائد العثماني العظيم السلطان سليم خان وما كان من تنظيم الادارة الثلاثية من المماليك والوجاقات والباشا . ثم عصر الامراء المماليك واستبدادهم الى القرن الماضي عند ما فتح الفرنساويون مصر واحبوا البقاء فيها وكيف اخرجهم الباب العالي بمساعدة انكلترا الى ان ظهر مؤسس العائلة المحمدية العلوية المغفور لهُ محمد علي باشا وقام بالامر باجتهادهِ واهليتهِ واستقل بالاحكام تحت رعاية الدولة العلية . ثم ما توالى بعد ذلك من حرب الوهابيين فحرب الموره فالسودان ففتوح الشام وهكذا الى زمن المغفور لهُ الخديوي السابق وما جرى في ولايتهِ من الحوادث العرابية والسودانية وكل ذلك بالايضاح التام ولا سيما ان المؤلف كان شاهد عين في اكثر المواقع السودانية المهمة

والكتاب مزين بالرسوم الجميلة وفي جملتها رسمان للخديوي السابق احدهما منقول عن الفوتوغرافيا ورسم لجد العائلة الخديوية محمد علي الكبير وآخر للخديوي الاسبق اسمعيل باشا ومثلهُ لبونابرت وحجر رشيد ورسوم بعض الملوك الفراعنة كرعمسيس الثاني وتحوتمس الثالث وامنوفيس الثالث والآلهة المصريين القدماء ورسوم النقود الاسلامية متداولًا عهدها الى هذه الغاية وفي جملتها نقود الخلفاء الراشدين فالامويين فالعباسيين فالفاطميين الى النقود العثمانية الاخيرة وهي نحو المئة رسم او تزيد وفي الكتاب اربع خارطات لمصر السفلى والعليا ومصر القاهرة ومصر في زمن الفراعنة

اما ثمن الجزئين معــاً فاربعون غرشاً مصرياً او عشرة فرنكات ونصف واجرة ارسالها بالبوسطة خمسة غروش مصرية فمن يرسل ٤٥ غرشاً مصرياً او احد عشر فرنكاً ونصفاً او بقيمتها طوابع بوسطة يرسل اليهِ الكتاب حالاً خالص اجرة البريد

---

(٢) تاريخ الماسونية العام

هو اول تاريخ وضع في اللغة العربية للجمعية الماسونية يبحث اولاً عن نشأتها ثم عن تاريخها القديم من نشأتها سنة ٧١٥ ق م الى تحولها من عملية الى رمزية سنة ١٧١٧ ثم عن تاريخها الحديث من هذا التاريخ الى اليوم ويتخلل ذلك تاريخها في تركيا وسوريا وفلسطين ومصر والمحافل الموجودة فيها الآن وشروقها وفي ذيل الكتاب ذكر لوائح القوانين والشرائع الماسونية واهم مؤتمراتها وبعد ذلك اسماء الاخوة الذين اشتهروا بالعلم والفضل وبالمراكز السياسية منذ اول التاريخ المسيحي وفي ختامهِ جدول لتاريخ ظهور الماسونية الرمزية في كل من ممالك العالم وعدد صفحاتهِ ٢٥٦ صفحة وثمنهُ عشرون غرشاً صاغاً او خمسة فرنكات وربع واجرة ارسالهِ في البوسطة غرشان او نصف فرنك

(٣) التاريخ العام

﴿ الجزء الاول ﴾ .

يتضمن مختصر تاريخ ممالك اسيا وافريقيا القديمة والحديثة بعد ذكر مقدّمات جغرافية عمومية وحكاية الخليقة والطوفان وتفرق الانسان وفي الكتاب كثير من الرسوم لزيادة الايضاح · وعدد صفحاته ٢١٦ صفحة وفيها من الرسوم ٢٥ رسماً وثمنهُ ثمانية غروش صاغ واما للمدارس فيجعل المؤلف فيهِ اسقاطًا مهماً يختلف باختلاف عدد النسخ المطلوبة واجرة ارسال النسخة الواحدة بالبوسطة غرش صاغ

(٤) الفلسفة اللغوية

كتاب يتضمن بحثاً تحليلياً لالفاظ اللغة العربية بردّها الى اصول بسيطة ثنائية المقطع تحاكي اصواتاً طبيعية وقد جاء المؤلف بامثال وشواهد متعددة من سائر اللغات الشرقية ومن غيرها وهذا البحث حديث الظهور في اللغة العربية ولا سيما على مثال ما نحاهُ المؤلف في هذا الكتاب البالغ عدد صفحاتهُ ١٠٦ صفحات ثمنهُ عشرة غروش مصرية او فرنكان ونصف واجرة ارسالهِ بالبوسطة غرش واحد

(٥) رواية المملوك الشارد

رواية تاريخية ادبية تتضمن حوادث مصر وسوريا في النصف الاول من هذا القرن وفيها شرح واف عن اوصاف الامير بشير

الشهابي الكبير والمغفور له محمد علي باشا وولده المرحوم ابراهيم باشا مع ذكر احوال برّي مصر والشام واخلاق اهليهما اثناء المدة المشار اليها · ووصف الحروب التي جرت اذ ذاك في مصر والشام والموره مع الاشارة الى الحملة الفرنساوية وانسحابها

والمحور الذي تدور عليهِ الحكاية المملوك الشارد وهو المملوك الذي نجا من مذبحة المماليك في القلعة والرواية تشوّق الى القراءة لتناسق حوادثها ولا يبدأ قارئ بمطالعتها الاّ اضطرّ الى اتمامها بالرغم عنهُ وعدد صفحاتها نحو مائتي صفحة · ثمنها ثمانية غروش مصرية او فرنكان واجرة ارسالها بالبوسطة ستون بارة

(٦) اسير المتمهدي

رواية تاريخية غرامية قد اندرجت فيها الحوادث المصرية. وهي عرابي والمتمهدي السوداني وما تخلل ذلك من الاحوال والاعمال بحيث يتخيل القارئ انه شاهد تلك الاماكن عياناً وحضر كل الوقائع وقد دخلت في هذه الرواية ايضاً حادثة سنة ١٨٦٠ في دمشق الشام

ثمن النسخة عشرة غروش مصرية واجرة البوسطة غرشان

(٧) استبداد المماليك

رواية ادبية تاريخية تتضمن حوادث آخر القرن الماضي وقد مثلت

فيها احوال الامراء المماليك ومعاملتهم للرعية وعلاقتهم بالدولة العلية وتداخل الروسية وما شاكل ذلك مما يوضح التاريخ ويصوره

ثمن النسخة ثمانية غروش واجرة البوسطة غرش واحد

(٨)

جهاد المحبين

رواية ادبية غرامية تشتمل على حوادث غرامية ادبية حدثت وقائعها في العقد الماضي من هذا القرن وفيها ما يدل عليه اسمها مما يقاسيهِ المحبون جهاداً في سبيل الحب . ثمن النسخة ستة غروش او فرنك ونصف واجرة البوسطة غرش ونصف

(٩)

جغرافية مصر

﴿ طبعة ثانية ﴾

طبعنا الطبعة الاولى لهذا الكتاب في اواخر سنة ١٨٩١ ولم تمض سنة ١٨٩٢ حتى نفذت نسخهُ كلها ورأينا من جمهور المطالعين اقبالاً عظيماً على اقتنائهِ وزاد طلبهم لهُ فعمدنا الى طبعهِ ثانية . ولما كانت تقاسيم المديريات والمحافظات لا تبقى على حالها زمناً طويلاً لما يطرأ عليها من التغيير والتبديل لما تراهُ الحكومة من تجديد التنظيم والترتيب فقد كاتبنا كل مديرية ومحافظة على حدة وتلقينا الاستعلامات الحقيقية عن

آخر تقسيم لها حتى تكون هذه الطبعة اكثر تدقيقاً من سابقتها واوفر فائدة

اما مشتملات الكتاب فهي (١) الجغرافية وهيئة الارض (٢) سطح الارض (٣) احكام البشر واديانهم وعددهم وانواعهم ولغاتهم (٤) كلام عام عن قارات الارض (٥) قارة افريقيا ونهر النيل (٦) جغرافية القطر المصري (٧) حكومة القطر المصري (٨) مديريات الوجه البحري وفيه تفصيل كل مديرية على حدة ومراكزها واشهر مدنها مع تاريخ اشهر تلك المدن وكيف تأسست وتوالت عليها الازمان (٩) محافظات مصر السفلى وخصوصاً القاهرة فاننا افضنا في الكلام عليها حتى لم نترك شيئاً مما يهم الاطلاع عليه من تاريخها واشهر الآثار فيها وتقاسيمها ثم محافظة الاسكندرية فرشيد فدمياط فالقنال (١٠) مديريات الوجه القبلي بالتفصيل كما تقدم عن مديريات الوجه البحري (١١) نظر عام في الوجه البحري (١٢) نظر عام بالوجه القبلي

وكل ذلك بغاية البساطة والدقة • وثمن النسخة ثلاثة غروش صاغ واجرة البوسطة عشرون بارة

(١٠) خارطة مصر

هي خارطة تتضمن اربع خارطات الواحدة عن مصر السفلى والثانية عن مصر العليا والثالثة عن مصر القديمة في ايام الفراعنة والرابعة خارطة مصر القديمة ثمنها اربعة غروش مصرية واما مع الجغرافية فثمنها غرشان واجرة البوسطة عشرون بارة

(١١) الردّ الرنان

هو ردّ على انتقاد كتبه بعضهم على تاريخ مصر الحديث فيه تفنيد لما نسبه المنتقد لذلك الكتاب من الاغلاط وثمنه غرش واحد واجرة ارساله في البوسطة عشرون بارة

(١٢) مجلدات الهلال

﴿ الاوّل والثاني ﴾

[illegible] الواحد من الهلال مجلداً تجليداً حسناً وموسوماً بماء الذهب [illegible] غروش واجرة البوسطة خمسة غروش صاغ

الهلال

جريدة علمية تاريخية ادبية تصدر مرتين بالشهر مزينة بالرسوم قيمة اشتراكها بالسنة ٥٠ غرشاً مصرياً

وجميع هذه المؤلفات تطلب من ادارة الهلال بمصر ومن وكلائها في الجهات ومن ارسل الثمن مع اجرة البريد طوابع بوسطة يرسل اليه الكتاب حالاً · وتسهيلاً لتحويل القروش المصرية في اثمان هذه المؤلفات الى العملة المستعملة خارج القطر نقول ان الفرنك يساوي اربعة غروش مصرية والشلن خمسة غروش